كلمة الافتتاح يوجهها :

الاستاذ فؤاد العادل

وزير الثقافة والارشاد القومي والاعلام

طالما تاقت العقول وهفت الأقلام الى ميدان تعوض فيه نتاجها السمح ، وتزجي عطاءها الخير ، وتنشر على الناس في اطار رصين بهيج أقباس الفكر المسددة الى آفاق المعرفة .

وقد اعوز هذه العقول والأقلام اللقاء المرتقب في بلدها ، فاغتربت وغدت بنتاجها امهات الصحف والمجلات في ديار العرب المترامية . لأن الساح في البلد قد خلت من مجلة راقية جدية تحضن الأدب الخالص والفكر الناصح ، والأقلام النظيفة الحرة ، وتؤلف بينها في لقاء سعيد ، فكان لزاما على وزارة الثقافة والارشاد القومي ان تأخذ زمام المبادهة ، وتعمل على سد هذا الفراغ المؤسف ، ذلك لأن العمل الفردي ، مهما أوتي اصحابه من قوة الايمان ، وثبات الجنان ، والصبر والجلد على المكاره والصعاب ، مآله التسليم بالمصير المحتوم الذي آلت اليه سائر المحاولات الخيرة التي سبقت في ميدان الفكر والنشر .

فقامت مجلة « المعرفة » لتكون سوقا للادب ، مهرجانا

للفكر ، معرضا للفن ، موعدا للقاء بين حاملي رسالة الحرف، وسدنة الثقافة والفكر في دنيا العرب والعروبة ، فتعبر عن رسالة الوزارة في نشر الثقافة الناضجة والفن الأصيل، والقومية العربية العريقة المتطورة .

واني اذ اقدم مزهواً للقراء العرب العدد الاول من مجلتنا « المعرفة » أرجو وآمل ان يتصل بي الزهو ، ويتسامى الاعجاب يوما بعد يوم ، وعددا وراء عدد ، فيتكامل البناء، ويغتني النتاج وتتحقق الرسالة .

وبعد فهذه المجلة مفتوحة الابواب بحياد وتجرد لكل يراع ماض وفكر مشرق ونتاج خير هادف. ولن تقوم وتزدهر الا بتعاون أهل الفكر والعلم والفن والقلم ، ورفدهم لها وايمانهم بضرورة وجودها، وسمو مقاصدها ونبل اهدافها . وقد حشدنا للمجلة كل وسائل النجاح ، واستقطبنا من حولها شتى الطاقات الناشطة المبدعة ، فادعوا معنا لها بالنجاح والتقدم ، بل اعملوا على ان تكون محاولة فريدة ، وتجربة نافعة باقية .

هــذه المجـلة

عندما قررت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، اصدار مجـلة ثقافية باسـم المعرفة ترامى الى هيأة التحرير ان الاسم كثير التداول في بلاد العرب ، حتى لا يكاد يخلو قطر عربي من مجلة او صحيفة تصدر الآن بهذا الاسم ، عن مؤسسة رسمية أو أهلية ، أو سبق أن صدرت به واحتجبت .

وكانت لجنة الادارة والتحرير امام قولين : قول يدعو الى اسم بديل ، وقول يلتزم الاسم الاصيل ، ثم اخذت اللجنة بالقول الثاني ، بلا تردد لأن الأسماء الحسنى لا يمكن ان يكون لها عوض ، ولا يدني من قيمتها انها كثيرة التداول ، بل قـد يكون الانتساب اليها اسماً ، ابعث على شرف الاعتزاز بها والتوفر لها فعلا .

والمعرفة بالأصل ليست من المعاني التي يمكن ان يتفرّد بها قوم اوجماعة ، ويحبذون ان تكون لهم وحدهم اسماً او فعلا ، وقد يكون من الجائز افتراض وجود بشري يغلق ابوابه على نفسه ويحتكر الجهل ، ويشد كيانه بعصبية العدم ، توهماً منه انه يحتفظ بكيانه ويعتصم باسباب بقائه ، ولكنه ما ان يفتح الأبواب ليتصل بانوار المعرفة ، حتى يدرك انه يأخذ من هذا الكون ليعطي ، ويعرف من الحقائق مالا يملك قط ان يحتكره ويعرفه وحده ، وان ذلك سبيله ليشعر بوجوده التاريخي ، وانسانيته الحقة . والمعرفة منذ ان اخترع الانسان الاول ، النار من حك عود على عود ، الى ان اطلق بين الكواكب الأزلية كوكبه المصنوع ، هي حصيـلة المجهود البشري المشترك ، فردياً وجماعياً ، في وثباته نحو المعرفة ، وليست ملك

قوم من الأقوام، او ملة من الملل، او مذهب من المذاهب، ولن تكون. وان حقّ لنا أن نستقبح احتكار المعرفة او التفرد بادعائها، فمن الحق ان نستقبح احتكار الجهل باغلاق باب الحياة على الاحياء، مها حشدت القوقعة المتحجرة لنفسها، من مبررات البقاء والكيان.

* * *

ولاعجب بعد، أن تتسابق المجموعة العربية، مشرقاً ومغربا، الى شرف الانتساب، فتظهر المعرفة في عناوين مؤسساتها الثقافية، وتقبل على منهل العرفان تغترف منه وتوزع على جماهيرها، ففي ذلك وفاء لتاريخ الأمة، وجري على اعرق تقاليدها، وترسم لأخلد آثارها، وأخذ بمبادىء دينها ودنياها، فلقد فتحت الأمة الخالدة صدرها لثقافات الزمان وحضارات الشعوب، فأعطت وأخذت، وفعلت وانفعلت، وكانت عندما زال سلطانها تضع القدم ثابتة على رأس الجسر الذي عبرت فوقه بالذات شعوب اوروبة في عصر النهضة، بعد اجيال وقرون.

كانت الأمة العظيمة في سبيلها الى اكتشاف الثقافات القديمة، والحضارات الراسبة، لتقود تقدما حضاريا جديداً، دون ان يعتريها الغرور او يقف دون نشدانها المعرفة حجاب، عندما اوقعت بها عصبية العنصرية المتربصة، ودفعت الشعوبية نحو العروبة منجنيقاً مخربا، ولم تكن الشعوبية في واقعها سوى ستار للعنصرية الحاقدة تمضي الى استغلال انسانية العربي، ومثاليته الفكرية، وسماحته الدينية، لتهدم سلطانا سياسيا لو استمر واستطال بعض الأجل، لقاد النهضة الحضارية من قبل أن تذرّ في عصر النهضة الاوروبية أي شارة للنهوض.

من حق العربي اينما كانت مساكنه اليوم، فوق أرض هذه الامة، ان يتيمن باسم المعرفة وينشدها في القرب والبعد، ومن المهد الى اللحد، وهو اشد

حماسة واعنف مطلباً ، واعظم شوقاً ، لأنه وحده يستطيع أن يقيس هول المأساة الكبرى التي حلت بأهله ودياره ، عندما لوى بالأمس عنان طموحه ودخل في نفق الظلام طوال اربعمائة عام كانت نكبة للانسانية كلها بافتقاد المشاركة العربية .

وعندما نتحدث عن تقاليد الأمة في نشدانها المعرفة ، وقيادتها موكب العقل البشري فاننا لا نفعل تهويلاً او مكابرة او تعصباً ، فالعقيدة العربية ،بالاسلام، نشأت تحت راية المعرفة والادراك ، والشوق الى الانطلاق ، ودعت إلى التفكير والتأمل في معجزة الخلق ، ونظام الكون ، ونشوء الحياة ، وتاريخ الشعوب وكل ما هو في أبعاد السماء ، او على سطح الأرض ، مما لم يكن قط مألوفاً او معروفاً . فتفتح للدعوة وجدان الجاهلي المادي ، كما تفتح لها تفكيره في وقت واحد معاً ، واذا بالعقل العربي في ظل الدعوة ، واحياناً كثيرة في حمى الخلفاء والوزراء وقادة الدولة ، يجول جولته الخارقة عبر ثقافات الأمم وحضارات الشعوب ولغات الأرض ، مما لم تنهض به أمة من الأمم ، على هذا القياس ، وعلى هذا الصدق والتجرد ، من قبل ولا من بعد ، حتى يومنا هذا .

تفتحت انسانية العربي للدعوة واكوانها الجديدة الرائعة ، وفي أولى كلمات تنزيلها الحكيم امر الله : « إقرأ ... » فانجلى للدعوة سمعه وبصره ، وقلبه وعقله ، أن اقرأ أيها الخامل ، وتعلم ايها الجاهل « إقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » . فكانت الدعوة الى العقيدة دعوة الى العلم ، والتأمل ، وإعمال الفكر ، دعوة الى الثورة على الجهل كوضع فكري ، وعلى الجاهلية كوضع اجتماعي ، وفي الوقت نفسه ، نداء الى شعور الانسان بقيمة وجوده الذي سخرت له الأرض وما عليها .

على هذه الأكوان الفسيحة المرسومة في صحف التنزيل بالوصف المبدع

والبيان المعجز ، تفتح الفكر العربي للتأمل ، والتجول والبحث ، فكانت مجموعة العلوم الدينية والدنيوية ، من فقه الى فلسفة،الى طب ورياضيات ، وفلك وكيمياء، مما اتسم كله بميسم التفكير وإعمال العقل ، علوياً كان أم ارضياً ، موضوعاً أم منقولاً ، ومن هنا كان فقهاؤنا فلاسفة ، وفلاسفتنا علماء ، والشارحون اللغويون رياضيين حسابيين ، وصانعوا القوافي صائغين مهندسين ، وعندما نبلغ عالم الشعر نكاد نقول أن شعراءَنا حكماء ، كثيراً ما أرادوا ان يغنوا ففكروا ، او ارادوا ان يتخيلوا فصوروا ، حتى ان الماجنين منهم ، ملأوا كؤوسهم تأملات في الحياة والموت واحوال الدنيا وانسانها .

على هذا النهج من التأمل والتفكير باعمال العقل ، اتجهت العقلية العربية نحو ما يوازيها ويلائم حاجاتها المعاصرة ، من علوم الشعوب وفلسفاتهم ، فقبس العرب عن الحضارات اليونانية والفارسية ، والهندية ، وترجموا عن جميع لغات الكون القديم من سريانية وعبرية الى نبطية وسنسكريتية ، فابحروا بالبحث شرقاً وغرباً ، ونقلوا العلوم والفلسفات وبعض الأدب ، واستقروا حيث ارشدتهم بوصلة العقل ، على ارسطا طاليس وافلاطون ، ولم يستقروا على ملاحم هوميروس او تراجيديات سوفوكلس ، مثلاً — وان يكن من المحقق انهم عرفوها وامثالها — لأن النزوع العقلي — اولاً — وهو طابع التفكير العربي ، ثم الشعور بالامتلاء الأدبي حول فيض من الشعر ملأ الدنيا وشغل الناس — ثانياً — والانشغال الفعلي الشاغل بالحضارة المزدهرة التي تطلب مزيداً من العلم — ثالثاً — من العوامل الأولى التي عزفت بهم عن خرافات الآلهة وقصص الأبطال .

أما البطولات ، فلا نلومن قوماً بلغوا بطولاتهم ، آنئذ ذروة المجد ، اذا اشاحوا عن قصص البطولات الأجنبية . وأما الآلهة وحكاياتها ، مها بلغت من الطرافة ولونيات الخيال ، فليس من العجيب ألا تثير في عقولهم أي فضول ، لأنه في

شرع الدين العربي ، وفي منطق العقل العربي ، ان الآلهة المتعددة،مها تكن ازياؤها. قد ماتت منذ ان اذراها الرسول حول الكعبة ، ولم تحر جواباً...(١)

فالمعرفة ،والبحث عن الحق والحقيقة بالمعرفة المتطورة ، من تقاليد الفكر العربي . والدأب والصبر وهدر العمر وراء البحث والتأمل والتفكير ، من صفات المفكرين العرب . وتطعيم الحضارة العربية بمعارف الشعوب السابقة وعلومها من ابرز ما ميز ثقافة العرب الحضارية .وليس لنا إلا أن ندرك بعد هذا اننا لبثنا في نفق الظلام طوال أربعة قرون ، فسار موكب الزمان وتخلفنا ، وبات محتماً علينا ان نعوض مافات تعويضاً مركباً ، لنعيش في القرن العشرين ، لا في القرن السادس عشر ، تحت طائلة الحرمان من حق العيش أبداً . فبأي جهد ، وبأي دأب ،وبأي حب للحياة ، وحرص على البقاء !

نقول البقاء ، لأن التشبث بأسبابه ، مسلك انساني طبيعي ، إن رافقه الوعي في أدنى مراحله ، فالفكر قائمه في اعلاها ، ليتدرج هذا المسلك من حيز الحركة للبقاء ، إلى حيز الحركة للتقدم بالخلق والابداع . فنحن اذ نحيي اللغة العربية ، وندفع عنها الغوائل ، وننشر التراث العربي ، ونجلو فيه المآثر والمفاخر انما نعبر تعبيراً انسانياً عن استحقاقنا للبقاء باحياء مقوماته ،وتوكيدها بالسابقات من احداثه ، ولسنا نفعل ذلك لهواً أو اعتباطاً أو لغاية التفاخر بذاتها والوقوف

(١) قد يتخذ هذا الحديث على هامش المعرفة ، شكلاً من محاولة البحث في طابع التفكير العربي في العصر الذهبي ، يلزمنا بعض التفصيل والايضاح ، كما يلزم بحديث عن تذوق المعاني الجمالية عند العرب وتعبيرهم عنها ، مقابل الحديث عن النزعة العقلية والتفكير العلمي — والواقع ان موضوع الجماليات لجدير بكل عناية وحقيق بأن نتابعه ، أمام الباحثين فيتاريخ الأدب العربي — وعذرنا في عدم الافاضة والتفصيل ، ان البحث هذا ليس مقصوداً الا من الاستطراد السريع حول المعرفة واقبال العرب عليها بعقل مثقف يبني كياناً حضارياً رفيعاً .

عندها . ولكننا عندما نتصل بالثقافة العالمية ولغاتهـــا ، لننقل ونقتبس من أنوار حضاراتها ، في مجالات العقل والوجدان ، نكون قد اجتزنا المرحلة الأولى ، وهي صيانة البقاء ، الى المرحلة الثانية الأعلى ، وهي الطموح الى التطور والتقدم . فاذا كان معنى التطور ، في الاستمرار وحده ، لا في مجرد التبدل والتغير ، كان عزل البقاء عن التطور المستمر ، عزلاً له عن الحركة التي ترفده بالحياة . واذا كان للتطور سلوكية اخلاقية ، ويجب ان يكون — كما يقول فريق من علماء الحياة — فهي ان كل ما يعزز المعرفة : معرفة الانسان لذاته ، ولكونه ، وللعالم الكبير حوله مسلك اخلاقي خير .

. . .

وبعد، فان هذه المحاولة الصغيرة التي يقوم بها جهاز الدولة لتدعيم الكيان الفكري ، باصدار مجلة ثقافية ، ليست سوى جانب من الجوانب المتعددة التي رأت الدولة ان توليها عنايتها ، في حقل الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، عندما تحقق لها ان النشاط الفردي لا يقوى على النهوض بمثل هذه الاعباء ، وان المجتمع بلسان مفكريه واهل الرأي فيه ، انما يطـالب جهاز الدولة بتحمل تبعاته ، وبمواجهة القضية الثقافية ، بمثل ما يواجه اي قضية ذات شأن ، واكثر . بل عندما ينعدم الحافز الفردي ، او يعجز عن النهوض بعمل جماعي ، اما لضخامة شأنه او لأن غرمه لا يوازي غنمه ، يصبح نكوص الدولة عنه ، غباء مطلقاً . وعندما يكون هذا الشأن ذا مساس بالوجود الفكري ، نبض كل وجود انساني ، يصبح المجتمع برمته امام قضية القضايا ، ومعضلة المعضلات .

والمثقفون في هذه البلاد ، وفي بلاد العرب عامة ، يعلمون حق العلم ان محاولاتهم التي قاموا بها في المجالات النشرية ؛ وعلى الأخص في مجال النشر الدوري

قد انقلبت عليهم في معظم الأحايين مغـــارم باهظة ؛ وخيبة امل مريرة . وهم اذ يغامرون بالاستمرار ، بعض الوقت ، في موجة من الحماسة والاقدام ، ليشعرون على بعد من الشاطىء انهم على قرب من الغرق . حتى اذا بدا لهم ان يديروا الدفة ؛ ويدبروا للمعركة لينجوا بانفسهم ، على حفافي الابتذال وتملق النجاة ، تتطلع الى تجاربهم بالأسى ، ونود لو انهم كانوا من الغارقين .

ولعل المثقفين اساتذتنا وزملاءنا وابناءنا ، على وفاق معنا ، باننا مسؤولون بالتضامن جيلاً بعد جيل عن تربية فكر ، لا عن اشباع غرائز ، وان من وطد نفسه على ركوب الموج يجب ان يصرف سمعه عن نداءات جنيات القاع .

• • •

ثم بعد، فان هذه المجلة ليست ملكاً للدولة ، بالاصطلاح الاقتصادي وليست بمثابة منجم او مصنع صلب تضع عليه يدها ، لتفرض عليه كم الانتاج وكيفه . بل الدولة هنا — بالاصطلاح السياسي — تملك ولا تحكم . وليست تملك بالواقع سوى الحبر والورق وماتقدر به ثمرات الاقلام ، اما مايطلع من هـذه المواد ليظهر على الصفحـات فهو للأقلام واصحابها ، بجرداً عن عرض مادته . وأما العاملون الخادمون في جهاز التحرير ، فانهم مفوضون من قبل الدولة بأن يحملوا أختام المفكرين وحدهم .

وحسب الدولة بجهازها جزاءً ، انها تقف من بعيد ، لتمتع نفسها برأى الغراس تماوج حرة فوق تراب الفكر الخصيب . والغراس هذه ليست وعداً جمالياً ، من وعود التراب والشمس فحسب ، بل هي غداً جنة من الثمار اليانعة قطوفها دانية .

• • •

وأخيرا فكلمتنا إلى المثقفين علماء وادباء ، الذين تدعوهم وزارة الثقافة

والارشاد القومي الى المائدة ، وهي لهم يخدمون فيها انفسهم - ان هذه المجلة بحاجة اليهم ، والى اخلاصهم للقضية الفكرية بين اولى قضايانا، لا يمنون عليها، ولا يتراخون عنها ، مثلما هم بالحاجة الشديدة اليها ، لأنهم طالما شكوا من ثغرة فقدانها - يتعارفون في صفحاتها ، ويتعرف اليهم جمهورهم الكبير ، بما يقدمون له من روحهم وفكرهم . وان مستواها لمن مستواهم لا تطول ولا تقصر ، وهي مرآتهم التي لا ترائي. فان افلحت فهم المفلحون ، وان أخفقت فهم المخفقون .

... **ولها نهايتان** : احداهما ان تقبض الدولة كفها عنها وتغلها عن عطاء النور ولن تفعل . والثانية ان يقبض المثقفون اقلامهم عنها فيحبسوها عن عطاء انفسهم ، وما هم فاعلون .

بل لها نهاية ثالثة قد تكون اقرب الى الواقع والتمني معاً . وهي ان ينهض لها من هذا الوسط من يجاريها على الأقل ، او من يسابقها فيسبقها ؛ وعندئذ تحتجب عن العين كما يحتجب القمر المتأخر ، بفاجئة بزوغ الفجر . ولتبتهجن نهايتها السعيدة ، مثلما ابتهجت بولادتها المتفائلة .

ولا يضير الحبة ان ترسب في جوف التراب، اذا هي اعطت حقول السنابل .

رئيس التحرير

الكتاب والموضوعات :

العلوم الاجتماعية

للدكتور محمد المبارك

دروس من تاريخنا

ظواهر كثيرة في تاريخنا تلفت النظر وتستوقف الباحث المتأمل طالما استرعت انتباهي ودفعتني الى التفكير فيها ومقارنتها بأمثالها في تواريخ الامم والحضارات . ومن ابرز هذه الظواهر التي نجد فيها درساً من الماضي وعبرة للحاضر ومجالاً للتفكير وعوناً على رسم خططنا العملية واهدافنا العامة ، ظاهرتان بارزتان : اولاها ان الفتوحات التي قام بها اسلافنا في العالم بقيت آثارها ومعالمها مستمرة حتى بعد خروجهم وانقضاء نفوذهم وذهاب سلطانهم. وبقي أهل البلاد التي فتحها العرب وشعوبها يحفظون للعرب الود ويشعرون بالمحبة ويتصلون بالثقافة ويرتبطون بالأفكار والعقيدة ، في حين أن الفتوحات التي عرفتها الأمم الأخرى ولاسيما فتوحات العصر الحديث انتهت بالانفصال وتصرم الود واعقبت الحزازات ان لم تعقب الاحقاد والثارات . فهذه اندونوسيا مع هولندا، والجزائر مع فرنسا ، ومصر مع الانكليز وليبيا مع ايطاليا، والكونغو مع بلجيكا وغيرها من أمثلة الفتوح والاستعمار في العصر الحديث فهل بقي الحب والولاء بين هذه الدول التي فتحت البلاد وحكمتها فترة من الزمن والشعوب التي فُتحت وحُكمت ،ام انقطعت الأواصر والصلات حيناً واشتعلت نيران الكره والحقد في اكثر الاحيان .

إن السبب الحقيقي لاختلاف النتائج بين فتوحات العرب وفتوحات غيرهم هو ان فتوحات العرب كانت غايتها في الواقع ونتائجها كذلك تحرير البشر من

انواع العبوديات وتحقيق المساواة الانسانية بينهم واشعارهم بالكرامة الانسانية المنبثقة عن عقيدة الايمان بالله خالق النـــاس اجمعين ورفع مستواهم بتعليمهم أولاً هذه المبادىء التي تشعرهم بانسانيتهم وكرامتهم، وتبث فيهم هذا الوعي وتهديم المبادىء المنافية لها التي تخضعهم لانواع من العبوديات، وتثقيفهم ونشر العلم فيما بينهم واقامة العدل فيهم دون تفريق بينهم وبين الفاتحين، ونشر المبادىء الخلقية والانسانية وربطهم بعقيدة تجمعهم وتربط فيما بينهم وبين الفاتحين انفسهم دون تمييز، وتحررهم من الخرافة والوثنية والعبودية.

أما أهداف الفتوحات الاخرى ولاسيما الفتوحات الاستعمارية، فقد كانت ايجاد سوق لبيع منتجات بلاد الفاتحين أو مورد لموادها الأولية، او مرتزق لاهلها ومجال للتكسب والعمل، أو لأخذ الفائض من أموال البلد المستعمر لاغنـــاء بلد الفاتحين أو تحقيق امجاد قومية على حساب الشعوب الاخرى.

ولذلك فتحت بعض الشعوب أبواب بلادها للعرب على مصراعيها من غير حرب وفسحت لهم المجال لنشر لغتهم ودينهم وثقافتهم وتجارتهم ومكنت لهم في بلادها واحلتهم المحل الرفيع حتى في الوظائف والحكم، ومن هـــذا القبيل بلاد الملايو واندونوسيا وكثير من بلاد جنوبي آسيا. ولهذه الأسباب نفسها اختلفت نظرة أهل البلاد المفتوحة بالنسبة للعرب عن نظرة الأوربيين فيرى الهنود المسلمون والافغانيون مثلاً في الفتح العربي تحريراً لبلادهم ويعتبرون امثال محمد القاسم الثقفي بطلاً انسانياً محرراً ومنقذاً لهم من الضلال والعبودية، وينظرون الى الثقافة العربية على أنها الثقافة الانسانية التي يرجعون اليها والى ماتضمنته من مبادىء وتعاليم نظرة الولاء والارتباط.

وكان من نتائج ذلك ان بقيت الثقافة العربية في تلك البلاد مكرمة معززة تحتل مكانة رفيعة في ثقافة تلك الشعوب، وبقيت روابط وثيقة وصلات وشيجة من

عقائد والافكار والعواطف والمشاعر بينهم وبين العرب .

ان هذه الظاهرة جديرة بان تجعلنا نفكر في تخطيط حياتنا الحاضـــرة وتحديد معـــالم ثقافتنا وتوثيق صلاتنا بالشعوب التي لا تزال هذه الثقافة العربية راسخة فيها وذلك الولاء متمكنا في قلوبها .

اما الظاهرة الهامة الثانية فهي ان اسلافنا حين واجهوا حضارات الامم الاخرى التي ربما كانت من الوجهة المادية ارقى منهم لم يأخذوهـا اخذاً ولم ينقلوها بجملتها ولم يقفوا منها موقف الجائع النهم من الطعام الكثير المغري بلذته ومذاقه . ولكنهم اقتبسوا منها اقتباسا فأخذوا اجزاء وتركوا اجزاء واختاروا منها اختياراً،وجعلوا لأخذهم واقتباسهم ضوابط ومقاييس،وتمثلوها تمثلا،وهضموها هضما فكانت مفاهيمهم وعقائدهم ونظرتهم الى الحياة وفلسفتهم فيها ومبادئهم الخلقية هي المقاييس في الاخذ والترك والقبول والرفض . فلقد تركوا عن عمد الوثنيات الضارة والفلسفات السامة الخبيثة والاساطير الخرافية ،والادب الذي ينطوي على تعليم الخضوع والعبودية او على التمرد والتحلل والاباحية من الحضارات اليونانيـة والفارسية والهندية .

لقد كانت لحضارتهم صيغة ومن خلال هذه الصيغة ، وعلى اساس دستور هذه الحضارة ،واسلوبها اغنوها بمادة جديدة تمثلوها وغذوا انفسهم وحضارتهم بها ونفوا عنها المادة التي تفسدها والتي لا تهضمها ولا تقبلها ،والتي تشوه تركيبها وتفسد صيغتها وتغير معالمها ومفاهيمها .

وما كانت مرحلة الانحطاط والانهيار الا نتيجة اسباب اهمها تشويه تلك الحضارة وافسادها وتغيير معالمها وادخال افكار غريبة عنها دخيلة عليها أدت الى عبوديات ووثنيات جديدة وظلم سياسي وتفاوت طبقي وخرافة فكرية وصوفية اعجمية وانحلال خلقي وترف مفسد .

ان هذه الظاهرة الثانية تدعونا الى اعادة النظر في موقفنا من الحضارة الحديثة في مختلف مذاهبها واشكالها وفي شتى ميادينها وآفاقها، فلا يكون موقفنا اغلاق الابواب وسد المنافذ والاعراض المطلق بحجة انها اجنبية او بحجة انها غريبة عنا، ولا يكون كذلك فتح الباب على مصراعيه والخضوع التام لمفاهيمها وافكارها والقبول المطلق لمبادئها ومثلها والتقليد لنظمها ومؤسساتها والاعجاب التام بعاداتها وتقاليدها .

لا بد من اتخاذ موقف مشابه لموقف اسلافنا و الاخذ من الحضارة الحديثة في اطار مبادئنا وتبعا لضوابط وبموازين ومقاييس . ان الخير كل الخير في ان نكون نحن الحاكمين عليها حين نأخذ منها ونقتبس لا ان نكون المحكومين الخاضعين والمأمورين المطيعين والتابعين الخانعين .

ان عهد التبعية الفكرية يجب ان ينتهي كما انتهى عهد التبعية السياسية . فلقد اتى علينا حين من الدهر كنا نقيس فيه حضارتنا بمقاييس الحضارة الغربية ونحكم عليها بموازينها ومعاييرها في الخير والشر والصلاح والفساد .

فقد اجتلبنا من الغرب اصناماً جديدة اتخذنا لها من بيوتنا ومجتمعاتنا وأوطاننا معابد نقيم شعائرها ونحيي ايامها ونحلها محل شعائرنا وعاداتنا ومثلنا أو محل ما يجب ان يكون لنا من شعائر ومثل وعادات .

ان مفاهيمنا في الحرية والمساواة والديمقراطية والاشتراكية والتطور والتقدم يجب ان يعاد فيها النظر وتوضع من جديد على منصة البحث والنقد وقد يصيبها التعديل والحذف والاثبات وقد يضاف اليها مفاهيم أخرى من نوع آخر . ولئن مررنا في (عهد التحرر) الذي تحررنا فيه من الخضوع الاعمى لأفراد من الناس أو التقليد المذهبي الضيق أو تقديس آراء هي من الاجتهادات الفردية أو التقيد بعادات اجتماعية ما ازل الله بها من سلطان فقد انتقلنا بعد ذلك الى عهد آخر

من التقليد والاتباع في الافكار والمفاهيم والعادات ونحن اليوم بحاجة الى ثورة في القيم والمفاهيم والى جرأة في التحرر من التبعية الفكرية والروحية للحضارة الغربية لا لنلغيها أو نحاربها بل لنصلحها ونكملها وهذا العهد الجديد يمكن أن نسميه عهد الذاتية والوعي .

ان لنا في هاتين الظاهرتين في تاريخنا: خلود الفتوحات الفكرية والخلقية التي قام بها أسلافنا ووقوفهم موقف الاختيار والانتقاء من الحضارات الأجنبية على أساس عقائدهم ومبادئهم الخلقية لعبرة عظيمة ودرساً بليغاً لنا وللانسانية معاً .

ذلك ان أصوات البشر ترتفع اليوم من كل مكان مستغيثة مستصرخة تئن من ثقل الآلات الضخمة وضغط الزحام على موارد الرزق والتنافس على الانتاج والتقاتل على السيادة وتحت وطأة التنظيمات المعقدة والسلطات الاجتماعية . فقد غدا الانسان عبداً لما اخترع وصنع ، وأصبح في هـــذا المجتمع الذي نظمه آلة في معمل كبير تدار ولا تدير وانقلب المال والانتاج والآلة والثروة التي هي في الأصل وسائل لاسعاد الانسان غايات تتخذ من الانسان نفسه وسيلة لتوليدها وتكثيرها وتجعل منه عبداً يتعلق بها برابطة من شهوته وهواه أو بحكم قانون ابتدعه ونظام اصطنعه . وأصبح العقل والعلم بل الأخلاق خداماً للمال والسلطان السياسي لأن فلسفة الحضارة الحديثة وضعتها في موضع الخادم المحكوم لا السيد الحاكم فقد أقيمت على انكار القيم العليا والمثل الخلقية وعلى انكار الله مصدر الخير والحق والمعرفة أو الاعراض التام عنه وانقطاع الصلة به .

إن الحضارة الحديثة فلسفت الحق ولكنها قتلته وصاغت نظريات العدالة ووأدتها ، وبحثت في الخير وتنكبت طريقه وتفننت في ابداع انظمة للحكم ونادت بالديمقراطية ولكنها اضطهدت الشعوب بالجمـــلة، واعلنت الاشتراكية فوقعت في استبداد الجماعة وفوضى الجماهير . عالجت ظاهر الأوضاع وتركت النفوس يكيد

بعضها لبعض الحاكم والمحكوم وصاحب المال والعامل والأب والاولاد والرجل والمرأة وفسحت المجال للعقل ولكنها تركته فريسة الاهواء والشهوات والغرائز.

ان الحل السليم لأزمة الانسانية انما هو في بعث العناصر الأساسة الخالدة لانسانية كاملة تجمع بين حركة العقل واستثمار الطبيعة وابداع الانسان من جهة والسمو الروحي والغايات الخلقية والينابيع الايمانية التي تمد قلب الانسان بأسمى العواطف وترفعه الى أنبل الأهداف وتربطه بالله من جهة أخرى. ولم يتحقق ذلك كله إلا في حضارة واحدة هي حضارتنا العربية الاسلامية في فترة من فترات التاريخ. ولذلك كان مفتاح الحل في أيدينا نحن الذين ورثنا هداية الانبياء وثقافة العرب وحضارة الاسلام. إن تلاميذ حضارة الغرب وانصارها لم يعودوا الطليعة في قافلة أمتنا لأنهم يمثلون عهد التبعية للغرب والتلمذة لحضارته، عهد النقل والتقليد والاقتباس لا عهد الابداع والوعي الجديد. لقد عزلوا عن القيادة كما عزل من قبلهم ورثة عهد الجمود والانحطاط الغافلون عن مشكلات الحياة وتطورها المرددون للألفاظ الواقفون عند المظاهر والأشكال.

إن الطريق السوي القويم المؤدي الى أطيب الثمرات هو في أخذ الأسس الصحيحة والعناصر الخالدة من تراثنا وحضارتنا وديننا وسلوك اتجاهاتها الانسانية القويمة والأخذ بقيمها الروحية ومبادئها الخلقية، المرتكزة في قاعدتها الأخيرة على الايمان بالله وحسابه، وازالة عوائق التقدم ورواسب الانحطاط، والاستفادة من نتاج الحضارة الحديثة في تفكيرها العلمي في ميدان الطبيعة وفي صناعاتها وأساليبها النافعة دون نظامها الفلسفي الاعتقادي الخلقي في الحياة.

تلك هي نتيجة التجربة وخلاصة العبرة التي انتهيت اليها في تطوافي بين الثقافتين وتنقلي بين الحضارتين وهي نتيجة مفيدة وخطيرة في اعتقادي لقومي وللانسانية جميعاً.

الطابع الانساني
للقوميّة العربيّة

للدكتور جميل صليبا

سنقصر الكلام في هذا البحث على الصفات المميزة للقومية العربية ونخص منها بالتفصيل صفات انسانية استقرأناها من وقائع العرب وتاريخ حضارتهم وآدابهم. وسبب رجوعنا الى امثلة التاريخ للبرهان على هذه الصفات ان النزعة القومية عند العرب ليست بنت اليوم، وانما هي نزعة قديمة هيأ اسباب بعثها في العصر الحديث اتصال العرب بالبلاد الأوربية ويقظتهم الفكرية والعلمية، واطلاعهم على المجيد، وكشفهم عن تراثهم في العلم والأدب والنقد والفلسفة، ومقارنتهم حالهم في الحاضر بحالهم في الماضي، وشعورهم بتفوق الغرب عليهم في العلم والفن والصناعة، وسيطرة الاستعمار على بلادهم، وقيام طائفة من رواد العلم والادب والسياسة يذكرون ابناء قومهم بمجدهم القديم، ويدعونهم الى تثبيت مكانتهم واستئناف رسالتهم، رسالة الخير والفيض والعطاء والابداع حتى يصبحوا للغربيين الذين سبقوهم في ميدان التقدم انداداً وللشرف الرفيع الذي ورثوه عن اجدادهم بناة وحفاظاً. فلقد شق على هؤلاء الرواد أن تستكين الامة العربية لاستبداد المستعمرين، وان تنــام

على الضيم وهي التي عرفت في الماضي بالانطلاق والتحرر ، وان تصـــاب عقول علمائها وادبائها بالجمود وهم الذين بزوا غيرهم من الامم في الابداع والتقدم ، وان تمسي اللغة العربية ، وهي من اغنى اللغات ، بعيدة عن الحياة لا لعجزها عن التعبير ، بل لعجز أهلها عن التفكير . فلا غرو اذا قاموا ينبهون ابناء قومهم الى ادراك ذاتهم واصلاح حالهم ، واحياء لغتهم وآدابهم ، والى تحررهم من الاستعمار ، والاخذ بما اخذ به الغرب من اسباب القوة والتقدم . ولو كنت أريد ان أبحث الآن في الجذور التاريخية للقومية العربية لتكلمت على نشوئها قبل الاسلام ، وعلى تطورها بعده ، حتى وصلت الى ما هي عليه الآن من احوال واضحة وصفات متميزة ، ولكنني كما قلت آنفاً ، لا أريد أن ارجع الى التاريخ الا لأستقي منه أمثلة تبرهن على ما انطوت عليه القومية العربية في الماضي والحاضر من صفات انسانية خالصة .

ولسنا حريصين الآن على تحليل القومية العربية تحليلاً خارجياً ،فقد تكون هذه القومية كغيرها من القوميات خاضعة في نشوئها وتطورها لكثير من العوامل كعـــامل البيئة الجغرافية وعامل الجنس ، وعامل الاقتصاد ، وعامل السياسة ، وعامل الدين ، وعامل اللغة ،وعامل التربية والثقافة، وعامل الارادة المشتركة ، وعامل التاريخ ، ولكننا على أي حال واثقون من أن تحليل القومية العربية بارجاعها الى هذه العوامل بعضها أو كلها أشبه شيء بتشريح أعضاء البدن وفصلها بعضها عن بعض ، فهو يبين لك ان هنالك عظاماً وعضلات وجوارح واحشاء وأليافـــاً عصبية وأوعية دموية ، ولكنه لا يكشف لك عن حياة البدن وعن سره الداخلي ، ويطول بنـــا البحث لو أردنا الـكلام على جميع هذه العوامل والتعليق عليها بما يخطر لنا في موضوعها ، فان العلماء قـد بحثوا قبلنا في تأثير كل عامل منها على حدته ، ولكن من حق هذا الموضوع علينا أن نشير الى تلك العوامل اشارة سريعة وان نجتزىء هنا بكلام وجيز على ما تضمنته من صفات انسانية في الماضي والحاضر .

١ ـــ اما عامل البيئة الجغرافية الذي تكلم عليه بعضهم فزعم ان له تأثيرا في اخلاق الامم وعاداتها وقوانينها وتاريخها فله في نظرنا وجوه كثيرة . منها ان الانسان يؤثر في الطبيعة اكثر مما تؤثر الطبيعة فيه ، وان تاريخ الامة لا يعلل بطبيعة الارض وحدها بل يعلل بارادة الشعب القاطن في تلك الارض ، وان الجبال والبحار والصحارى تقرب الامم بعضها من بعض اكثر مما تفرق بينها ، فليس كل مقيم في الجبال القاحلة نشيطا ولا كل مقيم في السهول الخصبة كسولا أو متأخرا ، واذا قيل ان اكثر الديانات تنشأ في الصحارى قلنا ان هنالك صحارى لا ينشأ فيها انبياء ولا ديانات . وما اكثر البيئات الطبيعية التي قطنت فيها امم مختلفة ، وازدهرت فيهـــا حضارات متفاوتة . على انه اذا كان للبيئة الجغرافية التي قطن فيها العرب أثر في تكوينهم القومي

كأثر البحر المتوسط في الحضارات التي ازدهرت على شواطئه ، فان امتداد هذه البيئة من الخليج العربي الى البحر المحيط الاطلسي ومن اعالي الفرات الى منابع النيل هيأ لها اسباب الاتصال بغيرها من الامم وجعلها تطل على العالم من نوافذ مختلفة .

٢ — واما عامل الجنس الذي جعله بعضهم اساسا لاختلاف الامم بعضها عن بعض فهو بالرغم من اساسه البيولوجي لايكفي لتوضيح نشوء القومية . فالعنصرية غير القومية وقدتكون الامم من عروق بشرية مختلفة أو يؤلف العرق الواحد امتين مختلفتين . دع ان عروق البشر الصافية لم يبق لها وجود لاختلاط الاجناس والسلالات البشرية بعضها ببعض في مختلف اقطار العالم . وكل ماقيل عن تفوق الجنس الآري على الجنس السامي ليس سوى اسطورة ، لان الجنس السامي لايقل خيالا وابتكارا عن الجنس الآري . يضاف الى ذلك ان النظر الى حال الجنس في مرحلة واحدة من مراحل تطوره لايكفي للحكم عليه حكما عاما صادقا . فما بالك اذا اختلطت الاجناس بعضها ببعض في الماضي والحاضر ؟ والحق انه يجب ان يساء الظن بكل نظرية تتباهى بالاستناد الى العلم لتأييد غرض استعماري او استبدادي كما فعل (غوبينو) و (رينان) في كلامهما على تقدم بعض الاجناس على بعض ، وكما فعل النازيون في قولهم بتفوق الجنس النوردي على غيره . واذا اخذنا في سبر حقائق التاريخ وجدنا القومية العربية بعيدة كل البعد عن فكرة التمييز العنصري ، ألم تقم الدعوة الاسلامية على فكرة المساواة بين الشعوب والاجناس والقبائل . ألم يقل الفلاسفة المسلمون ان هذا التحالف بين الاجناس انما كان لخير الناس اجمعين . لقد قال الله تعالى : « يأأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (القرآن الكريم ٤٩ — ١٣) وقال النبي العربي : ليس لعربي على اعجمي فضل الا بالتقوى ، وقال ايضا : الناس كلهم سواء كأسنان المشط . فليس التفاضل بين شعب وشعب تفاضلا عرقيا أو جنسيا ، وانما هو تفاضل روحي اوعقلي . ولولا مبالغة الشعوبية في الطعن على العرب لما تجرد بعض ادبائنا للرد عليهم ، بل الروح السمحة التي تجلت في الاسلام هيأت اسباب التقاء الشعوب وامتزاج الثقافات واتحاد العناصر ، والدليل على ذلك ايماننا بعدم التباين بين الناس على اختلاف اجناسهم الا بما يقدمونه بين ايدي ربهم من حسنات .

٣ — واما العوامل الاقتصادية التي زعم بعضهم ان لها تأثيرا في تكوين القومية فان تأثيرها كما قيل متناسب مع مبلغ شعور الافراد بضرورة الاشتراك فيها . وانه لمن العجيب حقا ان تؤدي هذه العوامل الاقتصادية في الدولة العربية الى التقاء الشعوب وتكاملها بدلا من اختلافها

وتنافرها . فقد كانت قوافل العرب وسفنهم تجوب البلاد والبحار وتعمل على التبادل التجاري بين جميع الاقطار حتى اصبحت بغداد ودمشق والبصرة والقاهرة والاسكندرية مراكز تجارية عالمية . وكان التجار العرب كلما ذهبوا الى مكان حملوا اليه دياناتهم ولغتهم فذاع استعمال اللغة العربية في آسية وافريقية ذيوعا كبيراً حتى بلغ المنزلة التي بلغتها اللغة الانكليزية في ايامنا هذه . وكان من نتائج الازدهار الصناعي والتوسع التجاري التقاء تجار العرب بتجار بيزنطة وفارس والصين والهند في كل حاضرة من حواضر العالم . وهذا كله يدل على ان الحياة الاقتصادية في الدولة العربية كانت وسيلة لالتقاء الشعوب لاللتفريق بينهم . وما يقال على الماضي يقال أيضا على الحاضر ، فان التبادل التجاري بين البلاد العربية والبلاد الاوروبية والامريكية في ايامنا هذه يجعل البلاد العربية محورا من محاور الاقتصاد الدولي ، بل الاقتصاد العربي سواء أكان زراعيا أم صناعيا سيصبح بعد تحرره من نفوذ الاستعمار احدى دعائم السلام العام .

٤ — واما سياسة الدولة العربية فقد كان مدارها في الداخل والخارج على العدل والانصاف لايسمح فيها لصاحب الامر بان يحكم على غيره الا بما يحكم على نفسه ، لان حائط الدولة عندهم الحق وبابها الانصاف . والسلطان في نظرهم قوام كل مائل ، وصلاح كل ضعيف ، وهو كالراعي الشفيق على ابله ، أو كالوالد الرفيق بولده ، يعامل الناس بالحلم واللين والعدل والرحمة وليس ادل على ذلك من قول معاوية اني لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا مدوها ارخيتها واذا ارخوها مددتها . وقد قال الله لنبيه العربي فيما اوصاه به من الرفق بالرعية : لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . وامره بمشاورة من هو دونه في الرأي فقال : وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله . وقال النبي العربي ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل اشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله . فاذا تذكرت هذه المبادئ ونظرت الى تطبيقها في سياسة الدولة العربية علمت لم كان لخليفة نفسه يجلس مجلس الخصوم بين يدي القاضي للدفاع عن نفسه . فقاضي هشام بن عبد الملك قضى على هشام في خصومة بينه وبين ابراهيم بن طلحة ، والمأمون أجلس ابنه العباس مجلس الخصوم مع احدى الارامل فقضى برد ضيعتها اليها وظلم ابنه العباس لابتزازه الضيعة منها . ماذا أعد للقارئ من حوادث التاريخ التي تدل على عدل العرب ورحمتهم في سلمهم وحربهم ، في سياستهم وادارتهم ؟ أأذكر له أوس بن حجر الذي اراد ان يعير اعداءه فأخبرهم بان قبيلته كانت ترعى حقوقهم لو انهم نزلوا في جوارها وحماها . أم اذكر له كيف كانت الدولة العربية تكتفي من الفتح بادخال البلاد المفتوحة تحت سلطانها ثم تترك الناس

وما كانوا عليه من عاداتهم وتقاليدهم واعتقاداتهم وتقتنع باخذ الجزية منهم يؤدونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظـــة على أمنهم في ديارهم وتتركهم بعد ذلك احرارا لايضايقون في عمل ولا يضامون في معاملة . وهل انا في حاجة الى ذكر ما كان الخلفاء يوصون به قوادهم من احترام رجال الدين والنساء والشيوخ والاطفال والمسالمين. أأذكر للقارئ ما أوصى به ابوبكر يزيد بن ابي سفيان لما وجهه الى الشام فقال له : اني موصيك بعشر : لاتغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرما ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ، ولا بعيرا ، الا ما اكلتم ، ولا تحرقن نخلا ولا تخربن عامرا ، ولا تغل ولا تجبن ، أم اذكر له ما كان عمر بن الخطاب يوصي به قواده من العدل والرحمة . أظن انه من السهل على الباحث في تاريخ العرب ان يجيء بأمثلة كثيرة من هذا القبيل . واذا كانت الدولة الاموية اكثر الدول العربية تمسكا بالعصبية القومية فان عصبيتها هذه لم تحل دون معاملتها الناس جميعا بالعدل والانصاف . واذا كان التاريخ العربي لم يخل في بعض عهوده من الشوائب فقد كان سبب حدوث ذلك اما سياسة خرقاء ، اوجهـــالة عمياء ، او ادارة بتراء ، حلت بالدولة العربية لما ضعف امرها وتولى السلطان فيهـــا عناصر اجنبية لم تشرب من النبع الانساني الذي شرب منه العرب . د ءان الخليفة العربي لم يكن مستبداً بالحكم استبداد الرؤساء التيوقراطيين الذين يزعمون انهم يتلقون شريعة الحكم بالهـــام مباشر من الله ، لأن الدين الاسلامي لم يخص الخليفة في فهم الشريعة بمزية خاصة ، بل جعله وسائر العلماء في فهم الكتاب والسنة سواء ، فلا يطاع الا اذا ظل على المنهج الصحيح ، لانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ألم يقل ابو بكر الصديق « وان زغت فقوموني » ، ألم يطلب الامام مالك من هارون الرشيد ان ينزل عن المنصة ويقعد مع العامة عند استماعه لدرسه لكونه في رتبة المستفيد ؟ لقد كان الحكم في الدولة الاسلامية للأمة او لمن يمثلون الأمة من اصحاب الرأي ، ولم يكن بين الحاكم والمحكوم فرق الا بما تقتضيه طبيعة عمل كل منهما من فضائل . ومنصب الامام انما يكون بمبايعة اهل الحل والعقد ، وهو وكيل الأمة ، فاذا خالف الشريعة وجب خلعه وعزله . واعتبـــار الشعب مصدر السلطة جعل المجتمع العربي يتابع سيره في طريق التحــــرر حتى وصل الى ما وصل اليه في أوج حضارته من قوة ورقي وتقدم .

٥ — واما الدين الاسلامي الذي نظم العرب ووحد شملهم ، وألف بين قلوبهم ومكن لهم في الأرض فغرضه ترقية شأن الانسان مادياً ومعنوياً . وقد أجمع العلماء والمؤرخون على اعتبار الرسالة الاسلامية رسالة انسانية لما فيها من الحض على تحرير النفس والعقل ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالمسؤولية الفردية ، والايمان بالمساواة والشورى والتضـــامن . لقد

قال الله تعالى ليس للانسان الا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ، وكل امرىء بما كسب رهين ، وقال النبي العربي كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته ، وقال يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه ، واعملوا انه ينجدكم عند ربكم . فهذا كله يدل على مافي الرسالة الاسلامية من دعوة الى الحق والعدل والأخوة والحرية والمساواة . والقرآن انما نزل على الرسول ليكون للعالمين نذيراً ، وللانسان هادياً ، لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي ، ولا بين قريب وبعيد ، وهو في نظر المسلمين امنية النفس البشرية التي فطرت عليها لتنشدها وتتحسسها ، والقانون الكامل الذي من الله به على النوع البشري كله ، ليقيم أود حاله ، ويغنم سعادة نفسه فليس في الدين الاسلامي تفضيل لشعب على آخر إلا بما يتصف به من مكارم الاخلاق ، وليس فيه اعراض عن الدنيا أو ترك للآخرة وانما اخذ منهما معاً ولذلك كانت غايته رفع مستوى الحياة الانسانية على اساس روحي يعرف الانسان بما يجب عليه لخالقه وبما يجب عليه لنفسه وللناس أجمعين ، ومتى ادرك الانسان ما في الدين الاسلامي من قيم انسانية رفيعة أحب الأمة التي حملت رسالته ونشرتها في شعوب الأرض قاطبة بالتسامح والعدل والرحمة والحب والايمان ، وعندي ان القيم الانسانية التي انطوى عليها الدين الاسلامي هي القومية العربية بعينها ، فمن لم يؤمن بهذه القيم لم يكن عربياً حقيقياً .

٦ — واما اللغة فهي في نظرنا من أقوى عوامل القومية لما تتضمنه من آثار حضارية ولما تدل عليه ألفاظها من معان تصور حياة الأمة وتعبر عن منازعها وأفكارها المشتركة ، واذا كانت الأفكار تؤثر في حياة الالفاظ فان الالفاظ تؤثر في المعاني فتثبتها وتوضحها وتكسبها حلة اجتماعية وصفة منطقية . واذا قيل ان الالفاظ لا تعبر عن جميع خوالج الفكر ولا توضح جميع نواحيه الذاتية قلنا ان نمو التفكير الموضوعي أو التفكير الاجتماعي رهن بما تدل عليه الالفاظ من معان محددة ، لا بل ان كلا من اللفظ والمعنى يستمد من أخيه وسائل نموه وتقدمه . وما من قومية ناشئة الا اعتمدت في الماضي والحاضر على احياء لغتها ، فالقوميات الصغيرة التي نشأت في القرن التاسع عشر عملت على احياء لغاتها القومية ، والقومية العربية الحديثة التي بزغ هلالها في القرن التاسع عشر حملت ابناءها على تجديد اللغة العربية والبحث في أصولها والعمل على اغنائها وتصفيتها من جميع الشوائب التي لحقتها ، ذلك لأن اللغة كتاب تسجل فيه الامة منازعها ومشاعرها وافكارها ، او مرآة تتجلى فيها ذكريات الماضي وآثار الحاضر واحلام المستقبل وتتعكس فيها حياة الجماعة . وليس غرضنا الآن ان نتكلم على علاقة اللغة العربية بالقومية العربية ، فان هذه

اللغة كما قلت غير مرة اقوى رباط معنوي بين العرب لأنها وسيلة التفاهم والتعاطف بينهم ، ولأنها ايضاً وسيلة الحفاظ على تراثهم الفكري والروحي على مر الزمان وهي المنظمة لخوالج أفكارهم والعاملة على تقريبهم بعضهم من بعض وان اختلفت منازلهم ، الموحـــدة لنازعهم وان اختلفت لهجاتهم . ولكننا نريد ان نتكلم على ما تدل عليه الفاظ هذه اللغة من معان تكشف عن عقليـــة اصحابها ، وتميط اللثام عن طريقتهم في تسمية الاشياء ، ومنهجهم في النظر الى الوجود ، فان الالفاظ تدل على المعاني ، والمعاني تدل على روح الشعب وتفكيره ، ولذلك كانت الالفاظ وسيلة لمعرفة منازع الشعب الذي يستعملها . وقد قيل ان نسبة اللغة الى طبيعة الشعب كنسبة خطوط الوجه الى سجية الفرد ، فلو درسنا طبيعة الشعب العربي من خلال لغته دراسة علمية دقيقة لتبين لنا ان الالفاظ والتراكيب التي يستعملها افراده للدلالة على المعاني المتصورة في اذهانهم والقائمة في صدورهم لا تبلغ غايتها ، الا اذا كانت واضحة الدلالة . وعلى قدر وضوح الدلالة كما يقول الجاحظ يكون اظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح كان اظهار المعنى انفع وانجع ذلك هو البيان الذي مدحه الله تعالى ودعا اليه وحث عليه . ومن حق العرب أن تتفاخر به وتقول ان من البيان لسحراً ، ومعنى ذلك كله ان قوانين اللغة العربية توجب على المتكلم ان يكون واضح الدلالة مشرق العبارة ، لان مدار الامر والغاية التي يجري اليها انما هو الفهم والافهام، فاذا كانت الفاظه غير مطابقة لمعانيه او كانت فاضلة أو مفضولة او مقتصرة او مشتركة او مصنعة، او كانت محاطة باللبس والغموض، او وحشية معقدة لم تصلح للتعبير عن خوالج فكرهم وحاجات نفسهم تعبيراً دقيقاً . ولذلك كانت قواعد اللغة العربية اقرب الى قوانين العقل والمنطق منها الى روابط الاحـــــاس والوجدان والارادة ، ولذلك ايضا كان البناء الهندسي في نظرها افضل من البناء العاطفي المفكك ، ولولا ذلك لما تفاخرت العرب بالبيان ، ولما تفاضلت وغيرها من الامم ، وهذا كله يدل على ان اللغة العربية وهي من اغنى اللغات اشتقاقاً واكثرها فصاحة وبياناً واوضحها دلالة تعبر عما خص به اصحابها من ميل الى الوضوح العقلي والتفكير المنطقي ، وبعد عن الاساليب الملتوية والتراكيب الغامضة . ومن شأن ذلك كله ان يوحد النظر الى الاشياء ، ويعمل على تقارب العقول والتقائها. ولعلك اذا علمت ان لبعض الالفاظ العربية الدالة على المعاني الفكرية مضامين خلقية خصت بها دون غيرها من الفاظ اللغات الاخرى تستطيع ان تستدل بها على ميل العقل العربي الى الجمع بين الحق والخير في تصور واحد . فلفظ عقل يدل في الاصل على معنى الربط والتقييد ، ولفظ الصديق مشتق من الصدق ولفظ الجار مشتق من فعل اجاره اذا اغاثه ورفع الجور عنه ولفظ القوم يدل على معان فكرية وخلقية كثيرة فهو يدل على الجماعة من الرجال والنساء ، وقوم كل رجل شيعته

وعشيرته ، والقوم في الاصل مصدر قام ، تقول قام ميزان النهار انتصف وقام الامر اعتدل،وقام الحق ظهر ، وقام على الامر دام وثبت وقام بالامر تولاه ويجيء القيام بمعنى المحافظة والاصلاح والاستقامة والاعتدال والاتزان ، والقوام العدل والنظام ، والتقويم ازالة الاعوجاج . وتقدير الثمن والقيمة وكل من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه ، وقيم القوم الذي يقومهم ويسوس امرهم والامة القيمة المعتدلة ، والقويم المستقيم . ويطلق القوم على الانبياء والملائكة لا على الابالسة والشياطين،ويسمى الله تعالى بالقيوم . فاذا كانت الفاظ اللغة تدل على عبقرية الامة كعاداتها وتقاليدها وافعالها فان اشتمال لفظ العقل والصدق والجار والقوم وغيرها على مضامين خلقية يدل على نزوع الشعب العربي الى الجمع بين الخير والحق في نظره الى الوجود .

٧ — وما يقال على اللغة يقال ايضا على الادب . كلما تنبه الشعور القومي في امــــة من الامم تغنى شعراؤها وكتابها بماضي امتهم ووصفوا بطولاتها ودعوا الى تجديد شبابها . فالادب العربي الحديث مشتمل على شعر حماسي يمجد البطولات العربية في الماضي والحاضر ، ويحث على النهضة ويدعو الى الكفاح ضد الاستعمار . ويصعب عليك ان تدرس القوميـــة العربية الحديثة دون ان تدرس مافي الادب العربي الحديث من شعر حماسي ونثر وطني . واذا تعمقنا في دراسة الادب العربي قديمه وحديثه وجدنا عناصره الموضوعية أوضح وأظهر من عناصره الذاتية . انظر الى شعر المتنبي والبحتري وابي تمام واقرأ ما كتبه ابن المقفع والجاحظ وابو حيان ، فانهم على عنايتهم بالعنصر الفردي او الذاتي لايقصرون فهم عليـــه ، بل يتخذونه وسيلة لابراز العامل الاجتماعي والانساني العام ، وقل مثل ذلك ايضا في شعر احمد شوقي وحافظ ابراهيم ونثر الشدياق والعقاد وطه حسين وجبران والريحاني ونعيمه ، فقد طبع ادبهم جميعا بالطابع الاجتماعي والانساني معا . وجملة القول ان ادباءنا في الماضي والحاضر ، اذا تكلموا على الاشخاص في باب الفخر او المدح او الهجاء او الوصف او الغزل او الزهد أهملوا الصفات الذاتية وابرزوا الصفات العامة مثال ذلك ان المتنبي اذا مدح سيف الدولة لم يصف شخصا واقعيا من لحم ودم يعيش عيشة الناس ويتصف بما يتصف به كل انسان من قوة وضعف ، بل وصف بطلا قوميا أو انسانا كاملا بكلام يصدق على كل بطل في كل زمان ومكان . ان البخـل الذي يعزوه الجاحظ الى بعض البخلاء المعروفين ليس سوى ظاهرة جزئية لمعنى كلي عام يشمل جميع الناس ، وكذلك صفات الكبر والاعجاب والحياء والحلم والغضب والحسد والصمت والكلام والمنافسة والمروءة التي يتكلم عليها الماوردي الواحدة تلو الاخرى في ازواج من الاضداد ليست حالات فردية تنطبق على شخص دون آخر ، وانما هي حالات عامة تصدق على الناس جميعا . فالكتاب والشعراء لايهتمون اذن

بالفرد الا من حيث هو وسيلة لتوضيح معنى عام ، ولايتكلمون على الخصائص الذاتية الا ليصوغوا منها انماطا مجردة من السلوك . فليس حاتم الطائي في نظرهم الا مثالا حسيا للجود الكلي او الجود المثالي ، بل الجود موزع بين الناس على درجات متفاوتة ومراتب متباينة ، فاذا تكلموا عليه جمعوا خصائصه من هنا وهناك وصاغوها في قالب مثالي يدل على الجود المطلق لاعلى الجود النسبي الا ترى ان اخوان الصفا لما تكلموا على الرجل الكامل قالوا ينبغي ان يكون الرجل الكامل فارسي النسب ، عربي الدين ، عراقي الآداب ، شامي النسك ، يوناني العلم، هندي البصيرة ، صوفي السيرة ، ملكي الاخلاق ، رباني الرأي ، الهي المعارف، فهم قد جمعوا هذه الصفات من هنا وهناك من دون ان يفرقوا بين عربي وعجمي فصاغوا منها معنى كليا يدل على اتجاههم الانساني.

٨ — واما الثقافة العربية فلم تكن في وقت من الاوقات محصورة في النطاق القومي الضيق ، بل كانت في نشوئها وتطورها مطبوعة بطابع انساني عام . الا ترى ان شعراءنا يتغنون بالخير والحق والجمال والعفة والعدل والجود والبذل والحرية والايمان والكرم والاباء والشجاعة والمروءة اكثر مما يتغنون بالشهوات الجامحة واللذات الرخيصة والعواطف الغامضة . ان اكثر شعرائنا الذين نظموا في الغزل والنسيب والمدح والفخر وناجوا الله والطبيعة وتكلموا على الدين ومكارم الاخلاق لم يقفوا عند الوجود الحسي المتبدل الالوان الا ليرتقوا منه الى مبادئ روحية مثالية تفيض على الكون السلام وعلى الناس الفرح والطمأنينة والمحبة .

وكما تتجلى هذه الروح الانسانية في الشعر العربي فكذلك تتجلى في الموسيقى والفنون والفنون التشكيلية اما الموسيقى ففيها حب وبكاء وطرب وشوق ومناجاة . وما تكرار الاصوات فيها على نمط واحد الا كتهدار الحمام الساجي، وغناء الطائر الغريد ، ليس فيه مافي تناوح الرياح من شدة ولا مافي قصف الرعد من قوة وذعر ، واما الفنون الاخرى كالعمارة والزخرفة والفسيفساء والنقش على النحاس والجص والخشب والوشي والخط وغيرهـا فتدل على مافي طبيعة العقل العربي من رقـة وانسجام ووحدة واتزان . فتكرار العامل الواحد في الوشي تكرارا متصلا غير محدود يدل على التقاء الزمان والمكان في تعاقب بسيط ينقلك من المتناهي الى غير المتناهي وتكرار الخط الواحد في النقش والزخرفة من البداية الى النهايـة على نسق واحد ينقلك من النسبي الى المطلق ومن الجزئي الى الكلي . وعلى ذلك فالفن العربي لايضع الخطوط المتشابهة بعضها الى جانب بعض في نظام هندسي بسيط الا لينقلك من المحدود الى غير المحدود ومن الجزئي الى الكلي ، وفي هذا الانتقال دليل على نزوع العقل العربي الى مجاوزة ذاته المفردة واتحاده بغيره من العقول .

٩ — واما التربية العربية فانها في ماضيها وحاضرها قومية وانسانية معا . والدليل على ذلك انها كانت في ماضيها دينية ودنيوية واجتماعية وانسانية في آن واحد . فالفرض الديني يتجلى في اعتبار القراءة والكتابة وسيلة لقراءة القرآن وحفظه والمحافظة عليه حتى ان المعلمين كانوا يعلمون القراءة قربة الى الله من دون ان يأخذوا على ذلك اجرا ولم يكن هنالك فرق بين العلم والعبادة ، ولا بين المدرسة والمسجد . والفرض الدنيوي يتجلى في اهتمام التربية العربية بتعليم الحساب والسباحة والفروسية الى جانب العلوم اللغوية والدينية ، لقد قال الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وقال النبي العربي : ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ، ولا الاخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذمن هذه وهذه . وقال عمر بن الخطاب: علموا اولادكم السباحة والفروسية ورووهم ماسار من المثل وحسن من الشعر ، وقال ابن التوأم علم ابنك الحساب قبل الكتاب فان الحساب اكسب من الكتاب ومؤونة تعلمه ايسر ، ووجوه منافعه اكثر (البيان والتبيين جزء ٢ ص ١٣٨) وهذا كله يدل على ان التربية العربية كانت تهدف في الماضي الى العناية بالدين والدنيا والروح والبدن على حد سواء . واما الفرض الاجتماعي فيتجلى في اعتبار التربية وسيلة لرفع منزلة الفرد في المجتمع كقول عبد الملك بن مروان لبنيه : « يابني تعلموا العلم ، فان كنتم وسطا سدتم ، وان كنتم سوقة عشتم » . ولكن تأثير العلم لم يكن مقصورا على رفع بعض الافراد من طبقة الفقراء الى طبقة الخاصة فحسب كأبي العتاهية الذي كان خزافا وابي تمام الذي كان سقاء ، والجاحظ الذي كان بائع خبز وسمك ، بل بلغ تأثيره درجة جعلت العلماء ينظمون انفسهم ويؤلفون في الدولة العربية طبقة ذات مكانة اجتماعية يحترمها الخلفاء والامراء ويقربونها من مجالسهم ، وادى هذا التطور الاجتماعي مع ذلك الى طلب العلم لذاته لا لمنفعته المادية او الاجتماعية ، قال الزرنوجي : « كفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيا وباعثا للعقل على تحصيل العلم » وقيل ايضا : « من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما انما جاء شبيها بالعلماء » وهذا كله يدل على ان اهداف التربية العربية القديمة لم تكن دينية فقط ولا دنيوية او اجتماعية فقط بل كانت انسانية كاملة تجمع بين مصالح الدنيا ومصالح الاخرة وبين الحاجات النفعية والحاجات المثالية ، ومما يدل على هذه النزعة الانسانية ان اكثر مناهج التعليم في العالم العربي الحديث تجمع بين الاهداف القومية والاهداف الانسانية في وزن واحد من الاتساق . ذلك لان القومية والانسانية في نظرها تلتقيان ، والعروبة لاتقوم على اصطناع القوة والاستعمار والتوسع الجغرافي على النحو الذي قامت عليه فكرة القومية في القرن التاسع عشر ، وانما هي مفهوم خلقي يقوم على تنمية شخصية الفرد ، وتحقيق ذاته الكاملة في مجتمع متماسك يفرض عليه

الولاء القومي من دون ان يفرض عليه كرهالقوميات الاخرى ، وليس ادل على ذلك من التشريع التربوي الحديث الذي جعل غاية التربية اعداد جيل جديد يؤمن بالله وبالوطن العربي ، ويثق بنفسه وامته ويهدف للمثل العليا في السلوك الفردي والاجتماعي ، ويستمسك بمبادىء الحق والخير ويملك ارادة النضال المشترك واسباب القوة والعمل الايجابي متسلحاً بالعلم والاخلاق لتثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والامن والحياة الكريمة **(المادة الاولى من اتفاق الوحدة الثقافية عام ١٩٥٧) . دع انمناهج التعليم وكتب التدريس في كل قطر عربي تجمع بين الناحيتين القومية والانسانية** (راجع مقالنا التربية العربية بين القومية والانسانية في مجلة العـلم العربي) **وأن زعماءنا القوميين يعملون من اجل سلام العالم اجمع ومن اجل الحريات وتقرير المصير ، ينشدون السلام بالعدل والحرية حتى يستطيع كل شعب في ارجاء هذا العالم ان يحقق** لنفسه الحرية والاستقلال وان يؤكد **انسانيته داخل الاطار القومي.** فرسالةالعروبة**في نظرهم انما هي رسالةالحرية والكرامة ، والفكرة القومية** عندهم انماهي فكرة انسانية رفيعة**.ولذلك كانت**سياستنا **الحديثة مفعمة** بالحب والتسامح **والتفاهم المتبادل** كسياستنا**القديمة ، ولذلك أيضاً كانت تربيتنا** الوطنية قومية وانسانية معاً .

١٠ — واما عامل الارادة المشتركة الذي زعم بعضهم انه قوام الامة الجوهري فهو ينحل في نظرنا الى عوامل روحية مشتركة منها ذكريات التاريخ من مجد وألم ، ومنها رغبة الافراد في ان يعيشوا عيشة مشتركة تتلاقى فيها منازعهم وتتحد فيها آمالهم ، كأن الأمة روح أو عقل كلي يدرك ماضيه وحاضره ومستقبله . ولكن الارادة المشتركة ليست في نظـرنا سوى نتيجة لعوامل كثيرة منها الاشتراك في التاريخ ، ومنها الاشتراك في اللغة والثقافة واذا حللنـا هذه الارادة المشتركة وجدنا فيها قيماً روحية انتقلت الى الامة العربية من ماضيها البعيد وقيماً خلقية وأدبية أكسبها اياها وعيها الجديد . وسواء أكانت هذه الارادة المشتركة علة قوام الأمـة أم نتيجة لوجودها فان الارادة التي تنطوي عليها القومية العربية في ماضيها وحاضرها انما هي ارادة انسانية خالصة ، يدل على ذلك ايماننا بقيمة الانسانوشعورنا بالمساواة ،وتقديسنا للحرية والعدل، وحرصنا على النظام الديمقراطي وعلى معاملة جميع الناس بما نعامل به انفسنا ، انا لا نفضل انساناً على آخر الا بما يقدم للأمة من خدمات ، ولا تفاضل بين أمة وأخرى الا بما تضيفه على تاريخ الحضارة من

قيم عقلية وفنية وأدبية . انك لا تجد في تاريخ حضارتنا مفكراً قال بتقدم القوة على الحق كما قال بذلك (هوبس) و (سترنر) و (نيتشه) وغيرهم ، ولا فيلسوفاً قال بتقدم الهوى على العقل والكفر على الايمان ، او اللذة والمنفعة على الفضيلة ، أو الفوضى على النظام أو الحرب على السلم كما قال بذلك بعض مفكري الغرب . واذا كان بعض شعرائنا القوميين يتغنون بالبطولات المادية ويقولون ان المجد للسيف لا للقلم فليس في قولهم هذا دليل على وجوب تقديم القوة على الحق ، بل الحق في نظـرهم غاية والقوة وسيلة . وقول المتنبي ان الظلم من شيم النفوس ليس سوى تقرير لامر واقع لا لقانون واجب ، وكذلك قوله ذو العقل يشقى في النعيم بعقله فهو لا يتضمن أي دعوة الى الجهل . واذا كان وصف الفارابي للمدن الضـالة ابلغ من وصفـه للمدينـة الفاضلة فليس في كلامه على القهر والقوة والجهـل والبغض والتغالب واللذة وغيرها من روابط هـذه المدن الا كل دعوة الى الخير والحق بل الانسان والمعمورة والكون في نظره حلقات مختلفة لسلسلة واحدة يتجلى فيها ترتيب الموجودات وتعاونها من الشريف الى الاشرف على نظام بديع تحيط به عناية الله .

— القسم الثاني من مقال الطابع الانساني للقومية العربية ينشر في العدد القادم من المعرفة —

لماذا نظرت ؟ وماذا رأيت ؟ في أعماق الانسان ؟

لايوجد في جميع أنحاء الكون مكان مليء بالعجائب والأسرار كهذا الذي نسميه « أعماق الانسان(١) » ..انمايشاهدفيه لمذهل حقاً: أقول انه مذهل وذلك اذ يخيل إلي أن مافيه يخالف كثيراً هذه « القوانين » و « القواعد » التي جعلناها أساساً لبنياننا الطبي . . وأقول انه مذهل لأن بعضه لم يعرف حتى اليوم وهـذا وحده يكفي للاغراء .. والمعرفة . . واقول انه مذهل ، لأن كثيراً من الأسئلة التي ترد على لساني ولسانك ولسان الكثيرين لاتجدلهاجواباً إلاهناك . .

ومـع ذلك فأنا أعترف ، بأني لا أملك الجرأة فأجزم بأن مارأيته هو الحقيقة بعينها ، وعذري في هذا ، هو أني أقف على الحافة من هذه الأعماق، ويكاديخطف بصري مافيهامن أنوار ولألاء،فما شاهدته كان استراق نظرات وقديكون مارأيته صحيحاً أو غير صحيح . . ان الوسيلة الوحيدة للوصول الى الحقيقة ، هي أن يكثر الرواد،ويزدادعدد الناظرين فيها فقد يكون بينهم من هوأحد مني بصراً وأكثر صبراً وأمعن بصيرة، فيخدم بذلك العلم والحقيقة .

ان مهمتي بعد هذا الذي ذكرته تنحصر في سرد حكايتي والادلاء بالسبب الذي دعاني للنظر في الاعماق أولاً ثم بوصف ما شـاهدته ثانياً . .

للدكتور صبحي أبو غنيمة

(١) في اعماق الانسان — كتاب مشهور للدكتور صبحي أبو غنيمة — بحث فيه الحياة الانسانية في ضوء أحدث نظريات العلم والفلسفة .

قصتي مع (أعماق الانسان) تبدأ منذ زمن بعيد . . منذ الطفولة . . ومدرسة القرية وبالتحقيق منذ يوم (رشيد القيومي) !

وحادث رشيد القيومي هذا لعب ولايزال يلعب دوره في حياتي !.. انه هو الذي رسم لي « خط الحياة » !

و « خط الحياة » هذا تكلم عنه (آدلر) إذ قال بأن في حياة كل انسان في طفولته حادثاً يرسم له الخط الذي يظل المحور في حياته وتدور حوله كل الحوادث التي تمر عليه .. ولعل في قصتي مايكفي للتدليل على صحة ماقاله آدلر ولذا فانا أرجع بالقارىء الى عام ١٩٠٩ :

كنا نجلس كلنا في غرفة واحدة .. في ذلك المكان الذي سمي (مدرسة) فالمقاعد الخشبية التي وضعت فيها ، أبعد قسم منها عن بعضه مسافة قصيرة فسمي صفاً منها الصف الأول و الثاني و الثالث وكان رشيد في الصف الثالث ويجلس في المقعد الأمامي منه .. كان هو نجم المدرسة .. وليس هذا بالمعنى المعروف ، أي لاعب كرة او (تنس)او(بيسبول) فهذه كلها لم تكن معروفة إذ ذاك .. بل ان اللعب كله كان منبوذاً ويعد من دلائل(الشيطنة)!و(الأخلاق) تقدر بمقدار السكون والهدوء وعدم الحركة !.. الشيء الذي جعل رشيد يتميز به على كل اطفال المدرسة هو صوته الشجي الساحر .. فكان المعلم (اسماعيل أفندي الجركس) يبتدىء الدراسة صباحاً بدعوته الى تلاوة شيء من القرآن الكريم .. وكثيراً ما كنا نرى الدموع تتحدر من عينيه خشوعاً وتلذذاً كما كنا نحن نصغي بكثير من اللهفة والاستمتاع لىاالصوت الملائكي الذي لم أنس نغمته العذبة حتى اليوم !

اضف الى هذا ان رشيدا كان يكبرنا سنا رقيق الحاشية دائم الابتسام نستنجد به في حل مسائل الحساب وتصحيح الاملاء وتفسير مايعسر فهمه فكان لايتردد في النجدة والعطف والحنان على كل رفاقه .. ولذا فانه في اليوم الذي غاب فيه كان الكل يسأل عنه بشوق ولهفة ؟. وطال الغياب وقيل لنا أنه سافر الى دمشق وقال آخرون انه سيسكن فيها مع أبيه. ولم يزد استفسارنا اكثر من هذا حتى كاد بعضنا ينساه مع مرور الايام . .

وفي مساء أحد الايام فاجأني أحد رفاقي قبل الانصراف من المدرسة قائلا : هل تريد أن أدلك على رشيد ؟ ! فأجبت برغبة وشوق : بلى ! فقال اتبعني !

وأخذني من الطريق الذي يمر بالقرب من (سراي الحكومة) وأنا أتبعه ذاهلا الى ان وقف بعد قليل من الخطوات وأشار الى كومة من التراب والاحجار وقال لي : هنا !!

وانتفضت كمن أصيب بمس فقد كنا في (المقبرة) وكان ما أشار اليه هو قبر . . وقد كتب اسم رشيد فوق (الشاهدة) وعليها بيتان لاانساهما ابدا :

اذا أمسى فراشي من تراب وبت مجاور الرب الرحيم
فهنوني أحبائي وقولوا لك البشرى قدمت على كريم !

ولاأزال اذكر بأني لم أبك في تلك الساعة بل جررت نفسي جرا الى البيت وأنا حزين حتى لاحظ أهلي ذلك وسئلت اذ امتنعت عن الطعام وكان وجهي شاحبا عما اذا كنت أشكو ألما فأجبت بالنفي وبكرت في الذهاب الى الفراش حيث أخفيت وجهي بالغطاء وبدأت أبكي بصمت بينما كانت اسئلة كثيرة ترد على ذهني ولاول مرة في حياتي طبعا : ماهو الموت ؟ ماهي الحياة ؟ لماذا مات رشيد ؟ لماذا تركه أهله يموت ؟ لماذا لم يسعفه الطبيب ؟ ألم يكن بارعا ؟ ! ولمعت في رأسي فكرة وانا بين النوم واليقظة : اواه ! ليتني كنت طبيبا ! لا بل يجب ان اكون طبيبا وهكذا رقدت ورقدت الى جانبي امنية حالة لم الاحظ الا بعد زمن مقدار اثرها في تقرير مصيري ومهنتي في الحياة .

* * *

في عام ١٩١٨ — وكنت لم اتم بعد دراستي الثانوية — ذهبت الى استانبول وتوسلت عن طريق جماعة من معارف خالي الذي كان موظفا فيها ان اقبل في المسابقة التي تجري للدخول الى مدرسة الهندسة العليا فقد كنت معروفا بين رفاقي بالتفوق في العلوم الرياضية ولما سمح لي نجحت وكنت في الطليعة بين الفائزين وهكذا بدا لي أن مصيري في مهنتي الحياتية قد تقرر نهائيا وقد واظبت على حضور الدروس اسابيع كثيرة واتفق ان كان في استانبول اذ ذاك احد رفاق المدرسة في دمشق وهو الاستاذ محمود النجار من اساتذة الحقوق ورئيس ديوان المحاسبات اخيرا وكان يومذاك قد انتسب الى كلية الطب فحبب الي الانتقال من الهندسة الى الطب ففعلت واخذت من وزارة المعارف هناك موافقة على قبولي في الكلية !

وحدث ان انسحب الاتراك في هذه الاثناء من بلادنا العربية فرأيت انا ورفيقي محمود ان نسرع بالرجوع الى بلادنا، ولما وصلنا الى دمشق قرر ابي ان علي ابراز الوثيقة التي تثبت انتسابي الى الجامعة لاتوسل بها للدخول الى كلية الطب في دمشق ومن قبيل المصادفة حدث ان اجتزت قاعة التشريح مع احد التلاميذ ولم اكد اصطدم برؤية الجثث حتى ذهبت من نفسي كل رغبة بالانتساب الى الطب وفضلت ان ارجع الى مدرستي الثانوية فانضم الى زملائي الذين تركتهم فيها في صفي فأقضي سنتين حتى انال شهادة الثانوية وكل ذلك هربا من دراسة الطب ! الا ان اثر الامنية الحالمة التي رسمت لي (خط الحياة) في الطفولة كان يلاحقني دون ان اشعر فأنا اذ سافرت

بعد عامين الى برلين لم يخطر ببالي اذ وصلت اليها ان اتردد في الانتساب في الحال الى كلية الطب واذكر اني اذ دخلت الى غرفة التشريح كان فيها من الجثث ماهو اضعاف اضعاف ما كان في قاعة التشريح في دمشق ومع ذلك لم اشعر في برلين بأي قرف او رهبة او اشمئزاز من منظرها . . وليس هذا فحسب بل ان تلك الامنية الحالمة وآثارها بدأت تدفعني دون ان اشعر الى مسالك اخرى هي في نفس الاتجاه الذي رسمته لي .

* * *

. . كان هذا بعد سنتين من دخولي كلية الطب في برلين وبعد اتمامي المرحلة الاولى من الدراسة ونجاحي في فحوصها ! . وكانت المرحلة الثانية هي الدراسة الفعلية في المستشفيات وعلى المرضى :

واتفق ان كنا نجلس مع زملاء لنا تقدمونا في الدراسة في الجامعة واخذ احدهم يلقي علينا نصائحه في انتخاب الاساتذة ، ففي جامعة برلين طريقة خاصة تكاد تكون فريدة بين الجامعات وذلك ان لكل شعبة من الامراض عدة اساتذة فمثلا للامراض الداخلية (هيس) (كراوس) (كلمبرر) وغيرهم .. وكذلك للجراحة ولامراض النساء وغيرها . . وكان مما قاله الزميل من النصائح :

كل من اراد ان يكون طبيبا ، بارعا فعليه ان يبدأ دراسته بمستشفى الاستاذ (كلمبرر)

.. في الواقع ، كان اسلوب الاستاذ (كلمبرر) في التدريس فريدا في طرازه .. ان غيره من الاساتذة يقف الساعات الطوال فيلقي محاضرة عن المرض الذي سيبحث فيه ثم يأتي بالمريض فيتحقق التلاميذ من صدق اقوال الاستاذ ! ولكن كلمبرر يفعل مايخالف هذا فهو نفسه لايتكلم وانما يترك الكلام للتلميذ نفسه . فالتلميذ يفحص ويدقق ويصف مايراه حتى اذا خفي عنه شيء دله الاستاذ !

اشتهر كلمبرر بين التلاميذ بأنه الأستاذ الذي يشخص الداء من اول نظرة وهذه طريقة لها اهميتها فهو يريد بهذا ان يلم التلميذ الماماً حسناً (بعلم النظر) ! فهو يرى ان ما يجري في داخل الجسم نراه منعكساً على الجلد فالجلد هو مرآة لكل مايجري في الداخل وكذلك العينان والشعر والاظافر وغيرها . .

كان الاستاذ مرحاً خفيف الروح والظل وكثيراً ما كان يضحكنا جميعاً (بفرصة) يفرك بها اذن التلميذ المجاوب تارة بنكتة او بملاحظة واذكر ان احد الزملاء وقف يجيب على اسئلته فعدد مشاهداته كلها .. ونبهه الاستاذ الى .. لسان المريض ! وبالفعل فقد كان منظره غريباً

وسأله هل عرفت الآن المرض ؟ وسكت التلميذ ! وسأل الصف بأجمعه واتفق أني كنت اعرف اسم المرض ــ وكان احد امراض فقر الدم ــ فصحت من بعيد بالجواب فالتفت وناداني واوقفني الى جانبه مبتسماً ومشجعاً مما جعلني اشعر بالزهو و ... الغرور ايضاً ! وجاء اليوم الذي دفعت اليه ثمن ذلك غالياً .

في اواخر العام جاء الاستاذ بمريضين الى الصف وناداني فنهضت من مقعدي ووقفت الى جانبه وانا اتمنى ان لا اخرج فيخجلني بنكاته ومزاحه امام الرفاق :

كان المريض الأول يوحي من النظرة الاولى بمرض ثقيل فهو متثاقل في حركته ويبدو عليه التعب واذ جسست يده وجبينه كان كمن اصيب بحمى فنبضه سريع وحرارته مرتفعة وفي تنفسه بعض الضيق . وسأل الاستاذ فبدأت اعدد له امراض الحميات ، واحداً بعد واحد ، وهو يهز برأسه علامة النفي الى ان لم يبق في جعبتي شيء ، واذ ذاك طلب ان افحص المريض الثاني ففعلت ولكني لم استطع ان اجد فيه شيئاً واحداً يلفت النظر او غريباً عن المألوف ولذا فقد قلت ببساطة :

ــ هذا الرجل سليم وغير مريض !

ماشاء الله ! (الاستاذ) الزميل متساهل جداً اليوم ! وبدأ الصف بالضحك . . وتابع الاستاذ :

المريض الأول يكاد يكون سليما فهو مصاب برشح عادي واما الثاني فمصاب بمرض يدعو الى كثير من الانتباه وهو : الزهري ! وإذا ماسلك (الأستاذ) ــ مشيراً إلي ــ هذا الطريق في التساهل فمن المؤكد ان عيادته ستقفر !

وهنا انفجر الصف بأجمعه بالضحك والضجيج ! -

وبينا كان العرق يتصبب من جبيني وانا ابتسم ابتسامة مغتصبة حزينة اذ بالأستاذ يسرع لانقاذي من الخجالة فيقول :

ايها السيدات والسادة !

كلكم معرضون لهذا الخطأ الذي وقع فيه زميلكم الآن ولقد بذلت جهدي طيلة شهور لتتعلم اعينكم كيف تبصر وكيف تدقق وتبحث فلا تهمل مايستحق الانتباه ولاتؤخذ بالضخم من الظواهر واردت ان ادربكم على تشخيص المرض بالنظرة الاولى ولكني احذركم الان من هذا التشخيص وانذركم بأنكم تقترفون به اكبر خطأ واذا مامرنتكم عليه فهو من قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به . ايها السادة ! لايكفي ان تستمعوا الى مايقوله الجلد وماتهمس به العينان وماتلحنه

الخطوات بل يجب ان تصغوا اصغاء تاما لكل عضو فلكل عضو لغته الخاصة ولهجته التي يتكلم بها، فمن اراد منكم ان يكون طبيبا بارعا فعليه ان يتقن تلك اللغات .. في المختبرات وهكذا تستيقظ الامنية الحالمة في نفسي على اثر هذا القول والرغبة في ان اكون طبيبا .. بارعا الى الامام الى البحث .. الى الاعماق !!

المختبرات التي يدعو اليها كلمبرر موجودة في كل مكان ولكنها في الشاريته (Sharité) تظل تحت رعاية علماء اعلام فهناك (كراوس) الشهير و (هيس) المكتشف الكبير و (زوندك) رجل الغدد و (سيترون) علامة السكر و (شيلينغ) ملك الدم وغيرهم وغيرهم !

« البول هو لغة الكلوة والقشاعات هي لغة الرئة وعصارة المعدة هي كلماتها . وكذلك الاحلام في لغة الدماغ ومايجري فيه اما الدم فهو الترجمان القانوني لكل الاعضاء فمن استطاع ان يتقن لغة الدم فانه يستطيع ان يفهم كل مافي الجسم ! »

هذا قول شيلينغ وهو عالم جاهد ليصل باكتشافاته واختباراته الى هذه الغاية وكتابه في (الدم) معروف ومشهور ومترجم الى عدة لغات .. وكما فعل شيلينغ فعل غيره من المتخصصين!

ان (علم التشخيص) بلغ ذروة رفيعة حتى ليقال ما من مريض يستطيع ان يختفي عن اعيننا مهما حاول ذلك .. وكنا نحن التلاميذ قد تقمصنا بهذه الروح فكنا نسعى الى حيث يوجد الاخصائيون لنتعلم ولنتزود باختباراتهم وتجاربهم ! وهكذا مرت الاعوام الطوال واتساق كل واحد منا لناحية يتخصص فيها ويمضي معارفه على ضوئها حتى ظننا بانفسنا اننا نستطيع ان نتسلم مسئولياتنا في خدمة المرض دون خوف ولا وجل .لا بل وكنا نتمنى ان يأتي ذلك اليوم سريعاً فقد نتقد فيها واحداً من اعزائنا امثال (رشيد القيومي) .

الى ان كان ذات يوم وقد امتلأت قاعة المحاضرات بالمستمعين اذا (بكراوس) العظيم يقف في وسطها يحيط به جمع غفير من مساعديه وتلاميذه وقد جلل رأسه ولحيته الشيب وبدا بهيكله الوقور وجثته الضخمة وجبينه الناصع وكأنه احد اولئك العباقرة من فلاسفة اليونان وقال:

ايها السادة :

كنت ازعم قبل عشرين عاماً انني ملم بكل فروع الطب فقد مارستها كلها وحاضرت فيها جميعها وعالجت الكثيرين من المرضى بها ولكني اعترف اليوم بأن الألمام حتى ببعض فروعها هو فوق الطاقة البشرية اذ لا يتسع له عمر الانسان فالابحاث كثرت واتسعت واصبحت من الضخامة بحيث لا يستطاع حصرها في شخص مما أدى ذلك الى انصراف الكثيرين للتخصص ، ولكن لهذا

الأمر اخطاره ايضاً فالجسم كل لا يتجزأ ولقد رأيت وأريتكم مراراً كيف ان اكبر البلاهات تأتينا عادة من عيادات اكبر الاخصائيين ؟ وفي هذا الحادث الذي سأقصه عليكم ما يكفي لاقناعكم:

جاء الى مستشفانا رجل اجنبي من كبار الرجال مزوداً بتوصية من وزارة خارجيتنا ترجو الاعتناء به اعتناء خاصاً ومعه كذلك رسائل من اصدقائي في بلده تطلب الاهتمام به ايضاً .. وقد اوعزت الى المساعدين ان يقوموا بالفحوص اللازمة ورجوت الأساتذة منهم الاشراف على ذلك والادلاء برأيهم وقد قام الجميع بالمهمة خير قيام وجاءوني بالنتائج فاضطربت اذ كانت كلها تدل على أن لا أمل في حياة المريض وعلى الأثر قمت بفحصه فحصاً دقيقاً وكان ما وصلت اليه لا يختلف عما وصلوا هم اليه ومع ذلك لم أقطع الرجاء وأمرت باعادة الفحوص على طرق أخرى مع فحص نواحي جديدة لم أشر اليها سابقاً وافهمتهم ان يبذلوا أقصى الجهد ومنتهى الدقة، ولكن ذلك كله لم يغير في أنفسهم ولا في نفسي شيئاً من القناعة التي وصلنا اليها ... ولما وصلت الى هذا الحد أوعزت الى رجال حاشيته بينما كان هو في سريره أن يعملوا على ارجاعه الى وطنه اذا شاؤوا ان لايحرجوا بمشاكل نقل الجثمان فالرجل مفروغ من أمره ! وحدث أن فهم شيئاً من الحديث فاستدعاني وقدم الي والى مساعدي شكره على اهتمامنا وجهودنا وأكد لي أنه عارف بمصيره فلا يضطرب له وأنه يترك أمره الى ... الله ! وهكذا سافر مع رجاله قافلاً الى وطنه !

أيها السادة !

مضى على هذا الحادث اثنا عشر عاماً ولكن منذ اثني عشر عاماً وفي عيدميلادي أتلقى من اصدقائي في كل أنحاء العالم برقيات تهنئة وبين تلك البرقيات برقية من هذا الشخص بالذات فيها تهنئة ولكنها على طراز خاص اذ كانت هكذا :

برلين : فريدريك كراوس :

لا أزال حياً !!!

أيها السادة ! يخيل الي بعد هذا أننا لانزال في أول الطريق ولن يكون مستغرباً اذا تحدثت لكم بعد اليوم عن : افلاس طبنا المعاصر ! وهكذا بدا لي ان على من يريد أن يكون طبيباً بارعاً أن يعلم بأن أمامه مراحل ومراحل و ... لابد من صنعا وان طال السفر !

* * *

وهذه مرحلة من تلك المراحل نقطعها بهذه القصص :

في الالزاس وفي بلدة (دورليسهايم) عرف ان رجلا باسم (يوست) يحترف الطب بدون رخصة وعلم، بأن بعض المرضى كانوا ضحايا دجله وجهله فأقام النائب العام في مدينة (تسابرن)

تلبية لنقابة الاطباء الدعوى على المذكور باسم القانون واستدعى كخبراء لهذه الدعوى ثلاثة من أشهر أطباء ألمانيا — وذلك بالنظر لشهرة يوست ولأن الجماهير التي أتهم بقضيته كانت أكثر مما يظن .

كان من الخبراء (ناوني) وهو برأي برجان أشهر أخصائي في الكبد و (فورستر) وهو جراح عالمي و (بورفينكل) وهو استاذ كبير وصاحب المذكرات التي تنقل عنها هذه القصة !

يوست ، الدجال يشخص الأمراض بمجرد النظر الى ثياب المريض وشمها سواء أكان المريض حاضرا أو غائبا والنائب العام يطالب بأنزال أقصى العقوبة وأقسى الجزاء على هذا الرجل لانتهاكه حرمة العلم والاضرار بالناس مستشهدا بتقرير الخبراء الثلاثة في هذا الموضوع !! وكان ظاهرا على وجه القاضي أنه مقتنع بأقوال النائب العام كل القناعة ! وتقدم المدعى عليه (يوست) بكثير من الخجل لجرأته على هؤلاء العلماء الاجلاء طالبا أن يسمح له كتهم ان يتقدم بشهود دفاع كما هي العادة والعدالة ، وكان له طبعا ما أراد .

وتقدم عدة أشخاص لهذا الغرض كانوا قد وقفوا الى جانب ينتظرون هذا الدور:

هؤلاء الاشخاص هم مرضى مروا بكثير من الاطباء ومنهم بعض اولئك العلماء الاجلاء . ان احدا منهم لم ينل الشفاء المطلوب ، ولكنهم نالوه جميعا على يد (الاستاذ) يوست !!

(بور فينكل) الاستاذ الذي يروي هذه القصة يقول : ان القاضي لم يحكم ببراءة يوست فحسب بل وذيل القرار برجاء من الحكومة يطلب فيه ان تضيف الى القطار الذي ينقل المرضى الى بلدة يوست قطارا آخر لكي يستفيد الناس من مواهبه !

* * *

(يوست) الذي مر ذكره لم يكن الاول ولن يكون الاخير في هذا المضمار بل له أنداد لايقلون عنه دجلا كما انهم لايقلون عنه شهرة : هناك الحداد (تسايلايس) الذي استقر في قرية (جالسباخ) فجعل منها كبرى لكثرة زبائنه وازدياد شهرته فقد أحصى عددهم فكانوا في حدود المليون شخص كل عام وهذا الرقم لايستطيع أكبر طبيب ان يفاخر بمثله أو حتى بنصفه طيلة الحياة .. وبين هؤلاء الزبائن جماعة من مشاهير العالم كالماريشال (مانرهايم) بطل فنلندا والمليارديرها ريمان واساتذة جامعات (سفايسهايمر وايجنر ، ودي نورا وكثير غيرهم) ولا سبيل الى صد الجماهير عنه بالمنطق فالمريض لايهمه ان يكون طبيبه يحمل لقب دكتور بروفسور أومستشار الامبراطور بل يهمه شيء واحد هو أن يشفى !

وهذا مادعى تسايلايس وأمثاله ان يشتهروا حتى ان عالما مثل (واغنر ياورج) وهو حامل

لم يستطع أن يصد تدفق الجماهير عليه ؟ وقد قرأت للاستاذ فكري أباظة كلمة عن ابن تسايلاس الذي خلف أباه وهو يشيد (بعصاه السحرية !) ومثل تسايلاس : شتاينماير في (هاتمن كلي) وقسيس (جود مانسباخ) في شمال أوروبا وهذا مايعالج المرضى بدلوين من الماء واحد للحميات وآخر لأمراض البطن ؟ ومثل هذين (زواف يعقوب) في باريز والكولونيل (ئولكوت) في الهند والراهب (آبه) والبطريرك (باور) و(آزوئه رو)، في روما في عهد موسوليني حيث قامت قيامة أطبائها عليه فتقدموا بشكوى الى الدوتشي الذي ذيل عريضتهم بالعبارة التالية :

(ان آزوئه رو ، يعمل بالعجائب ولاشأن لكم بالعجائب !)

وبينما كان هذا يجري في انحاء الدنيا كنت أنا الرجل ـ الطفل الذي حلم بالأمنية الغالية ـ أدفع دون اختيار لأن اكون طبيباً .. بارعاً واتصل بحسب هذا الدافع بتفـاصيل هذا الذي يجري هنا وهناك فكنت كالمسافر في بحر تعصف فيه الانواء وهو في زورق صغير تتقاذفه الامواج من كل جانب ولايعني هذا انني يئست او استسلمت وأصابني الخور بل بالعكس فأنا لم اكن طبيباً خامل الذكر ولقد عالجت طيلة ثلاثين عاماً ونيف عدداً كبيراً جداً من عشرات الألوف من المرضى وكنت ولم أزل اسعى وراء الاستزادة والاستفادة والافادة ولكن كل هذا لم يمنع ان أصل الى قناعة تامة وصل اليها قبلي أساتذة اعلام وهي اننا اليوم بحاجة الى تفكير جديد والى أسس جديدة والقائلون بهذا هم امثال (برجسون) و(بلوندل) و (وينغ) و (بير) و (زاوربروخ) وغيرهم وهكذا رأيت نفسي على حافة .. أطل منها على .. الأعمق !!

لقد قلت في مستهل كلامي انه لايوجد مكان في العالم مليء بالعجائب والاسرار كأعمـاق الانسان افليس من المشوق لكل انسان ان يعرف شيئاً عن هذه العجائب والاسرار ؟!!

وقلت ان مافيها هو مذهل وذلك لأنه يخالف ماتعارفنا عليه من قوانين ودساتير وقد ثبت اخيراً ان هذه الأسس التي تعمل في دنيا الطب بعضها فاسد غير سليم وبعضها لايصلح لتفسير مانعرفه فينا في حالتي الصحة والمرض فهل نستطيع ان نجد في الاعماق الأسس الصحيحة التي نبحث عنها والتي تمحو عنا العار الذي يتحدث عن افلاس طبنا المعاصر .. وقلت انه مذهل لأنه يرد على كثير من الأسئلة التي ترد على الخاطر ، وخاصة هذه القصص التي سردت بعضها لك ورأيت كيف ان حوادثها تسخر بالطب والأطباء والعلم والعلمـاء والكيمياء والفيزياء !! أفلا يكون في هذا كله مايغري بالحديث عن الأعماق والافاضة فيها؟ ان بعض هذا الذي رأيته في الأعماق موضوع بحثنا القادم وموعدنا العدد الثاني من هذه المجلة ان شاء الله ..

الدور الحضاري

لمدارس بغداد

مصطفى جواد

المدرسة من المنشآت الحضارية العربية الاسلامية ، الجديدة في نظامها وقوامها ، ومن المشتقات الحديثة في صيغتها ولفظها ، فالعرب لم يشتقوا قديماً من الفعل « درس » اسم مكان على وزن « مفعلة » لهذا المعنى الذي يراد بالمدرسة ،وأقدم ما يجوز أن يكون اشتقاقاً لها هو ما في قول دعبل الخزاعي من شعراء القرن الثالث للهجرة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فالمدارس في البيت يجوز ان تكون جمع « مدْرَس » و « مدرسة » . وأنا أحسب هذا البيت هو الذي مهد لاشتقاق المدرسة ، أو كان شاهداً لمن اختارها للمنشأة الحضارية العلمية الجديدة ، فالآي القرآنية أجلّ ما يقرأ ويدرس في المدارس الاسلامية في العصور الأواسط من التاريخ .

والمفهوم من اصطلاح المدرسة أنها بنيان خيري فيه مشابه من الدور والقصور ، والمساجد والربط أي الخانقاهات، وتتميز دراستها عن الدراسة الكتابية والدراسة المسجدية بالتعليم العالي ، والاقتصار على التدريس والتعليم ،وعلى الاشتمال على الوعظ

الشرب بالتعليم على طريقة المساءلة والمجاوبة مشافهة أو كتابة . وتتميز أيضاً بسكنى الطلاب فيها وإعاشتهم واعطائهم مبلغاً من المال ، كائناً ما كان ، يستعينون به على قضاء حاجاتهم الاخرى كالملابس والكتب . وعد بعض العلماء السكنى والاعاشة أميز الصفات للمدارس بمعناها المتعارف .

وقد اختلف المؤرخون قديماً في أولية نشوء المدارس على الصفات المقدم ذكرها ، فالشافعية يذكرون أن نظام الملك الحسن الطوسي الوزير هو أول من أنشأ المدارس بمعناها ونظامها المصطلح عليها ، ويبنون على ذلك أن المدارس النظامية في البلاد الاسلامية هن أوليات المدارس في العالمين ، وقد أنشئت في أواسط القرن الخامس للهجرة بالعصر السلجوقي ، كما هو معلوم مشهور ، وأول دار اتخذت مدرسة بالمعنى المصطلح عليه للمدرسة هي دار أبي حاتم محمد بن حبان البستي في مدينة بست بين غزنة وهراة وكابل ، وقد توفي سنة ٣٥٤ هـ قال ياقوت الحموي في مادة بست من معجم البلدان : « أخبرتني زينب الشعرية إذناً عن زاهر بن طاهر عن احمد بن طاهر عن احمد بن الحسين الامام (قال) سمعت (الامام) الحافظ أبا عبد الله الحاكم يقول : (وقف) أبو حاتم بن حبان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ومسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ولهم جرايات يستنفقونها دارّة ، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلمها اليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يخرجه منها ، شكر الله عنايته في تصنيفها وأحسن مثوبته على جميل نيته في أمرها بفضله ورأفته » . وقال قبل ذلك ناقلا : « وقد كان أبو حاتم بن حبان سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العبث والفساد على أهل تلك البلاد » .

فهذه الدار كانت أقدم مدرسة حقيقية ، ولم يبق لتحقيق هذا الاصطلاح

الا اثبات أن أبا حاتم بن حبان سماها مدرسة عند وقفها في أواسط القرن الرابع، فتكون سابقة للمدارس النظامية بأكثر من قرن واحد . أما صفات المدرسة الحقيقية فمستجمعة فيها .

وأياً كان الأمر فبغداد كانت أعظم مركز للمدارس في العالم العربي والعالم الاسلامي لأنها كانت أيام شيوع المدارس عاصمة الدولة العباسية ومقر الخليفة العباسي ، ومعدن العلماء والفقهاء ، ومصدر مراتب القضاء ، ومباءة المتفقهة والادباء وما دخلت سنة « ٤٦٠ » هـ حتى كان فيها أعظم مدرستين في العالم الاسلامي أيامئذ وهما المدرسة الحنفية المعروفة بمدرسة مشهد الامام أبي حنيفة ، والمدرسة النظامية.قال أبو المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٩ من تاريخه مرآة الزمان في أخبار العميد شرف الملك أبي سعد محمد بن منصور الخوارزمي الحنفي مستوفي ممالك السلطان ألب أرسلان السلجوقي ، وقدومه بغداد : « وعزم العميد شرف الملك على العود الى باب السلطان ألب أرسلان فسار يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة . وبنى في هذه المدة التي أقام بها على قبر أبي حنيفة — رضي الله عنه — قبة عالية عظيمة وأنفق عليها أموالا كثيرة وعمل لها ملبناً وعلاه على مثال قبور آل أبي طالب في المشاهد ، وعمل بين يديه رواقاً وصحناً وجعله مشهداً كبيراً وعمل بازائه مدرسة لأصحاب أبي حنيفة ورتب لهم مدرساً وأوقف عليهم ضيعة يصرف مغلّها اليهم وفعل في ذلك فعلة حسنة ... ولما انتهت دخل مسعود بن عبد العزيز ابن البياض الشاعر لزيارة المشهد فقال ارتجالا :

ألم تر أن العلم كان مبددا ... فجمعه هذا الموسد في اللحد

كذلك كانت هذه الأرض ميتة ... فأنشرها جود العميد أبي سعد[1]

(١) مرآة الزمان « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقة ١٠٩ ، ١١٠ »

وأول من درّس في هذه المدرسة أبو طاهر الياس بن ناصر بن ابراهيم الديلمي الفقيه الحنفي ، قال ابن النجار : « درس الفقه على الصيمري ثم على الدامغاني ودرس بواسط وكانت له حلقة بجامع المنصور ودرس في مسجد الصيمري بدرب الزرادين ودرس بمشهد أبي حنيفة وهو أول من درس فيه ، ووصف بحسن الفهم ودقة الفكر . قال الصيدلاني : توفي الياس يوم الخميس ودفن يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة احدى وستين واربعمائة ودفن بمقبرة الخيزران وحضر قاضي القضاة الصلاة عليه (١) » .

واما المدرسة النظامية فقال في ذكرها أبو المظفر السبط في حوادث سنة ٤٥٧ ما هذا نصه : « وفي ذي الحجة بديء بعمل المدرسة النظامية ونقض لبنائها ما في الدور التي كانت للناس بمشرعة الروايا والفرضة وباب الشعير ودرب الزعفراني (٢) » . ثم قال في حوادث سنة ٤٥٩ : « وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة جمع أبو سعيد القايني الناس على طبقاتهم الى المدرسة النظامية ، وكان نظام الملك بناها برسم أبي اسحاق الشيرازي ، فلما تكاملوا فيها تأخر مجيء أبي اسحاق وطلب فلم يظهر ، فوقع العدول الى أبي نصر بن الصباغ الشاهد وضمن له أبو عبد الملك بن يوسف أن لا يعدل عنه فركن الى قوله وذكر الدرس وتفرق الناس... واجري على المتفقهة لكل واحد منهم أربعة أرطال خبزاً في كل يوم ، وظهر أبو اسحاق في مسجده بباب المراتب فدرس فيه على عادته واجتمع العوام ودعوا له وأثنوا عليه ، وكان قد بلغهم عنه انه قال : اني لم أطب نفساً بالجلوس في هذه المدرسة لما بلغني عن آلتها وان أبا سعيد القايني غصب أكثرها ونقض قطعة من البلد لاجلها ، ولحق أصحاب أبي اسحاق قصور وبان فيهم فتور ، وراسلوه بما

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية « ١ : ١٦٣ » .

(٢) مرآة الزمان في النسخة المذكورة « الورقة ١٠٣ » .

عرضوا فيه بالانصراف عنه والمضي الى ابن الصباغ ان لم يجب ويرجع عن الاخلاق الشرسة . فاجابهم تطيباً لقلوبهم ، وتسكيناً لنفورهم وغيظاً من ابن الصباغ . وكان نظام الملك لما بلغه امتناع ابي اسحاق الشيرازي عن التدريس فيها أقام القيامة على العميد القايني وكتب اليه يلومه ويوبخه ويتهدده ويقول : لمن بنيت المدرسة الا لأبي اسحاق ، فجاء أبو سعيد وأرى أبا اسحاق الكتاب ، فلم يجب . فمضى الى بيت النوبة وراسل الخليفة القائم بأمر الله ، فبعث الى ابي اسحاق الشيرازي يقول : قد عرفت حالنا مع الاعاجم وأخاف ان ينسب ذلك الي . فجاء أبو اسحاق وبيده آجرة كبيرة فكان يجلس عليها اذا قعد في المدرسة وجلس بها يوم السبت غرة ذي الحجة وكان اذا حضر وقت الصلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد فكانت مدة ابن الصباغ فيها عشرين يوماً [1] » .

وقد تبدل وجه التعليم في بغداد والبلاد العربية الأخرى والبلاد الاسلامية بعد تأسيس هاتين المدرستين ، وتمهدت طرق اكتسابه ، وتوافرت جموع طلابه وضربت أكباد الابل الى بغداد من أقاصي البلاد ، وانتظم التعليم والتدريس بعد ان كانا بغير نسق ولا اتساق ، وكثر المقتدون بمؤسسي هاتين المدرستين في بغداد والبلاد العربية خاصة [2] ، فأنشأ اصحاب الخيرات من السلاطين والملوك والامراء والاعيان والاثرياء مدارس على حسب اختلاف مذاهبهم واقطارهم واصقاعهم ، وأنشأوا فيها خزائن كتب ، تقوم مقام دور العلم القديمة ، وتوسعت الدراسة توسعاً مبيناً فدرس في المدارس الأدب ولغة العرب والنحو والصرف والمعاني والبيان الى جانب دراسة الفقه والقرآن ، وكانت المدرسة النظامية

---

(١) المرآة في الموضع المذكور « الورقة ١١٠ ، ١١١ » .

(٢) كان نظام الملك قد أسس عدة مدارس نظامية في بلاد العجم ولكن نظامية بغداد كانت خيرهن .

البغدادية ذات الاثر الابلغ ، والدور الانبغ في العالم العربي ، فقد اشتهرت بسمو تدريسها ، ووساعة تعليمها وكثرة طلابها ووفرة أوقافها وجلالة مدرسيها كحجة الاسلام أبي حامد الغزالي بعد ابي اسحاق الشيرازي ، وكمال الدين عبد الرحمن بن الانباري وابي زكريا التبريزي ، وانتشر خريجوها في الآفاق والممالك ، وبثوا الفقه والأدب ، واستبق المدرسون الى نيل التدريس فيها كأبي النجيب عبدالقاهر السهروردي الفقيه المتصوف الشافعي ،وأصبح الفخر ملازماً لمن يعلم ومن يتعلم فيها فضلا عن العيش الرخي . وكان لدار كتبها أثر بالغ ايضاً في نشر العلوم والآداب فقد احتوت على خزائن كتب نفيسة ونسخ نادرة من كتب عزيزة الوجود ، وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله « ٥٧٥ — ٦٢٢ » أضيفت اليها دار كتب أخرى ، قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٥٨٩ : « وفيها بنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي دار الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها عشرة آلاف مجلد فيها الخطوط المنسوبة وغيرها[١] » وكانت دار الكتب هذه والعتيقة تشبه المنتديات الادبية ، قال عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني الشافعي شارح نهج البلاغة بعد ذكره بيوت عبد الله بن الزبعري اللامية في التشفي بقتلى المسلمين يوم أحد : « وعلى ذكر هذا الشعر فاني حضرت وانا غلام في النظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالمحب ـ يعني محب الدين ـ خازن دار الكتب بها وعنده في البيت باتكين الرومي[٢] الذي ولي اربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر

(١) النجوم الزاهرة « ٦:١٣٢ »

(٢) قال مؤلف كتاب الحوادث في وفيات سنة ٦٤٠ هـ ـ ص ١٨٠ ، ١٨١ » وفيها توفي الأمير أبو المظفر باتكين بن عبد الله الرومي الناصري ، كان مملوكاً لعائشة ابنة الخليفة المستنجد بالله المعروفة بالفيروزجية واشتغل بالعلم ، وحفظ القرآن المجيد وخدم جندياً وأقام بتكريت مدة ثم سلمت اليه البصرة بحربها وخراجها ، فأقام بها ثلاثاً وعشرين سنة فعمرها ووجد مدارس كانت بها قد دثرت ، وأنشأ مدرسة للحنابلة ولم تكن تعرف بالبصرة لهم مدرسة ، ➤

ابن مكي الحاجب فجرى ذكر يوم أحد وشعر ابن الزبعري هذا وغيره وان المسلمين اعتصموا بالجبل فاصعدوا فيه وان الليل حال أيضاً بين المشركين وبينهم فانشد جعفر بن مكي بيتين لأبي تمام متمثلا :

لولا الظــلام وقلة علقوا بها ... باتت رقابهم بغــير قـــلال

فليشكروا جنح الظلام ودروذا ... فهم لذرود والظـــلام موالي

فقال باتكين : لاتقل هذا ولكن قل : لقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه فلما فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعدما أراكم ماتحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. وكان باتكين مسلماً، وكان جعفر بن مكي مغموصاً عليه في دينه (١) » .

(١) شرح نهج البلاغة « ٣:٣٨٢ طبعة البابي الحلبي الأولى .

← وعمل مدرسة يقرأ فيها علم الطب، وعمر مارستاناً كان قد خرب ، وتعطل. ولما احترق جامع البصرة في سنة أربع وعشرين وستمائة واستهدم معظمه أعاد عمارته واحضر حجارة أساطينه من جبل الاهواز وجلب له الخشب الصنوبر والساج من البحر وشيراز ورحبة الشام ، وأنشأ رباطاً متصلا بالجامع ، ورباطاً آخر قريباً منه وأسكن فيهما جماعة من الصوفية ، وبنى في دهليز الجامع حجرتين وجعل في احداهما كتباً ، ووقف في المدارس كتباً وانتشر العلم في زمانه ، وكان العلماء وغيرهم يقصدونه من جميع الآفاق فيرفدهم ، وبنى على قبر طلحة بن عبيد الله بناءاً حسناً وجعل فيه الفرش والقناديل ، وكذلك على قبر الزبير بن العوام ، وبنى سوراً على بني مازك وسوراً على المدينة محكماً بالأبواب الحديد وجدد في البصرة الخانات للبز وغير ذلك ، واحسن السيرة في أهلها وبالغ في السياسة ... وكان مع هذا متعبداً كثير التلاوة للقرآن والمذاكرة في العلوم والسير والتاريخ والاخبار والاشعار وله نظم حسن .. »

مقدمات النهضة في لبنان ونتائجها الاجتماعية المعاصرة

بقلم محمد جميل بيهم

أتيح للبنان في غضون التمدن الحديث ان يدرك تقدماً في الشؤون المالية والاجتماعية والثقافية لم يدركه قطر عربي آخر . فما هي الأسباب ؟

هذه دراسة لايستوعبها مقال في مجلة ، ولذلك فاني سأقتصر على الناحية الثقافية فيها ، والتزم مـــع الاقتصار الاختصار . على ان تقدم لبنان في هذه الناحية لايعود الى سبب واحد ، بل هو نتيجة لعوامل كثيرة هاكم أهمها :

١ ـ ما كان للعوامل الدينية من أثر في نهضة لبنان.

كان ساحل الشام مجازاً لحجاج بيت المقدس، فكان هـذا المجاز وسيلة لاختلاط سكانه بأهل التمدن الحديث في قدومهم ودعوتهم، ولاقتباسهم أفكار هذا التمدن بالاضافة الى تلقف اخلاقه وتقاليده .

وكان الأوروبيون ، ولاسيما الفرنسيون ، لايفتأون يذكرون اخواناً لهم في الدين بلبنان امتزجوا بهم ابان الحروب الصليبية ، وظلوا بعد ذلك يوالونهم ويراسلون عواهلهم ، فبادلوهم الود بالود ، وبعث هؤلاء العواهل الوفود اليهم لتفقد احوالهم .

ولما انتهت المرحلة الاولى من الصراع بين الدول الاوروبية وبين السلطنة العثمانية وذلك بانتصار السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) تسابقت هذه الدول الى عقد المعاهدات معه لتأمين مصالحها السياسية والاقتصادية ، وتقربت اليه فرنسا ونالت منه حق الاعتراف لهـــا بحماية البطريرك الماروني وسائر نصارى الشرق العثماني .

وكان الموارنة بلبنان قد اعترفوا في القرن الخامس عشر بسلطة البابا ، فأفضى هـــذا الاعتراف الى عنايته بهم عناية الراعي برعيته . فاذا بالآباء اليسوعيين يبادرون الى انشاء مدرسة في روما ، أواخر القرن السادس عشر ، تعنى بتعليم اللغتين العربية والعبرانية ، واذا بالبابا غريغوريوس الثالث يأمر ، بعد ذلك ، بانشاء المدرسة المارونية (١٥٨٤) ، ويسلم ادارتهـــا لليسوعيين ،

فكانت هذه المدرسة نواة نهضة لبنان الثقافية الحديثة : وعدا أولئك الذين انتشروا في باريس وفلورنسة وفيينا وبادوا وغيرها من خريجيها، وأشهرهم الحقلاني والسمعاني وعريضة، وعدا الذين شغلوا وظائف في أوروبا كالقس مخائيل الغزيري الترجمان في بلاط كيرولوس الثالث ملك اسبانيا.. عدا هؤلاء وهؤلاء فان فريقا منهم عاد الى لبنان وتولى فيه أرفع المناصب الكهنوتيـــة ، وكان منه المطارنة ، وكان منه البطاركة . وكان هذا الفريق المثقف قد تنشق في اجواء اوروبا روح النهضة الحديثة فبثها في أوساط ملته خلال نشره العلم والمعرفة .

وكانت باكورة أعماله مدرسة حوقه عام ١٦٣٢ ، ثم مدرسة عين ورقة (١٧٨٩) وسواهما . على ان النهضة المارونية بلبنان كانت حافزة سائر الطوائف لليقظة ، ولا سيما الكاثوليك أتباع روما ، فأنشأ غريغوريوس الأولراعي الأرمن الكاثوليك مدرسة بزمار (١٧٨٨) ، كما وضع ميخائيل جروه بطريرك السريان الكاثوليك الأسس لمدرسة الشرفة ، وفتح أغناطيوس مظلوم بطريرك الكاثوليك مدرسة عين تراز (١٨١١) .

وفي غضون ذلك تألفت الرهبنات الوطنية لدى الموارنة والروم الملكيين فساهمت في فتح المدارس ، وفي ترجمة بعض الكتب الدينية اللاتينية الى العربية ، وطبعتها على مطابع ايطاليا التي كانت قد أصدرت ، منذ أوائل القرن الســـادس عشر ، بعض النشرات الدينية العربية والكتب العلمية ، وأشهرهـا جغرافيـــة الادريسي ، والصالحي ، وقانون ابن سيناء . ولما لجأ الأمير فخر الدين المعني الثاني الى توسكانا بايطاليا ، وفي أوائل القرن السابع عشـــر ، شاهد هذه المطبوعات العربية هناك تباع بأثمـان معتدلة . على أن اللبنانيين كانوا ، قبل ذلك ، قد حاولوا الاستغناء عن مطابع أوروبا بانشاء مثلهـا في وطنهم لاصدار النشرات الدينيـة والكتب . وكانت أولى المطابع مطبعة دير قزحيا (١٦١٠) التي كانت أحرفهـا

باللغة الكرشونية ، أي كتابة العربية بالاحرف السريانية ، ثم كانت أولى المطابع بالأحرف العربية بلبنان تلك التي صنعهـــا الشماس عبد الله زاخر الحلبي في دير مار يوحنـا الطبشة بالخنشارة ، وذلك في أواسط القرن الثامن عشر .

فهذه المدارس والمطبوعات ، وكذلك الارساليات الأجنبية الدينية ، التي سنتكلم عنها ، كانت نواة النهضة الحديثة . وهي وإن كانت ذات لون ديني الا أنها لم تلبث أن تطورت مع الزمن واصطبغت بالصبغة العلمانية .

وهنا مجال للتنويه بمـا كان لأمراء لبنان الاقطاعيين من أثر في تنشيط النهضة الحديثة . فهم كانوا يحرصون على محاكاة الملوك في تقريب المثقفين ومكافأتهم. فكانت رعايتهم لهؤلاء في عداد الحوافز للاقبال على العلم والأدب ، وحسبنا الاشـارة الى ما كان بين حاشية الأميرين يوسف الشهابي وبشير الشهابي الكبير من أدباء وشعراء هذا فضلاً عن موظفين مثقفين كسعد الخوري ، وجرجس باز ، وفارس جدعون ، وجدعون الباحوط ، وغير هؤلاء من أدباء سوريا .

٢ — ما كان للسياسة من أثر في النهضة اللبنانية

شبت الثورة الفرنسية ، في أواخر القرن الثامن عشر ، فهزت أوروبا ، ثم انتقلت شظاياها الى الشرق الأدنى مع نابليون بونابرت حينما احتل القطر المصري وحاول أن يحتل بلاد الشام . وكان نابليون يريد أن يتخذ من البلاد العربية مطية له لادراك الهند بالاتفاق مع أمرائها ، ولكن انكلترا كانت له بالمرصاد فردته على أعقابه ، غير أنه لم ينسحب من مصر الا بعد أن القى فيها بذور النهضة ، تلك البذور التي نمت وربت في جيل لاحق .

على أن فرنسا لم تتخل ، في أعقاب هذا الاندحار عن أهدافها التوسعية البعيدة المدى . ولم تتخل أيضاً عن فكرة الثأر من لندن فاختارت بيروت وجبل لبنان مركزاً استراتيجياً لتحقيق هذه الأماني . وفي هذا السبيل راحت تتقرب

من محمد علي عزيز مصر ،والأمير بشير الشهابي الكبير أمير لبنان ، وتعمل لتوثيق الصلات بينها . وكانت خطوتها الثانية اغراء الخديوي بالحملة على بلاد الشام ١٨٣١ للانطلاق منها الى عاصمة آل عثمان . غير أن فرنسا فشلت مرة ثانيـــة حينما ردت تركيا ابراهيم باشا الى مصر سنة (١٨٤٠) ، وذلك بمؤازرة انكلترا وحلفائها .

وهذا الصراع بين فرنسا وانكلترا في الشرق الأدنى كانت له نتائج أخرى وذلك بأن العالم الغربي لم يلبث ان رأى هذا الشرق مشرع الأبواب أمامه بعد ان كان موصداً . وما كان ذلك يعود الى احتلال نابليون مصر بالقوة ، وخروجه منها بالقوة ، وانما يرجع الى ترحيب الشرق الأدنى بصداقة الغرب، في أعقاب ما كانت تركيا تخفض جناح الذل للندن وحلفائها الذين حرروها من الغزو المصـــري ، وتصغي لنصائحهم . وحيال هذه البادرة الجديدة التي عرضت وقربت بين الشرق والغرب تحفز هذا للعمل . وكان الغرب لا يزال يتحسس كثيراً بالمشاعر الملية فاذا به يجعل مدار عمله ايفاد البعثات الدينية للتبشير . وكان قد وصل أول مرســـل اميركي الى لبنان في ١٠ شباط ١٨٢١ واسمه لاوي بارسنس . ثم لما رأى الاميركان ان الظروف اصبحت سانحـة في اعقاب اخراج انكلترا الجيش المصري من بلاد الشام ، وابان النفوذ الذي اصبحت تتمتع به لندن في الآستانـة خفوا لارسال البعثات الى بـيروت وجبل لبنان ، وقد اختاروا اول الأمر الاوساط الدرزية للتبشير ، وفتحوا مدرسة لهم في عبيه سنة ١٨٤٦ ، وكانت طليعة المدارس الكثيرة التي فتحوها بعدئذ في كل مكان بالشام وسائر الأمصار العثمانية .

وقد نشرت احدى صحف الآستانة في عام ١٨٩٤ خبراً مفاده : « ان عدد مدارس الأميركان في السلطنة بلغ وقتئذ ٨١٢ واحدة تضم ٤٣٠٣٧ تلميذاً ، عشرون الفاً منهم من الاناث . »

والأرجح عندي ان الانـكليز هم الذين اثاروا الاميركان في عزلتهم باسم

الدين ونشطوم لايفاد هذه البعثات الى الشرق الادنى في غضون الحرب الباردة التي كانت تنشب بينهم وبين الفرنسيين حول هذه البلاد ، وذلك بغية ان تكون تلك البعثات ظهيرة لهم ضد اللاتين .

وكانت تركيا توصف وقتئذ بالرجل المريض حسب تعريف نقولا قيصر روسيا ، وكان المستعمرون يترقبون موتها واقتسام إرثها . وكانت فرنسا ترى ان بلاد الشام ، وفي مقدمتها لبنان ، حق طبيعي لها في هذا الارث ، لذلك شق عليها نشاط الارساليات الاميركية ، التي لاتختلف في نظرها عن البعثات الانكليزية ، فوثبت الى العمل ، واستعانت برجال الدين ، رغم انها لم تكن تواليهم ، وعززتهم بالمال فاذا بالآباء العازاريين يفتحون مدرسة لهم في قرية عينطورا بلبنان (١٨٤٣) واذا باليسوعيين يفتحون مدرسة أخرى في قرية غزير (١٨٤٤) . وهكذادواليك حتى امتلأ لبنان بمدارس الرهبان والراهبات من الاجانب .

وكانت الدول الباقية التي تراقب هذا الصراع بين لندن وباريس ، وتمني مثلها انفسها بأن تنال نصيبا من الارث تعلم بأن فتح القلوب من شأنه ان يسهل فتح المعاقل ، وان ليس افضل لفتح القلوب من أمثال هذه المدارس ، فاذا بالروس والألمان والايطاليين ، فضلا عن الانكليز ، يبادرون الى ايفاد مرسليهم للشرق الادنى في منتصف القرن التاسع عشر ، واذا بهؤلاء ينشئون المدارس في كل مكان ، ولا سيا بالقدس وبيروت وجبل لبنان . وسرعان ما اشتدت المنافسة بين البعثات الدينية ولكن أشدها هو ما كان بين الاميركان والفرنسيين : فلما نقل المرسلون الاميركيون مطبعتهم من مالطة الى بيروت سنة ١٨٤٦ سارع اليسوعيون الى انشاء مطبعتهم الكاثوليكية ؛ ولما نقل الاميركان مدرستهم من عبيه الى بيروت ورفعوها الى كلية « الأنجيلية ١٨٩٦ » خف اليسوعيون الى نقل مدرستهم من غزير الى بيروت وجعلوها كلية ايضا . ولما فتح الاميركان في هذه المدينة مدرسة

للبنات سنة ١٨٤١ بادر الفرنسيون الى انشاء اثنتين : مدرسة راهبات القديس يوسف ؛ فمدرسة اخوية ابنة الأحسان (١٨٤٣). وظلت حدة هذا التنافس تتزايد حتى امتلأت البلاد بالمدارس ؛ وارتفع شأن الكليتين الى جامعتين ؛ اومدينتين عاليتين حافلتين بكل وسائل التربية والتعليم .

وكان لا بد لهذه الارساليات من نشرات ومجلات تستعين بها على التبشير فظهرت نشرة مجموع فوائد (١٨٥١) ؛ ومجلة أعمال الجمعية السورية (١٨٥٣) ؛ ومجلة مجموع العلوم (١٨٦٨) ؛ واخبار انتشار الأنجيل (١٨٦٣) ؛ ومجلة النشرة الشهرية (١٨٦٦) ومجلة اعمال شركة مار منصور دي بول (١٨٦٨) ؛ فضلا عن المشرق وغيرها .

وهكذا أصبحت بيروت وجبل لبنان ميدان معركة ثقافية بين الدول حولتها في النتيجة الى مركز اشعاع بالشرق الادنى ؛ خصوصا وان المعركة اثارت نشاط الطوائف الوطنية المختلفة ودفعتها لفتح المدارس وذلك حفاظا على كيانها ومذاهبها ؛ اوحفاظا على مبادئها السياسية .

٣ — مساهمة تركيا في نشر المعارف في بيروت وجبل لبنان :

كانت ولاية بيروت وأمارة جبل لبنان حافلتين ، في القرن التاسع عشر ، بالعلماء والأدباء . اشتهر بين المسلمين أحمد البربير (توفي ١٨١١) ، وأحمد عمر دبوس ، وعمر اليافي (ت ١٨١٨) وابراهيم الحر العاملي ، والأمير حيدر أحمد الشهابي (ت ١٨٣٤) والحاج حسين بيهم (ت ١٨٥٦) والأمير محمد أرسلان (ت ١٨٦٤) ، وأحمد فارس الشدياق (ت١٨١٧) وغيرهم . واشتهر بين المسيحيين عدد من آل اليازجي ؛ وآل البستاني ، وآل النقاش ، وعلى رأسهم الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني ؛ ومارون النقاش . هذا فضلا عن رشيد الدحداح (ت ١٨٨٩) وكثيرين غيرهم . وأما بين النساء المسيحيات فعدا السيدات السبع

اللواتي كن باكورات المعلمات في المدارس ؛ وهن راحيل زوجة بطرس البستاني وسلامة ، وحنة ، وخزما ، ولولو ، وكفا ، وسوسان ، فبعد هؤلاء لمع اسم هند نوفل ، ووردة اليازجي ومريم نحاس .

غير أن الثقافة كانت ، على وجه عام ، محصورة بطبقة خاصة من الناس ، أما عامة الشعب ، ولا سيما عند المسلمين ، فكانت تغلب عليها الأمية حتى ان بعض تجار ذلك العصر كانوا يستعينون بكتاب يدورون عليهم بأقلامهم ومحابرهم لقراءة الرسائل التي ترد اليهم ولمجابهتها . وأما السلطنة العثمانية ، التي كانت في صدر ايامها منصرفة للفتح ، والتي امست في اواخر عهدها منهمكة بالدفاع عن نفسها ، ومشغولة بأخماد الثورات في بلادها ، فلم تعن بنشر المعارف الا في عاصمتها هذا الى انها كانت تعلق انشاء المطابع على رخصة مسبقة منها . ولكن الثورة الفرنسية وما خلفت من احداث . واهمها فتح باب « المسألة الشرقيــة » على مصراعيه كان كل ذلك حافزا للسلطان سليم (١٧٨٩ — ١٨٠٨) على التفكير بالمصير . فوطد العزم على اصلاح الجيش ونشر المعارف على غرار اوروبا ، ولقد كبر هذا العزم على طغمة المحافظين فأثاروا الانكشارية على السلطان وخلعوه وقتلوه بتهمة الكفر . وكان وراءهم بعض الدول المستعمرة التي ارادت دفن كل اصلاح في تركيا بدفن من يفكر فيه كيلا يؤخر الاصلاح ادراكها نصيبها من تركة الرجل المريض .

ولما استوى محمود الثاني على عرش السلطنة (١٨٠٨ — ١٨٣٩) ثأر للسلطان سليم بالقضاء على الانكشارية ، وتبنى برنامجه الاصلاحي . وعلاوة على انشائه الجيش الحديث اقام في العاصمة المدارس الابتدائية والمعهد الطبي ، وأوفد البعثات الى المعاهد العلمية الاوروبية .

ثم لما أمسى الباب العالي بالآستانه واطئاً حيال الدونينغستريت بلندن وسائر

الدول التي أنقذت السلطان عبد الحميد (١٨٣٩ - ١٨٦١) من الغزو المصري لم يسع هذا السلطان إلا الامتثال لنصائح حلفـائه فنشر « التنظيات » وغيرها من اللوائح الاصلاحية ؛ واستهل عمله بانشاء المدارس المعروفة بالرشدية والاعدادية في بعض الولايات . ثم ما ان صار العرش للسلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) المعاصر للخديوي اسماعيل بمصر ، وكان كلاهما متجدداً وعمرانيـــاً ، حتى تبدل الجو ؛ وأصبحت العناية بنشر العلم وتنشيط الأدب هواية لهما . وكم لهما من أياد بيضاء على الأدباء والعلماء بما بذلا لهم من المال والتنشيط ؛ وكان بطرس البستاني ، وأحمـد فارس الشدياق ، ومارون النقاش ، وسليم الخوري في طليعة الذين أدركوا رعاية هذين العاهلين . على أن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) الذي كان معروفاً بالتضييق على الحريات ، لم يسعه مع ذلك إلا مجاراة تيار التقدم العالمي . فاستهل حكمه بانشاء المدارس الرشدية والاعـــدادية والعسكرية في ولاية بيروت وغيرها . والواقع أن هذه المدارس انما كانت تعنى بتخريج الموظفين من مدنيين وعسكريين ، فلم يقبل عليها إلا الراغبون في هذه الوظائف ، وهم قلة في ولاية بيروت ، خلافاً للبلاد العربية الأخرى . ومن هنا ظل المجال مفتوحاً أمام المدارس والمعاهد الأجنبية لتتولى تربية النشء الجديد على هوى كل منها حتى لم يبق في هذ البلد رأي عام ، ولم يبق فيه أثر للوحدة الوطنية .

٤ — ما كان للمنافسة الغربية من فضل في بعث النهضة العلمية الوطنية :

دولة أجنبية كانت تحكم بيروت ولبنان في القرن التاسع عشر . ومدارس أجنبية كانت تستأثر بتربية الناشئة وتعليمها . فكانت العاقبة أن البلدين فقدا القيم الوطنية ، واختلفا عليها ، واعتمدا في تقرير المصير على ماتوحيه المشاعر الدينية وروحها . وبهذه المشاعر أدرك باكراً أولو الالباب من البلدين ماسوف تكون العاقبة اذا استمر أولادهم يتربون ويتعلمون في مدارس أجنبية لكل منها طابع

مذهبي خاص ، وهدف سياسي . وفي غمرة هذا الاشفاق على المصير فكرت كل طائفة في الاعتماد على نفسها ، فاذا بنا نرى هذه الطوائف تبادر الى فتح المدارس . وكانت كلها ماعدا المدرسة الوطنية التي أنشأهـا بطرس البستاني (١٨٦٣) ، مدارس ذوات صبغة مذهبية وملية : فقد أنشأ الروم الأرثوذكس مدرسة الثلاثة أقمار في سوق الغرب (١٨٥٢) التي انتقلت من بعد الى بيروت. والدروز المدرسة الداودية في عبية (١٨٦٢) . والكاثوليك المدرسة البطريركية (١٨٦٦) . والموارنة مدرسة الحكمة (١٨٧٥) . واليهود مدرسة الاتحـاد الاسرائيلي (١٨٤٤) . (وفي هذا الاسم دلالة على أن أمانيهم المعروفة كانت قديمة وشاملة) وأما المسلمون فقد ألفوا جمعية المقاصد الخيرية (١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨) التي تولت مهمة فتح المدارس الابتدائية للذكور والاناث ، حتى اذا دخلت سنة١٨٩٥ نهض الشيخ احمد عباس وفتح المدرسة العثمانية التي تحولت بعد سنين قلائل الى كلية .

وهنا مجال لأن يذكر بالخير محمد عبد الله بيهم الذي كانت له أيادي بيضاء على المؤسسات العلمية ، والذي كان في طليعة أعيان بيروت حثاً للمسلمين على التزود بالمعرفة ، وقد ملأ جدران بيروت وغيرها من المدن بشعارات تدعو الى الاقبال على العلم من أمثال : (تعلم يافتى فالجهل عار) .

وهذه المدارس الوطنية كلها أخرجت شباباً كان لهم في خدمة هـذا البلد ورفع اسمه نصيب كبير ؛ ولكن العيب فيها أنها كانت تبني نهضة طـائفية لا أثر للجامعة الوطنية فيها، الامر الذي لا نزال نشكو من عواقبه .

أما وأن خريجي هذه المدارس لم يجدوا في وطنهم الجو الملائم للأعراب عن أفكارهم ؛ أو لتأمين معاشهم فقد اضطر كثيرون للهجرة ، وكانت مصر ، في عهد الخديو اسماعيل ، أقرب البلاد اليهم ، وارحبها صدراً لاستقبالهم . فأمّها فريق منهم وقاموا فيها بنهضة صحافية جبارة كانت تمثل بمجلتي المقتطف والهلال ، وبجريدتي

الاهرام والمقطم . ثم هاجر آخرون الى مصر في مستهل الاحتلال الانكليزي ، ومنهم من تولى أكبر الوظائف فيها وبالسودان . ومنهم من أصبحوا هناك في عداد أقطاب التجـــارة . وفضلا عن هؤلاء وهؤلاء فان فئة من المثقفين انتشروا في اوربا والاميركيتين ، ورفعوا راية لبنان عـالية حيث حلوا سواء أكان ذلك في الثقافة أم في التجارة أم السياسة . على ان المتخلفين من المثقفين لم يهنوا ولم يستكينوا أمام الضغط الحميدي ، بل راحوا يستفيدون من ثقافتهم ، وعلاوة على انشـائهم المدارس والمطابع فقد اصدر خليل الخوري جريدة الأخبار (١٨٥٧) وبطرس البستاني نفير سوريا (١٨٦٠) وبطرس البستاني وولده سليم مجلة الجنان(١٨٧٠) وجريدة الجنة . ثم تدفق سيل الصحف تباعاً ، ولا سيما عقب اعلان الدستور الثاني سنة ١٩٠٨ ، وما زال يتدفق حتى اصبحت بيروت بالنسبة لعدد السكان أكثر بلاد العالم صحافة .

وفي تلك الحقبة التمع في بيروت اسماء كثيرين من الادباء ، نساء ورجالا . نذكر منهم ، بالاضافة الى اصحاب الصحف : ابراهيم الحوراني ، والامير شكيب أرسلان ، ومصباح رمضان ، وابراهيم اليازجي ، وفضل القصار ، وحسن بيهم ، وزينب فواز ، وهنا كوراني . واستير مويال .

٥ — ما كان لوضع لبنان الاقتصادي من اثر في النهضة الثقافية :

لما تفاقمت المزاحمة بين الدول الصناعية على تصريف مصنوعاتها اتخذ كل منها في سواحل الشرق الادنى مراكز تجارية لتكون نقطة الانطلاق لنشر هذه السلع في الشرقين الادنى والاوسط . وكان اهمها مرافىء أزمير والاسكندرية وبيروت.

وكانت بيروت في العهـــد العثماني صلة الوصل بين الغرب من جهة وبين سوريا الكبرى والاناضول والعراق وايران من جهة ثانية . فازدهرت وتزايد عدد

سكانها ، ولا سيما بعد ثورة لبنان المعروفة بثورة ١٨٦٠ . فمنذ ذلك الحين قامت فيها الشركات ذوات الامتياز كشركات الماء والغاز والخطوط الحديدية D. H. P والمرفأ والبنك العثماني ، وحصر الدخان ، ناهيك بالشركات الأخرى والمؤسسات من أجنبية ووطنية .

وهذا الازدهار المطرد في الناحية الاقتصادية رافقه بصورة طبيعية اقبال الشباب على المدارس والمعاهد العلمية بغية الاستعداد للاستخدام في هذه الشركات والمؤسسات ، فضلا عن الوظائف الحكومية التي كانت تتعدد ، وتتزايد تبعاً للتوسع الحكومي . والى جانب هذا فقد سنحت وقتئذ فرصة أخرى ملائمة للمثقفين اللبنانيين وذلك في البلاد العربية التي تطورت ، ولم يكن عندها من أبنائها ما يملأ الفراغ إبان هذا التطور .

كذلك لما شرع تجار بيروت يبنون اقتصادياتهم على أسس جديدة متكلين على أنفسهم دون الاجانب ازدادت الحاجة الى الشباب المثقف . ثم برزت حاجة ماسة الى الاخصائيين والفنيين عندما أقبل أولئك التجار على انشاء المصانع وعندما أقبلت الحكومة على تعمير المرافق . وتجاوبا مع هذه الحاجات المختلفة خف كثيرون من متخرجي المعاهد العلمية في بيروت الى أوربا فأميركا للالتحاق بجامعاتها الكبرى من أجل التخصص ، أو من أجل استكمال دروسهم العالية .

وقد رافق كل ذلك عامل آخر كان له أثر بالغ في النهضة والتجدد ، وأعني به الاختلاط الشديد بين اللبنانيين عامة والبيروتيين خاصة ، وبين أصحاب التمدن الحديث . فكما حفلت بيروت بالعلماء والأدباء الذين جاؤا اليها للتعليم ولادارة المعاهد العلمية الأجنبية ، فضلا عن الارساليات ، فقد امتلأت أيضاً برجال الأعمال الاقتصادية الاجانب ، وفي عدادهم أصحاب المهن والفنون . ومن جهة ثانية فان تجار بيروت وأصحاب المصانع وطلاب المدارس العلمية وغيرهم كانوا يؤمون بلاد

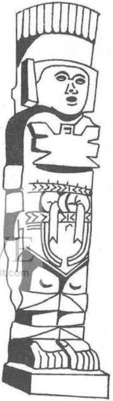
الغرب دون انقطاع فيتأثرون بها، سواء أرادوا أم لم يريدوا. وذلك لأن في أجواء كل جماعة من الناس ذرات من أرواحهم تتهادى فوقها ، فتجعل الجو متفقاً مع مستواهم الاجتماعي ، وما أشد ما يتأثر المقيم بين طبقات الناس من روحهم وأخلاقهم صالحة كانت أم فاسدة ؟

فهذا الاختلاط الدائم بين الغرب واللبنانيين كان من حسناته تسرب روح النهضة الحديثة اليهم ، ومدارها الاعتماد على النفس والتوثب للعمل المجدي ، فكان ذلك مما ادى الى ارتفاع المستوى الاجتماعي في لبنان .

* * *

هذه العوامل منفردة ومتحدة هي مصدر النهضة الفكرية والاجتماعية بلبنان ثم ما ان ازدادت في عهد الاستقلال بالسياسة الحرة الحكيمة حتى نعم هذا البلد الصغير باسم كبير ، وحتى أصبحت صحف العالم تتحدث عنه ، واذا تحدثت فلا تقتصر على وصف محاسنه الطبيعية فقط ، وانما تتناول عمرانه وازدهاره ونشاط أهله وثقافتهم . ولا شك أن ذلك يسر سائر البلاد الشقيقة لأن لبنان بلد عربي واذا اثنى عليه أحد فانما يعود الثناء على العالم العربي قاطبة .

أساطير مكسيكية



عبد المكسيكيون الهنود ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، قوى الطبيعة والكون ، اعرابا عن ضعفهم وعجزهم امام تلك القوى ، ونشدانا لخيراتها ، ودرءا لبطشها وفتكها فكانوا يعتقدون وجود آلهة للانبات والخصب ، والغيث ، والافلاك ، والنجوم ، وللارض والسماء ، وللرياح والعواصف ، ولليل والنهار ، وللموت والحياة ، كل ذلك الى جانب ايمانهم باله واحد ذي اقنومين ، هما (تونا كاتيهكيتلي Tonacatecutli) الملقب بالسيد المعيل ، وبالرب القريب ، وزوجته (تونا كاسيواتل Tonacacihuatl) الملقبة بالسيدة المعيلة . وقد البس المكسيكيون عقائدهم هذه اثوابا من الروايات والاساطير ، تلونت بالزهي الالوان ، وتبهرجت بابهى الزخارف ، روايات واساطير خلدت على جدران هياكلهم وصروحهم ، وفي مختلف فنونهم الجميلة وخاصة منها النقش ، والرسم ، والشعر ، وكانت حافزا على السير بهم في مضمار العلوم الرياضية ، والطبيعية والفلكية الى ارفع ماوصلت اليه شعوب اميركا من درجات الرقي .

اخترنا من تلك الاساطير اسطورتين كونيتين عن سير الافلاك في اللانهاية ، اوحى بهما ايمان المكسيكيين الهنود بديانة الشمس او ديانة النور ، الاولى منهما تشيد بعظمة ميلاد الشمس الذي يتجدد كل يوم ، لينشر في الدنيا اسباب الطمأنينة ، والتفاؤل ، وحب الحياة ، والثانية تنطوي على صور متعددة للنزاع القائم بين الشمس والقمر ، أي النور والظلام او الحق والباطل ، والحكم الخفية التي قضت بتفوق الباطل على الحق لوقت لم تعين حدوده . واضفنا الى هاتين الاسطورتين اسطورة ثالثة عن الخليقة اثبتناها لشهرتها ، وللشعبية الخاصة التي تتمتع بها .

من كتاب **اساطير مكسيكية** للدكتور **انور حاتم** . وهو يقع في ٢٠٤ صفحات ، اصدرته **وزارة الثقافة والارشاد القومي** بدمشق .

الحرّية وحدودها

عبد الله عبد الدائم

ثمة الفاظ تشي بحرانها وقلقها من بحران الحياة نفسها وقلقها . انها تعبر عن دفقة من دفقات الحياة الاصيلة، ومن هنا يكتنفها مايكتنف الحياة من ابهام وتعدد في الغايات والاهداف .

من هذه الالفاظ التي تلتف بكل مافي حياة الانسان من جوانب متشابكة بل ومتناقضة، لفظ الحرية. وما نخال كلمة تلقى من اضطراب المعنى وتدافع الفكر مثل ماتلقاه . انها على رأس تلك الامور التي نلوكها وتلوكنا، وتدنو منا وندنو منها، وتزداد مع ذلك، لقربها ودنوها ومعايشتها لنا، استغلاقاً وابهاماً . ان حياتنا تسبح فيها ، ونحن نسبح في حياتها : فما نملك القدرة على البعد عنها ، بغية تحليلها ، لا بعد لأي وجهد، وإذا تيسر لنا هذا البعد فبمقدار .

والحق اننا نتحدث عن الحرية حديث من يعرف كل شيء عنها ومن يجهل كل شيء عنها في آن واحد . انها قريب بعيد ، بدهية مستعصية ، واضحة مبهمة . اننا نعاني منها ونشعر بوجودها في كل خطرة وسكنة ، وندرك انها معنا في الطريق ، وانها صبوتنا ومحركنا ؛ غير أننا مع ذلك نشعر بازدواج معانيها بل بتعدد تلك المعاني ، وندرك اننا لانواجه في الواقع صبوة وحيدة الاتجاه والقصد ، بل نلقي في قلبها صبوات واتجاهات ، هي ابداً شتيتة وهي أحياناً متناقضة .

ومن هنا كان اختلاف الرأي حولها ، ومن هنا كان العقل المحلل على مر العصور يذهب في أمرها مذاهب ويصطنع في تصورها أنظاراً وطرائق متباعدة .

ولسنا في هذه العجالة ، امام دراسة تحليلية لتلك المعاني المتباينة التي حملتها فكرة الحرية لدى المفكرين والفلاسفة والعاديين من الناس طوال عصور ودهور . وجل ماننبغي اليه أن نخلص

من هذه التجربة الانسانية مع مفهوم الحرية ببعض النتائج التي تنير لنا الطريق . فما من حق أحدنا أن يبدأ في بحث مثل هذا المفهوم بحثاً بديئاً ، وان يطرقه طرق الاول لا الآخر ، بعد ان نفضته الاقلام وما كادت تغادر فيه من متردم . ومن واجبنا ان نلتقي به حيث تركه فكر الانسان ، بعد حوار طويل معه ، وبعد قرون من المعاشرة والصحبة .

وخلال هذه التجربة الانسانية الطويلة نريد ان نصل الى نتائج ثلاثة هامة ، تعنينا اليوم في اي بحث نسوقه حول الحرية .

١ — **النتيجة الاولى** هي التوكيد على ان مفهوم الحرية مفهوم فردي واجتماعي معاً ، ولا سبيل الى الفصل بين الحرية الفردية والحرية الاجتماعية فصلا أساسيا . ولقد تجاوزنا في هذا المفهوم اليوم ذلك الصراع الذي طالما أثاره المفكرون بين حرية الفرد وحرية الجماعة ، وماوكده بعض الباحثين من نزاع فاصل بينهما . لقد تحدثوا طويلا عن حرية الفرد ، وكأنها تعيش قيود المجتمع ، ورأوا في اعمال عظماء الرجال تعبيرا عن الحرية الحقة التي تحطم أغلال المجتمع . وقرروا بوجيز العبارة ، وبنظرة مبسطة محبة للتجزيء ، أن المجتمع موطن القيود والمحافظة والصخرة التي ترتطم عليها الحرية ، في حين ان الافراد هم الذين يحملون لواء الحرية في وجه ذلك المجتمع المقيد الجامد . وهكذا وضعوا في الواقع الاجتماعي كل ماهو سكونية وعادة وتقليد وجمود وسكون ، ووضعوا في الفرد كل ماهو تجديد وبناء وابتكار وخلق .

وما نريد ان نعيد هنا قصة الفرد والمجتمع ، وكل مانريد أن نؤكد ان مثل هذا الفصل بين حرية الافراد وجود المجتمعات فصل صنعي ، وان الحقيقة دون هذا كله . وليس من جديد القول ان نذكر ان الجمود والتقليد والمحافظة أمور توجد لدى الافراد كما توجد لدى المجتمعات ، وان الابتكار والتجديد والخلق امور توجد لدى المجتمعات ، وليست وقفا على الافراد . ولا نعدو وصف الواقع عندما نقول ان المجتمعات تحتاج في بنائها لكيانها وفي قيامها بوظائفها الى جهود جبارة لاتتم دون صراع عنيف يحمل أسمى معاني الحرية . والنضال في سبيل الجديد ، يتم كما نعلم على نطاق المجتمعات كما يتم على نطاق الافراد ، وكما يلقي الفرد بنفسه في عزم يغير مجرى الامور ويجعله يلتزم بموقف مبدع مبتكر ، تلقي المجتمعات بنفسها في مثل هذه القرارات الحاسمة التي تغير مجرى التاريخ وتخلق بنى اجتماعية جديدة . والقول الموجز الذي ننتهي اليه في هذا السبيل ان الافراد والزمر الصغيرة والمجتمعات الكبيرة يجمع كل منها في آن واحد مظاهر من التقيد والمحافظة وتجليات من الحرية والابتكار . والواقع الانساني ، سواء في كيانه الجماعي أو كيانه الفردي ، يخلق قيوده ويقاومها ويحد منها بجهوده ويستخرج من خلالها حريته وجدته .

وما نثير هذا الموضوع من اجل ذاته ، بل نهدف من ورائه الى نتيجة أساسية ستكون رائدنا في جملة ماتقرره في هذا البحث ، وهي ان الحرية الانسانية ليست حرية معلقة في الفراغ ، يلوكها الفرد بينه وبين نفسه ، وانما هي حرية « لها موقعها » وموضعها ، ضمن اطار الحياة الاجتماعية ، وانها مشروطة بشروط اجتماعية اساسية ، وانها لاتنفصل عن جملة المصير الانساني ، في جانبه الاجتماعي والفردي معا ، وانها تضيق بالتالي وتتسع تبعا لجملة الظروف والشروط التي تقع فيها وتوجد ضمنهـا ، وان العمل لها عمل ضمن اطار هذه الظروف ونضال وسط الشروط لاخارجها .

ومعنى هذا بعبارة اوضح ان الحرية ، كـكل قيمة انسانية ، امامنا لا وراءنا ، وان العمل لها ليس عملاً لفكرة معلقة في المطلق بعيدةعن علائق الزمان والمكان ، وانما هو عمل ضمن شروط الزمان والمـكان ونضال يحقق اللقاح بين المثـــل الاعلى والواقع ، عن طريق ادراكه للواقع وشرائط تغييره .

٢ — **والنتيجة الثانية** التي تخلص اليها من خلال تجربة الفكر الانساني معمفهوم الحرية، ان ثمة معاني اختلطت بالحرية وليست منها ، ومن اللازب بالتالي ان تنضوها عنها اذا اردنا لهـــا مزيداً من الجلاء والوضوح .

وعسير علينا في هذا المقام ان نقد كل فكرة اختلطت بالحرية دون ان تكون منهـــا في شيء . وحسبنا ان نمر عابرين بأهم هذه الأفكار الزائفة التي حلها مفهوم الحرية ، نتيجة اتعقده البديء :

واول مانقوله هو ان الحرية الانسانية ليست جوازاً محضاً كما يقول الفلاسفة ، وليست خلقاً من عدم . فالحرية الانسانية ، حتى في اقوى اشـكالهـــا « أي عندما تصبح ترب الخلق والابداع ، كما سنرى ، تظل حرية محدودة ، وتظل حرية « لها موقعها » في العالم الواقعي كما قلنا ، وتظل حرية مشروطة ، لاتستطيع ان تخلق وتبدع إلا باستنادها الى طائفة من الصور ونقاط الاستناد المقيدة المحددة . فلا حرية مطلقة ، ولاحرية تعني الخلق المحض ، اي الخلق من عدم . فالعدم لايخرج إلا العدم كما يقول المثل اللاتيني القديم .

وثاني مانقوله بعد هذا ان الحرية الانسانية لاتعني « عـــدم الاكتراث » كما كان يذهب بعض الفلاسفة فهي ليست اختياراً نقوم به لايبرره شيء ، ولايكترث بشيء ، ولايثوي وراءه باعث او سبب ، وسيان عنده ان يختار هذا او ذاك من بين شيئين ممكنين . انها لايمكن ان تكون صورة يصورها المثال الشهير ، مثال « حمار بوريدان » : لقد وضع هذا الحمار على بعـد

واحد من صندوقين من العلف ، متساويين في الاتساع والمقدار ، فكان شأنه ان مات جوعا بعد ان حار أي الصندوقين يختار ! والحرية الانسانية عندما نجعل منها حرية عدم الاكتراث هذه ، تفقد على هذا النحو كل قدرة على الفعل ، بل تشل كل قدرة على الفعل ، بل تشل كل جهد انساني اذ تجعل الحياة الاجتماعية والفردية مستحيلة .

وثالث ماتقول ان الحرية الانسانية ليست حرية باعثها العقل وحده ، على نحو ماقال بعض الفلاسفة العقلانيين وعلى رأسهم ارسطو وسبينوزا وكانت . لقد قالوا ماقالوا رداً على حرية عدم الاكتراث، وارادوا ان يخلصوا من تفنيدهم لهذه الحرية التي تعني عندهم الهوى الخالص وعبودية المزاج ، الى القول بأن الحرية لايمكن ان تكون سوى الارادة التي يسيرها العقل والعقل وحده . وواضح ان هذا التوحيد بين الحرية وبين الواجب الذي يمليه العقل يقيم فصلا مصطنعاً بين جوانب لاتنفصل من حياة الانسان ، ويوحد بين الحرية وبين التنفيذ الذي هو في الواقع وميض خافت باهت من نور الحرية وجزء صغير في فلكها .

٣ ـ **والنتيجة الثالثة** التي نود ان نستخلصها هي في واقع الأمر قلب موضوعنا وهدف كل ماقدمناه حتى الآن من افكار. ونعني بهذه النتيجة القول بأن الحرية الانسانية ليست شيئاً نستنتجه استنتاجاً فكرياً او نفسره تفسيراً او نستخرجه من بناء عقلي معين . انها شيء نخبره ونجربه ونحياه ثم نصفه بعد ذلك . انها صفة أساسية من صفات الوجود الانساني ، في جانبه الفردي والاجتماعي ، وهي مصاحب لكل عمل وسلوك ، وانها تفترض وجود قيود وحدود ، وليست شيئاً معلقاً في المطلق . فهي تفترض عقبات ينبغي تجاوزها ومقاومة لابد من غلابها ، وحواجز يتوجب تحطيمها ومواقف يلزم تغييرها وقلبها . انها كما قلنا ونقول حرية « ذات موقع » لها اطارها في الواقع ، ولها شروطها وظروفها التي لاتفهم بدونها . انها دوماً وابداً حرية نسبية . بل هي في حاجة الى القيود والحدود تستخدمها وتتوكأ عليها من اجل اغراضها : فهي تستخدم القيود المختلفة ، كما سبق ان قلنا ، نقاط ارتكاز ووسائل تتوسل بها الى التجديد والخلق . وهي تستخدم خاصة القيود النفسية والبيولوجية والاجتماعية وتتكيء عليها من اجل بلوغ غاياتها.

واذا اردنا تلخيصاً لكل ماقلناه ، اتينا بالتعريف الوصفي التالي للحرية الانسانية ، فقلنا ، متأثرين في ذلك ، خطوات عالم الاجتماع « غورفيتش » : ان الحرية الانسانية التي نخبرها في تجارب جمعية وفردية عمل ارادي عفوي ومتبصر ، مجدد ومبدع وخلاق ، يستهدي النور الذي يتكون في حميا العمل نفسه ، محاولاً ان يجوز كل العقبات ويقلبها ويحطمها ، مجرباً ان يعدل الاوضاع والمواقف وان يتجاوزها ويخلقها خلقاً جديداً .

٤ – **والنتيجة الرابعة** التي نود ان نخلص اليها هي ان الحرية الانسانية هذه ، بحكم هذا التعريف نفسه ، وبحكم فهمنا لها على انها عمل من اجل الحرية اي من اجل التغلب على العقبات والاوضاع التي تقف في وجهها ، لابد ان تكون بالضرورة مراتب ودرجات بعضها فوق بعض :

ففي أسفل السلم نجد الحرية التي تعتمد على التفضيل الشخصي الذاتي ، سواء في اطار الفرد او في اطار الجماعة . فهذا انسان يختار اقرانه وهذا مجتمع يختار اعضاءه ، استناداً الى دوافع مزاجية شخصية خالصة يحكمها التفضيل او النفور .

وفوق ذلك بقليل يمكن ان نجد الحرية المنفذة المجددة : ذلك ان الحرية لابد لها كيما تنطلق الى موقف جديد ، من ان تتكيف اولا مع الظروف القائمة وان تحاول تعديلها . وعملية التكيف والتعديل من اجل تحطيم القيود القائمة في وجه الحرية والانتقال الى حرية أوسع لها قيودها الجديدة دون شك ، هي التي نستطيع ان نطلق عليها اسم الحرية المنفذة المجددة .

وفوقها يمكن ان نلفي الحرية القائمة على الاختيار . فالفرد او الجماعة كثيرا ما يوجدان امام جملة من الطرق المقترحة ، ولا بد لهما من الاختيار بينها . وما دمنا قد عرفنا كل حرية بانها حرية ذات موقع معين وشروط ، كان من البدهي ان نقول ان حرية الاختيار ، هذه تعني الاختيار بين مواقف معينة ، ذات مضمون اجتماعي واضح .

ويعلو على هذه الحرية التي هي حرية محدودة قصيرة العمر كما نرى ، الحرية القائمة على العزيمة. وغرض هذه الحرية الاخيرة ان تقلب العقبات وتحطمها كيما يتمكن العقل الارادي من ان يجد طريقه . وصفة العزيمة الاولى انها لاتحاول الفرار من العقبة او الدوران حولها ولا تجرب طريقا جديدا تتخلص بفضله من المعركة وانما تمضي ، على العكس من هذا ، شطر العقبات بل شطر أقساها ، متحدية متصدية . فالعزم نقيض كل حل سهل . وهو الحرية البطولية التي يغامر فيها الفرد أو المجموع بكل شيء من اجل كل شيء . والفعل المعتمد على العزيمة يشكك في نقاط الارتكاز القائمة ، وفي القيود الموضوعة ، ويكون بهذا المعنى بمثابة ولادة جديدة ، تفتح آفاقا جديدة امام وجود الفرد او الجماعة وان كانت في الوقت نفسه تجعل حياتهما في خطر . انها تتمثل في قولة نيتشه الشهيرة : « اذا اردت ان تجني من الوجود اجمل مافيه عش في خطر » .

واخيرا فوق هذا كله ، توجد التتمة الرائعة للحرية المستندة الى العزيمة ، ونعني بها الحرية الخلاقة . وهي ذروة الحرية الانسانية ولحظتها الحاسمة . انها حرية محدودة دون شك ، شأنها في ذلك شأن كل حرية ، مادامت الحرية دوما وابدا مشروطة موضعة في مكان وزمان ومجتمع ولكنها ، رغم كل الحدود والقيود ، تخلق اصحابها ، افرادا كانوا او جماعات ، وتعيد خلقهم

وتجديدهم باستمرار ، وتخلق اعمالهم ونتاجهم خلقا جديدا ابدا : سواء في مجال الدين او العلم او الفن او الاخلاق او النظم السياسية والاقتصادية او ... وهذا النمط السامي من الحرية يستند الى سائر الانماط السابقة ويمتصها ويدخلها في كيانه ، مقدما بذلك دليلا ساطعا على ان اشكال الحرية الانسانية التي أتينا على ذكرها اشكال متآخذة متساندة ، تتلون بألوان تبدو متباينة.

ونقطة القوة والضعف في هذه الحرية السامية ، الحرية الخلاقة ، تثوي في انها نهمة لاتروي صاحبها وتدفعه دوما الى المزيد. انها اللحن الذي لايكتمل ابدا . انها «الحرية المقوصة» دوما ، الشاعرة بالمأساة طرا ، دون ان تجد في تجاوزها لذاتها حلا لمأساتها . فوراء التجاوز دوما تجاوز يتجاوزه. وهكذا تغضي الحرية الخلاقة في سباق مضن مع الوجود، لايخلو من قوة ولكنه لايخلو ايضا من مرارة المأساة . وكثيرا ماينتهي بصاحبه الى ان يقطع سلسلة التجديد الذي لاينقطع عن طريق نشدان الراحة في « التجربة الخلقية » او « التجربة الدينية » او « التجربة الفنية » اوغيرها . سوى ان هذه التجارب تظل خارجة عن المعايير الحقة للحرية . ومأساة الحرية الانسانية ، انها لايمكن ان يتجاوزها شيء ، لانها كما قلنا منذ البداية صورة الحياة الانسانية وغرفة من نبعها .

* * *

وبعد ليس هذا التحديد الفكري لمفهوم الحرية ودرجاتها في معزل عن ميدانها الواقعي العملي ، كما قد يخيل للوهلة الاولى . ولسنا ممن يحب ان يتيه في البحث الفلسفي من اجل ذاته ، وجل ايماننا ان مثل هذا البحث هو سبيلنا الى فهم اي مشكلة واقعية ووضعها ضمن اطارها .

ان الحرية كما يتبين من البحث الفكري الذي قدمناه ، معاناة لتجربة انسانية عميقة قوامها تجاوز الفرد والمجتمع لذاتهما من اجل خلق جديد . وهذا الخلق الجديد لايشترط دوما ان يكون اعلى في القيمة من الوجود القائم . وههنا المشكلة . ان الحرية كما نرى لاتحمل حتى في اعلى صورها وأشكالها ، عصمة تجعلها تنطلق دوما نحو الوجود الفردي والاجتماعي الافضل .

انها بهذا المعنى حرية محدودة ، لا لأنها مقيدة دوما بقيود الاوضاع القائمة ، ولكن لأنها مقيدة عما في الخلق نفسه من ضلال احيانا .

ومعنى هذا ان الحرية الخلاقة المبدعة ، التي تخلق الافراد والجماعات ، لابد لها دوما من حدود تمسك بها وتقيها من الانحراف . وهذه الحدود والقيود هي في نظرنا حدود القيود الصادرة عن فهم الواقع وادراكه وتبين معناه . ان الخلق الحق هو الخلق الذي ينطلق من معرفة عميقة

بالمادة التي يريد ان يصنعها . وان الحرية الخلاقة الحقة هي الحرية التي تنطلق نحو التجديد بعد معاناة عميقة وثيقة لمقومات الواقع الذي توجد فيه . ان الحرية المنشودة ، كما قلنا ونقول ، لابد ان تكون نتيجة اللقاء بين الواقع والمثل الاعلى . وهذا اللقاء لايتم الا اذا تم ادراك الواقع ادراكا علميا دقيقا ليكون نقطة الانطلاق نحو الصبوة الجديدة .

ومعنى هذا ايضا بعبارة اخرى ان اول شرائط العمل الحر لدى الافراد والجماعات ، واول مقومات الثورة المجددة ، التعرف على بنية الواقع ، ورسم الصورة الجديدة من خلاله . وكما ان التقيد بالواقع جمود وتراجع ، فتجاهله ضمن عملية التجديد عقم وبناء في فراغ . والتجديد الحق هو الذي يلامس السماء ورجلاه مطمئنتان الى الارض .

ومن هنا كانت الدراسة الموضوعية لحياة امة من الامم اومجتمع من المجتمعات نقطـة الانطلاق في ولادة العمل الحر المنتج حقا . ان هذا العمل يولد من خلال فهم الواقع ، من خلال تبين العقبات ، من خلال الارتطام بالصعاب . انه ولادة نامية متزايدة ، تزداد نماء كلما عاشت مع الواقع وقيوده وصخوره .

والمجتمعات الحديثة خاصة بلغت حدا من التعقد والتشابك ، يجعل من العسير ان تقوم نزعة حرة الى تجديدها دون طول تدارس لأوضاعها وفهم لمقومات وجودها . والعمل الحر المنشود ليس العمل المعلق في المطلق وانما هو العمل الذي ينطلق من بنيـة هذه المجتمعات ويجعل من معالجته لهذه البنية معالجة ذاتية مباشرة سبيله الى تحريرها .

ان مسألة الحرية في العصر الحديث، اذا شئنا تعبيراً آخر، مسألة تحرير لاحرية. فمشكلة الحرية ليست مشكلة الانسان امام وعيه الفردي كما يريد بعض الفلاسفة ومن بينهم برغسون . انها ليست مشكلة « هاملت » امام شبح ابيه ، ولكنها مشكلة الكائن الانساني في علاقته بمجتمعه وبالظروف المحيطة به . وعلى رأس تلك الظروف الاوضاع الاقتصادية التي لاتنفصل اليوم ابداً عن الظروف الفكرية والروحية . وليس من الغـلو ان نقول ان من اهم اسباب استعباد الانسان في العصر الحديث افتقاده في علاقته بالمادة للشكل الانساني الذي ينبغي ان تقوم عليه هذه العلاقة . وتحرير العلائق الاقتصادية من المفاهيم الزائفة وضروب الرياء التي حملتها في العصر الحديث واستخلاص الفهم الانساني الصحيح لعلاقة الانسان بالمادة يظلان المهمة الاولى في تحرير الانسان .

ولاحاجة بنا الى العود هنا الى حديث مكرور عن متانة اللحمة التي تربط بين مايدعونه بالحرية السياسية ومايدعونه بالحرية الاقتصادية . ومانقوله في هذا المجال يتجاوز في الواقع مجرد توكيد هذه الصلة ، ويذهب الى معاني اعمق تربط الحرية بالتنظيم الانساني للعلائق الاقتصادية .

فالعلائق الاقتصادية لابد ان تتحرر من معناها المادي الخالص اذا اردنافعلا تحرير الانسان واذا اردنا ان نجعل هذه العلائق في خدمة الانسان . ولابد من اجل تحقيق الحرية الخلاقة للانسان ان تصل به الى وضع يعيش فيه من سعيه المادي بدلا من ان يعيش من اجل السعي المادي .

ولن نخوض في هذا الحديث الذي قد يذهب بنا بعيداً . وماهو في الواقع الا مثال عابر ضربناه بيننا عن طريقه فكرة اساسية في بحثنا عن الحرية ، طالما وقفنا عندها ، وهي ان الحرية ليست عملا معلقاً في الهواء ، وانما هي نضال يتخذ شكله ومعناه ضمن اطـــار النضال في سبيل العلائق الانسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض والتي من شأنها ان تنتقل بهم الى مستوى جديد من التحرر .

وكم كان بودنا ان نبحث في مـــكانة الحرية ضمن النظم الاجتماعية والاقتصادية الكبرى السائدة في العالم ، وان نسائل عما يحققه كل واحد منها من ظروف الحرية واشكالها . غير ان ضيق المجال يجعلنا نرجيء ذلك الى مناسبة اخرى . وحسبنا وراء هذا كله ان نوكد من جـديد ان الحرية حرية « ذات موقع » وذات شروط ، وانها لاتتخذ معناها إلا في النضال ضمن هـذا الموقع وضمن تلك الشروط في سبيل الانتقال الى وضع جديد وشروط جديدة اقدر على تحقيق الوجود الانساني الامثل ، واحفل بمعاني الحرية وابعد عن القيود .

ترتيب الأبواب والمواد

ان هيأة تحرير المعرفة تود ان توضح بان ترتيب المواد في هذه المجلة يخضع في الاعتبار الاول لترتيب الابواب : علوم اجتماعية ، آداب ، فنون ، تيارات فكرية ، ولضرورة التنوع ضمن حدود الأبواب ، كما لاغنى عن اخضاعه لتاريخ وصول المواد الى الادارة .

وان هيأة التحرير اذ تحرص على اداء عملها بكل دقة وشعور بالواجب نحو كبار المثقفين ورجال الفكر ، تؤكد لـكل من الأساتذة الذين تفضلوا فلبوا دعوتها واجابوا على رسائلها ، صادق الاحترام والتقدير ، ويسعدها ان تتلقى اية ملاحظة تساعدها في تصويب منهجها ، واداء مهمتها على الوجه الأكمل واثقة كل الثقة بالروح السمحة الكريمة التي يتصف بها رجال العلم والأدب والفن .

كيف نفهم التاريخ؟

.... آراء كبار علماء التاريخ وأصحاب النظريات الحديثة المشهورة في تفسير الحدث التاريخي والتطور خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

ترجمة وتقديم: قلم التحرير

في القرن التاسع عشر، عكف الباحثون على التاريخ يستقرئونه ويفسرون احداثه، ومجموع تياره العام بما فيه من متشابه ومتناقض، وقيل آنئذ أن دراسة التاريخ غدت علماً من العلوم، لأنها لم تقتصر على تفسير التاريخ كحدث بظاهره، بل بما يتصل حقاً بتطور المجتمع البشري، وحياة الانسان نفسه حتى لقد غدا الانسان في المقام الأول، موضوع بحث التاريخ، من أجل التعرف إلى دوافع سلوكه، واستبطان اسرار كونه، المبهم العجيب.

وإن لم يسلم العلماء حتى اليوم، بالرغم من المحاولات الجبارة في تعزيز البحث التاريخي، بالرجوع إلى الوثائق والأسانيد، والحفريات والكشوف الجريئة، والتحقيق في أدنى احداث التطور واعظمها، بأن استقراء التاريخ علم من العلوم، كعلم الرياضيات أو الفيزياء، أو ما دون ذلك، فمن المقرر أن الطريقة التاريخية في تفسير السلوك الأنساني غدت بين القضايا الفلسفية، القضية الأولى

الآخذة قدُماً بالنمو واجتذاب الاهتمام ،ومهما يكن من تجاذب العلم والفلسفة موضوع التفسير التاريخي فان ما قدّمه العلماء والفلاسفة ، من بحوث ومحاولات ، خلال مئة العام الأخيرة قد اغنى المعرفة الانسانية ، بكشوف هتكت انوارُها حجباً كثيفة من سدف الظلام ، وأنقذت الفكر من مزالق التعثر والتيه ، عندما تتصدى لمثل هذه الأسئلة المعجزة : من هو الانسان؟ من أين أتى وإلى أين مسيره ومصيره؟! أو لمثل هذه الأسئلة المتفرعة عن تلك الأولى وهي : هل يسير التـــاريخ على هدي ناموس لا بد أن يصل به إلى قرار ، أم هو خبط عشواء في ليلة ظلماء ؟! هل للتاريخ هدف ؟! وان لم يكن له هدف ، هذا التاريخ ، منذ ان اصبح له له سجل معروف ، فهل له معنى ؟!

وحصيلة كل سؤال، من جميع تلك المحاولات الفكرية الرائعة ، تضاف إلى امثالها ، لتحترق في رأس الشعلة الهادية ، فوق القمة الشامخة ، حيث ينصب النور ، لا على ماضي الانسان فحسب بل على مستقبله ايضاً... لأن طموح الانسان من وراء كدحه وعنائه وبلائه ، أن يطرح على نفسه اسئلة جديدة ، جماعها هل يستطيع الانسان ان يضع تاريخه ؟! ومعنى ذلك سؤال آخر : هل يستطيع أن يتحكم بمصيره ؟! واذاعرف ماضيه ، فهل يتيح له ذلك أن ينظم مستقبله كما يريد ويبلغ احلامه في السعادة ؟!

ومعنى ذلك بصورة مصغرة سريعة أن الانسان لم يعد ذاك الطفل الذي الذي يتناهض على رؤوس قدميه ويتمطى بصلبه وبساعديه ليطل على ما وراء الجدار الكبير ، بل انه ليقفز مغامراً قفزات عنيفة في الهواء ، ولو خلت من تحته الأرض ليرتفع قليلاً نحو حافة الجدار الفاصل ، شطر المستقبل ، وكثيراً ما يقال في مثل هذه المحاولات ، ان الانسان يحطم نفسه، واوهى قرنه الوعِلُ ...وكثيراً ، ماقام اهل الردّة من فلاسفة الفكر التقاليدي ، ينعون على الانسان طموحه ومغـــامرته ،

ويهرون المغامرين قائلين لهم : ليست مملكة الطوبى ، ليست المدينة الفاضلة ، على وجه هذا الأرض . وه طوبى للمساكين لانهم يتعزّون وطوبى لهـــم لأن لهم ملكوت السموات » .

وبالواقـع فانّ الردّة التشاؤمية التي تميز بهـا القرن العشرون ، وظهرت آثارها بعيدة في الأدب وافن والفلسفة والبحث الديني ، كانت ردفعل للموجـة التفاؤلية التي غمرت الانسان خلال القرن التاسع ، مع ازدهار عصر الصناعة ، وتقدم العلم ، وانفراج الآفاق أمام صانعي المادة وقاهري الطبيعة ، مما ظن معه أن الانسان اوشك ان يصبح خالقاً ، وانه لأولى به وقد بلغ القدرة المعجزة بالعلم . أن يتحكم بمصيره ، ويخلق كانسان عادي ، انسان الغد المتفوق ـــ(Le urhomme) وهذا من بعض احلام المستقبل .

لقد غمرت موجة **التشاؤم** ، ارجاء واسعة من المحيط الثقـافي، فهب إلى قرع صنوج الخطر فلاسفة روحانيون وعلمانيون ، مؤمنون بالتطور وكافرون به ، فلاسفة وشعراء ، وعلماء ، وكلهـم صبوا النقمة على عصر الآلة ، والتطور المـادي المتصاعد عنيفاً في دوار الحقد والكراهية والتكالب ، وحملت الفلسفة والأدب الروائي بصفة خاصة بذور التشاؤم لتنشر في الآفاق الأربعـة ، ممـا اضاف إلى الأجواء الثقيلة شحنات ساخنة من الحمى والاضطراب .

وصف (**فاليري**) هذا العـالم المضطرب في الآونة الحاضرة التي بلغهـا التطور التاريخي لمغامرة الانسان ، بالسفينة التي طوح بها في اليم ، فانقلبت فيها مصابيحها التي كان يظن أنها اكثر ثباتاً في امكنتها . وأما العقل الانساني بمشاريعه المضطربة ، فهو يتراكض مجنوناً من الواقع إلى كابوس الأحلام ، ومن الكابوس إلى الواقع ، كأنه فأرة امسك بها فخ)ـــفاليري ـــ القسم الثالث من منوعات ـــ ١٩١١

وخطب (**مالرو**) في اليونسكو عام ١٩٤٦ ، فأشار إلى فجيعة الانسان

في احلامه الكبيرة ، ناعياً على العلم ، مصيره في الخراب والعذاب . قال : اعلنوا في القرن التاسع عشر بأن الآلهة قد ماتت ، وحددوا بذلك بدء مملكة الانسان وحده. على أن المعضلة التي نقف دونها اليوم ، في اوروبة العتيقة هذه ، هي هل مات الانسان نفسه؟! نعم ام لا ؟ وان السؤال ليطرح ، لأننا نشاهد مبررات طرحه. لقد كان القرن التاسع عشر ، عهداً حافلاً بالأمل العريض ، في العلم ، في السلام ، في نشدان الكرامة . وكان من المقرر منذ مئة عام أن آمال الانسانية التي تضم عليها جوانحها ، ستبلغ بها لا محالة ، إلى مجموع من الاكتشافات التي تخدم الانسان ، إلى مجموع من الأفكار التي تخدم السلام ، إلى مجموع من المشاعر التي تخدم الكرامة. أما السلام فها كم مصيره ، ولا نزيدكم بياناً ، أما العلم . فالجواب في بيكيني [1] ... وأما الكرامة ... !

وبعد أن يصف اندريه مالرو ، مآسي الحروب والعذاب ، — العذاب قبل الألم — يقول ان الانسان لمسوق اليوم سوقاً إلى الجواب ، وليس على ما سبق وصنع في الماضي ، وليس على ما يريد غداً أن يصنع ، بل على سؤال : من هو ؟! ان اوروبة الممزقة الدامية ، ليست هي المصابة بجراحها بأكثر مما أصيب وأدمي ، ذلك الانسان الذي كانت ترجو أن تتم تكوينه » .

وبالواقع ان سؤال : من هو الانسان — غدا موضوع علم التاريخ أو فلسفة التاريخ .

. . .

ان بعض هذا التقديم ، لما سنعرض من آراء ومذاهب في تفسير الحدث التاريخي العام ، يصح الاستمرار فيه ثانية لاهميته بين المتفائلين والمتشائمين ، بعد

(١) اشارة الى اول تجربة ذرية .

عرض تلك الآراء والمذاهب نفسها ، بدءاً من القرن الثامن عشر ، عصر روسو ومونتسكيو ، وعبوراً بالنظرية الألمانية التي كان هيغل ثم ماركس على رأسها في القرن التاسع عشر ، فالنظرية المذهبيـة الماركسية من معتدلة الى متطرفـة — لينين ، وجوريس — في القرن العشرين ، الى اكبر شارحي التاريخ البشري العام ، اوسوولد شبنغلر ، عقب الحرب العاليـة الأولى ، الى ارنولد توينبي عقب الحرب العالمية الثانية ، الى بينديتو كروتشه ، وروبير آرون ، وكارل جاسبرز ، ممن سجلوا في تفسير ظواهر التاريخ الانساني ، عبر مراحل مدنياته وادواره ، نظريات ومبادىء ، تتراوح بين العقائد والنظريات ، او المحاولات المتشككة ،التي لاتعتبر علم التاريخ ، علماً قاطعاً يبيح لأدبائه ان يرصدوا بـه نجم الانسان في فلك المستقبل .

الحلقة الأولى ؛ من هذه الدراسات ـ في العددالقادم ـ نتناول:

١ — تطور النظر الفلسفي الى الانسان

٢ — الفيلسوف الألماني هيغل ، ومفهوم التاريـخ

٣ - الماركسية والتاريخ .

روضة الورد

قال سعدي الشيرازي :

تحمل اذا أوذيت واعف فانما　　ستجزى عن العفو الجميل ثوابا
اذا لم يكن بد بأنك صائر　　تراباً فكن للعالمين ترابا

* * *

أراك بدائي لا تحس وشقوتي　　فمن لي بخل ذي هوى وحنان
اكون وإياه لشكوى صبابتي　　بنار الهوى عودين يحترقان

* * *

صبغت عجوز شعرها فسألتها　　أماه يا غرض المنون الطارق
بسوادشعرك إن خدعت فهل تُرى　　تقويس ظهرك يستقيم لعاشق

* * *

يسكر اليسر كل فسل دنيء　　لم يفكر في العسر وقت الرخاء
يزدهي في الربيع بالورق الغصـ　　ـن فيعرى لذاك عند الشتاء

* * *

لو أن نساء حاملات اخا الحجا　　ولدن لنا بعد المخاض أفاعياً
إذن كن خيراً من نساء حوامل　　يلدن أناساً لا تحب المعاليا

* * *

ابيات مختارة من كتاب **روضة الورد « كلستان » لسعدي الشيرازي** ترجمه شعراً عن الفارسية الاستاذ الشاعر **محمد الفراتي** ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي ضمن سلسلة **روائع الادب الشرقي — صدر هذا الشهر .**

الكتاب والموضوعات



الآداب

شفيق جبري

مع البحتري

هذه القصيدة الرائعة للشاعر العربي الكبير شفيق جبري اعدت لتلقى في مهرجان البحتري يوم الثامن والعشرين من ايلول عام ١٩٦١ – ثم لم تلق ولم تنشر . ويسر قلم التحرير أن يقدمها لأول مرة، الى القراء مفتتحاً بها أدب المعرفة ، بعد ان فات جمهور الشاعر الكبير الاستماع اليها تتدفق من على منبر المهرجان .

ما درى الليل ولا الفجر درى ... أي صوت في الفيافي هدرا
أعزيف الجن ما نسمعه ... زمزمت في الرمل حتى ذعرا
أم ضجيج الانس في معترك ... فجر الارض دماً فانفجرا
ما أظن الصوت في هبته ... غير وحي في الليالي خطرا
من بوادي بحترٍ مطلعه ... بين الدنيا تباهي بحترا

* * *

حسبه من طيء ما وهبت … وهبت للعرب نوراً نيراً
فاهتدت بالنور في إدلاجها … تصدع الليل وتزجي السحرا
زحفت والأفق فضفاض الدجى … يملأ الأرض ظلاماً أكدرا
ورفيف المجد في موكبها … يزحم العشر منه معشرا
تحمل العطر الى من نشقت … من قوافيه البيان العطرا

* * *

عصر الشعر على ألبابنا … فشربنا الخمر مما عصرا
روحه منه ومنه دمه … أمن الشعر تراه فطرا
نثر السحر على أنغامه … أشهدت السحر كيف انتثرا
يأسر القلب اذا طاف به … من يفك القلب مما أسرا
لم تكن ألفاظه من أحرف … انما الالفاظ كانت صورا
فاذا استنطق عيناً نطقت … فبدا من سرها ما استترا
مقلة تخفي هواها خدعة … فاذا هو بلفظ ظهرا

* * *

كابد الحب فألفى ورده … صافياً يوماً ويوماً كدرا
يطرح القلب على أشواكه … ومن الأشواك يجني الثمرا
ما يبالي ما جنت لوعته … متع القلب وروى النظرا
من خدود الحب يلقى برحه … ومن الأعين يلقى السهرا
بين كأس ومدام ليله … واذا أضحى بكى واستغفرا
انما العيش صبابات الهوى … أتظن القلب منا حجرا

* * *

جلق ، والله يحمي أرضها … لملمت من حبه ما بعثرا
ملكت منه الهوى غوطتها … وبراه من هواها مابرى

كلما غرد في جنباتها ... بلبل الروض ونـدّى الشجرا
لم يكن إلا غناء شعره ... أضحك العود وأبكى الوترا
فترى الليل على ايقاعه ... من صفاء اللحن صبحاً مسفرا
هذه الشام ! وهذه روضها ... كرمت ترباً وطابت عنصرا

* * *

يهدأ الماء على أنهارها ... فاذا حسّ بضيم زمجرا
لا يغرنك نسيم خلفه ... عاصف ماهب الا عفرا
أعصر تمضي وتأتي أعصر ... وجبال الشام تطوي الأعصرا
أين غارات العدى في ظلها ... مضت الغارات ريحاً صرصرا
طوت الروم على أمجادها ... وطوت تحت ثراها قيصرا !

* * *

خلد الشعر على أفيائها ... من أضاحي العرب ذكراً خيرا
انما الشعر شفاء وهدى ... صاغه الله عزاءً للورى
اسقنيه كلما درتَ به ... يحتري الطعم حتى أسكرا
واذا غنيت منه نغماً ... فابسط الانغام حتى تهدرا
رب بيت في غزال أحور ... كان أحلى من غزال أحورا !

* * *

نبتت في طيء أغراسه ... وسقاهن الوليد الكوثرا
يصف المنظر إن مر به ... فتري عينك ذاك المنظرا
فاذا صور ليثاً خلته ... هم في جنح الدجى أن يزأرا
فسمعت الصوت في غابته ... ولمحت الليث لما كشرا

* * *

ألبس الملك رداه كالسنى ... ماراه الطرف إلا حسرا
يتهادى جعفر في وشيه ... أيعيد الحلم يوماً جعفرا
يعتلي المنبر في خطبته ... فاذا زمجر هز المنبرا
أين عز الملك في عترته ... يملأ الدنيا ضياءً أزهرا
بين خيل وسيوف وقنا ... كتب الله لها أن تنصرا
ما تفادي الروم في معقلهم ... يوم غزو الروم إلا انكدرا
واذا العرب الى الشمس مشوا ... زلزلوا الشمس ورجوا القمرا

* * *

ذهب الملك وأودى جعفر ... أين من هلل أو من كبرا
فانبرى الشعر على آثاره ... فأرى الأعين ما ليس يرى
من قصور سقفوها ذهباً ... وصحون فرشوها مرمرا
ينفح المسك على حصبائها ... خالط المسك عليها العنبرا
واذا الطرف رأى لألاءها ... حسب الليل عليها مقمرا
شمخت في الجو حتى زاحمت ... في أعاليه السحاب المطرا
تحتها الماء يناغي روضها ... نافس الماء عليها الأبحرا
وجنان الخلد في حافاتها ... نفحت ورداً وفاحت زهرا
هكذا الشاعر في ألحانه ... ينفض الأكفان عما غبرا !

* * *

أين كسرى ! أين منه تاجه ... حلم من بين أحلام الكرى
درج الفرس على أعقابهم ... وغدوا من بعد عين أثرا
فتراخت بعدهم « سينية » (١) ... جددت من ملكهم ما اندثرا

---

(١) اشارة الى قصيدة البحتري السينية في وصف ايوان كسرى .

فاستوى كسرى على إيوانه	يتمطى في لباس أخضرا
والمنايا حوله ناشرة	في صفوف الروم موتاً أحمرا
تلمح العين على اطرافه	عسكراً يدفع عنه عسكرا!

* * *

كم جريح يتلظى جرحه	وقتيل جعلوه هدرا
أشهدت الحرب في تدميرها	ما تبالي ما امحى أو دمّرا
فترى الرأفة فيها هزءاً	وترى الرحمة فيها خورا
ضلل الله رجالاً بشروا	بلظاها واستثاروا الذعرا
وأعدوا للورى معرفة	تطحن الخلق وتفني البشرا!

* * *

البطولات وقد غنى بها	بعثت فينا الشباب الأنضرا
تجد العرب على هيجائهم	شربوا الموت وعافوا العمرا
ركبوا اليم وخاضوا هوله	درعاً طوراً وطوراً حسرا
يتبارون الى دفع العدى	وكأن الصيد في جوف الفرا
زجر النوتي في أصحابه	فاستفز اليم لما زجرا
فكأن البحر في ضجتهم	من لهيب النار أضحى سقرا
فترى أسطولهم في زحفه	جبلاً فوق عباب شمرا
واذا اليم طغى في وجهه	دفع الطغيان عنه وجرى
فتراه ساعة مرتفعاً	وتراه ساعة منحدرا
هكذا العرب على أخلاقهم	لايرون الموت درباً وعرا
طبعوا النصر على أسيافهم	وجنوا فوق العوالي الظفرا

* * *

راعه من ملككم ما راعه   حين أعمى الملكُ هذا البصرا

وردوا مـــورد طيش فمضوا   لم يروا بعـــد ورود صدرا

فخلت داراتهم من أهلها   وغـــدا الربع عليهـــا مقفرا

أربع كان حماها معقلاً   أصبحت بعـــد الشقـاق أقبرا

فبكى العرب وقـــد شتتهم   طمع الملكِ على وجه الثرى

قتل الملك قديـــاً جرهماً   فاستطاروا ثم أفنى حمْيرا

* * *

ما نسينـــا تغلباً لما سقى   دمها البدو وروّى الحفرا

فتلاقى الدم والدمع معـــاً   كبد سالت وجفن قطرا

هيجت من قلبه هيجاؤها   فجري القلب أسىً وانفطرا

هاله حقـد على أحشائها   يأكل اليابس والمخضوضرا

انما الحقـد ذعـــاف أصفر   يتنزى فوق وجه أصفرا

يكمد الوجه اذا أخفى الأذى   واذا فش أذاه نضرا

لم تتم تغلب حتى همـــدت   مبج طار شجاها شررا

فتصافى القوم في أحقادهم   وتناسوا من دم ما انهمرا

انمـــا العرب يـــد ملتفة   بيد والشمل محبوك العرى

* * *

ليت في العرب فتى من بحـــتر   يعظ العرب فيبكي الصخرا

ليتـه اليوم على أكنافهم   ليرى من أمرهم ماحيرا

يستفيض الحزن في أكبادنا   مضمراً حيناً وحيناً مظهرا

والشماتات على أسمـــاعنـــا   تملأ السمع صدى مستنكرا

* * *

أترى في خطبنـــا معتـــبراً   فكأني لا أرى معتبرا !

هل أنصفنا البحتري ؟

حصاد المهرجان !.

للدكتور صالح الاشتر

كانت دمشق في الاسبوع الاخير من ايلول الماضي على موعد مع مهرجان البحتري ، ولبى دعوة المجلس الاعلى للفنون والآداب عددمن شعراء العرب وكتابه ليسهموا في تمجيد عبقرية الشاعر العباسي الكبير وتخليده ، وانعقدت في دمشق سوق أدبية (بحترية) كان مقدراً لهـا ان تستمر يوماً آخر ، قبل ان ينتقل المهرجان الى (منبج) مسقط رأس البحتري ، ليشهد بلد البحتري وأهلوه عرس ابنهم الحافل ، غير ان الله شـاء لصوت المدفع ان يفوق صوت الشعر ، فكانت الثورة المظفرة التي انفجرت مع صبيحة التاسع والعشرين من ايلول نهاية للمهرجان وهو لما يزل في اولى امسياته اليتيمة .

ولكن البحتري فاز مع ذلك بالقصائد والدراسات التي أعدهـا الشعراء والكتاب ، وتولى المجلس الاعلى طبعها وتوزيعها على الادباء العاملين في المهرجان ، ومن خلال هذه المجموعة نستطيع ان نقوم حصاد المهرجان لنجيب عن السؤال الذي حددته مجلة «المعرفة» ، هل أنصفنا البحتري ؟

اما الشعر فلم يكن حصاده في المهرجان كبيراً ، وتحت يدي اربع قصائد منه ، جهد اصحابها في ان يسكبوا فيها شيئاً من روح البحتري وموسيقاه ، اولى هذه القصائد رائية للشاعر عادل الغضبان ، السوري الأصل ، الذي يعرف من سحر تماثل دمر مايدفعه إلى التغني بها في مطلع القصيدة قبل ان يحيي الوفود التي اقبلت على دمشق لتسهم في تخليد العبقرية البحترية التي اعطت اطيب العطاء وأسخاه في كل فن شعري :

ذكروا عباقرة البيان فكان في صدر الندي البحتري العبقري
إن الذي أجرى النبوغ جداولاً خص (الوليد) بنبعه المتفجر
أأبا عبادة أي فن لست في مضماره بالفارس المتصدر

وثانية القصائد ميمية للشاعر حامد حسن ، وهو شاعر مدرسي يؤثر السير على خط تقليدي لايتزحزح عنه ، وأشهد انه استطاع في قصيدته ان يصهر خلاصة سيرة البحتري وينقل إليها جملة من الصور المختارة من ديوان البحتري ببعض ألفاظها ، وقد هزت هذه الصور بما لها من أصداء في ضمير المستمعين وذوقهم جمهور المحتفلين فصفقوا لها :

طلع الربيع الطلق مختالاً بها متبسماً ... ويكاد أن يتكلما
هل أتقن الرسام في « الايوان » ما أتقنت من صور البيان وأحكما
روم وفرس والدرفس وربه والموت يبتدر الكمي المعلما
والقصر معجزة الثرى شمخت به عمد فطارا إلى المجرة سلما
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه حتى الحمام يخاف أن يترنما
وكأن بركته ودجلة توأم غيران ذو حسد ينافس توأما
كيف السماء تطامنت وتركبت فيها وكيف نثرت فيها الأنجما
والفاتك العجلان كيف تركته يطأ الخليفة والحمى متفحما
لو كان سيف ابي عبادة حاضراً صبغ البسيطة بالنجيع وعندما

فكل لفظة من هذا الشعر يمكن ردها إلى موضعها من ديوان البحتري ..

والقصيدة الثالثة في حصاد المهرجان اشد إغراقاً في المدرسية (الكلاسيكية) للشاعر محمود غنيم ، والمطلع وحده يصور إلى اي مدى بلغ طغيان روح المحافظة عند هذا الشاعر :

حين غنت دمشق شعر الوليد قالت الطير : يادمشق أعيدي !!

وكأن الشاعر نفسه أحس بانهيار أجنحته وعجزها عن التحليق بمثل هذا النظم الخامد ، فاتخذ من الحملة على حركة الشعر الجديد لهباً يشيع في الجسم الميت بعض أنفاس الحياة :

هل درى البحتري أن أناساً   بعده شوهوا جمـال القصيد
قد جزينا على ارتـكاب الخطايا   بأناس جاءوا بشعر جديد
زعموه حراً ، ورق الجواري   بعض أوصافـه وذل العبيد
عصبـة تحسب القوافي غلاً   وتعد الأوزان بعض القيود
لهـم الله ، كل حي لديهـم   مظهر من مظـاهر التجديد

و كذلك يلتقي الشاعر مع عباس محمود العقاد وصالح جودت وعزيز اباظة وكل من يعد الحركة الشعرية التجديدية لوناً من الوان العجز والعقم والعي ، وتلك حملةطالما لا أعود اليوم إلى تفنيدها ، وكنت كتبت يومذاك مقالة ضافية قلت فيها : « انا لا أتردد — كما لايتردد كل مخلص لتراث أمتنا المجيد — في ان اقف في صف اعداء الشعر الجديد لو كان هذا الشعر كله وليد العجز والشعوبية والسخف والتقليد الأعمى للآداب الغربية ، غير اني ارى طاقات من الزهر تموج نضارة وحياة وأصالة ، تضفرها أيد قادرة موهوبـة ، فكيف يجيز منصف لنفسه ان يدوسها بأقدامه ويسد أنفه هرباً من أريجها وعبيرها ! ولئن فعل فلن يستطيع ان يحبس الآخرين عن ان يتنسموا طيب نشرها فيقبلوا عليها ، وفي ذلك حكم حاسم رهيب على ضمور حسه الجمالي وتخلفه من نحو ، وعلى تجنيه وظلمه وتحامله من نحو آخر ... »

اما القصيدة الرابعة فهي للشاعر العوضي الوكيل ، وقد ربط فيها بين سحر فن البحتري وسحر بلاده الشامية :

على شعره وسم الشآم وسحره   أفانين من حسن تحير رائيها
إذا وصفت حسن الربيع شهدته   وأزهاره قد فتحتها قوافيـها
أليس بها من جنتيه مشابـه   وما أصدق الأشعار وصفاً وتشبيها

وهذه الصلة الخاطفة التي يربط بها الشاعر بين البحتري والشام تلمس ظاهرة كبيرة اشار اليها قديماً الثعالبي في « يتيمة الدهر » ووسع خطوطها حديثاً خليل مردم بك في « شعراء الشام » .

هذا كل حصاد مهرجان البحتري من الشعر ، جهد أصحابه — كما نرى — كل جهد في ان يستوحوا من روائع البحتري وينقلوا الى قصائدهم قطرات من ذوب ألفاظـه الساحرة وموسيقاه العالية وديباجته الأصيلة ... فأصابوا حظوظاً من التوفيق ، على أنه لايحط بهم ان يسقطوا دون اللحاق بغبار البحتري ، فهم ينافسون طاقة شعرية لايكاد تاريخ أدب العرب كله يعرف مثيلا لها في غير البحتري واثنين أو ثلاثة من الفحول !

اما الدراسات التي يحويها حصاد المهرجان فهي تتناول البحتري في عصره وحياته وشخصيته وجوانب من فنه ..

قدري العمر درس عصر البحتري وجهد في تقديم صورة لذلك العصر المضطرب من خلال ماتقله المؤرخون من احداث القرن الهجري الثالث، وما تذكره كتب الادب القديمة عن ذلك القرن ، وفي اعتقادي ان دراسة عصر البحتري تبدأ بعد رحلة متعمقة في ثقافة القرن الثالث كله وقراءة صابرة واعية لديوان البحتري وتجلية للأحداث الكبرى التي نجد أصداء لها في الديوان نفسه ، وقد أشرت غير مرة إلى غنى المضمون التاريخي في شعر البحتري ، ففي ديوانه تاريخ حافل مفصل لـكل ماشهده القرن الثالث من كبار الاحداث وصغارها ، في كل طرف من اطراف الامبراطورية العباسية المتدة الارجاء ، وفيه صورة عيانية صادقة لحضارة القرن ومنازعه الفكرية والفنية والاجتماعية ، كما رآها وخبرها شاعر نبيه ذكي دقيق الملاحظة ، عاش حياته المديدة في قلب القصور الخلافية ببغداد ، وذاق كل ما كانت تضمه من ألوان البذخ والترف ، ولهذا يعد المستشرقون ديوان البحتري من المصادر الاساسية لدراسة تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الثالث .

لو ان قدري العمر حاول ان يستخلص صورة لعصر البحتري من داخل ديوانه لجاء بحثه اكثر استيفاء وأشد صلة وارتباطاً بشاعر المهرجان .

وحياة البحتري عرضها اثنان : اولها الدكتور سامي الدهان وثانيها الدكتور صالح الاشتر .. وانا مضطر إلى ان اهمل النظر في دراسة الثاني والاقتصار على ما كتبه الاول .

اول مايطالعك من دراسة الدكتور الدهان ذلك الرصيد البياني ، والصور الانشائية كقوله : « فسالت على أطراف دجلة قوافي البحتري نشاوى تغني أعذب الشعر ! » او مثل قوله : « وعلى القوافي مشى البحتري إلى الخلود !! » غير اننا اذا قبلنا نصيحة الجاحظ « أنذركم حلاوة الألفاظ » وسددنا آذاننا عن إغراء الصياغة وسحر الـكلمات ، ونظرنا إلى ماوراء ذلك وجدنا في أيدينا دراسة جديرة بأن نقف عند نقط كثيرة فيها ، ولكننا سنكتفي بالوقوف عند بعضها خشية الاطالة .

يبدو لي ان الدكتور الدهان ، لعمله الدائم في تحقيق المخطوطات القديمة ، وصلت يده إلى مصادر عن حياة البحتري لاتصل إليها كل يد ، ولهذا ينبغي لي ان احترس في مناقشة مايبدو لعيني — في حدود ما أعرف عن البحتري — خطأ او كالخطأ ! فالباحث الفاضل ينقل بيتي البحتري المعروفين :

جدي الذي رفع الأذان بمنبج وأقام فيها قبلة الصلوات

وأبي أبوحيان قائد طيِّ للروم تحت لوائه المنصات

فيقرر بكل بساطة ان «الوليد بن عبيد بن يحيى.. البحتري.. » كان جده (يحيى) مؤذناً « يتولى رفع الأذان إماماً بمنبج ، يقيم في مسجدها الصلوات ، وكان أبوه (عبيد) « قائد الفرسان في حرب الروم الخ ... »

وعلى هذا القياس العجيب يمكن لاي باحث في الادب اذا قرأ بيت مهيار الديلمي مثلا :

وأبي كسرى على إيوانه أين في النـاس أب مثل أبي ؟

ان يقرر دون تردد ان والد مهيار الشاعر المتوفى في القرن الخامس هو كسرى الملك الساساني الذي عاش قبل الاسلام ! ومن البدهي ان يرفض التحقيق العلمي هذا القيـاس ، كما يرفض مايقرره الدكتور الدهان من ان والد البحتري كان قائداً للفرسان في حرب الروم ، لان الاخبار المنقولة عن والد البحتري تصوره رجلا خاملا لاشأن له ، وابو العلاء المعري ينقل عن بعض من حدثه ان « البحتري كان يركب برذوناً له ، وأبوه يمشي قدامه ، فاذا دخل البحتري على بعض من يقصده وقف أبوه على بابه ، قابضاً عنان دابته إلى ان يخرج فيركب ويمضي ! » ومثل هذه الصورة الذليلة لوالد البحتري لاتؤهله لقيادة الفرسان في حرب الروم أو غيرهم .. واظن ان الدكتور الدهان يتفق معنا — بعد هذا — على ان المراد بجد البحتري وأبيه في بيتيه المتقدمين ليس يحيى وعبيداً ، بل اجداده وآباؤه البحتريون البعداء .

هذه واحدة ..

ونقطة اخرى مثلها : ينقل الدكتور الدهـان عن الكتب التي ترجمت للبحتري فيقول : « فقالوا انه مشى الى حمص في صدر الشباب يمدح القائد العربي أبا سعيد الثغري ، وعنده القي أبا تمام ، فأنشده ، وكان اللقاء عظيما الخ .. »

كيف جمع الباحث الفاضل بين حمص والثغري وأبي تمام والبحتري في واحد ، ومن أين استقى اخباره .

ان التحقيق في لقـاء البحتري الاول بأبي تمام مبسوط بسطا علمياً وافياً يستنزف جميع المصادر المطبوعة والمخطوطة المنقولة عن الصولي وأبي الفرج الاصفهاني وغيرهما ، في الصفحتين ٦٣و٦٤ من كتاب(أخبار البحتري) الذي نشرناه في جملة مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.. فلا حاجة لاثارته مرة أخرى .. أما اللقاء في حمص بين الشاعرين الطائيين فله خبر آخر ينقله الصولي

عن أبي الفياض سوار بن أبي شراعة ، ونصه في الصفحتين ٥٥ و ٥٦ من الكتاب نفسه، والدكتور الدهان جدير بأن يتجنب مثل هذا السهو ، لأن كتاب (أخبار البحتري) الذي يحوي النصوص والتحقيق من طبع المجمع ، وهو عضو فيه ، وهو يتصدى للبحث في حياة رجل يضم الكتاب أوفى مجموعة من أخباره . .

وفي بحث الدكتور الدهان ثغرة ملحوظة ، فحياة البحتري لم تعرض عرضاً منهجياً يقوم على أصول الدراسة الحديثة ، والمرحلة الأخيرة منها مهملة ، أعني تلك الفترة التي قضاها الشاعر العباسي في ظلال الطولونيين في الشام قبل ان ينقلب الى منبج ليموت فيها ، وهي مرحلة غنية بالعطاء ، ولاتزال اكثر قصائد البحتري في الطولونيين ورجال دولتهم مخطوطة الى اليوم ، وكنت نشرت قبل أكثر من سنتين في مجلة المجمع العلمي بعضاً منها . .

لعل الدكتور الدهان اكتفى بتلك الاشارة الخاطفة الى المرحلة الطولونيه لكي يدع لمن يتولى الكلام على «البحتري في دمشق » في المهرجان شيئاً يقوله !

وانا مضطر ايضا لاهمال النظر في بحث الدكتور صالح الاشتر عن « البحتري في دمشق » لسبب لاينكره علي منصف !

* * *

في حصاد المهرجان دراسة لشخصية البحتري قدمها الاديب الكبير أحمد حسن الزيات فسحر بها الآذان برفيع بيانه واشراق اسلوبه ، ولكني مضطر الى مخالفة الباحث الكبير في أصل المخطط الذي بنى عليه هيكل موضوعه ، فهو قد عرض لنا جملة صالحة من الاخبار التي يتناقلها الصولي والاصفهاني عن البحتري ، وربط بينها واستخلص منها شخصية البحتري ، ولو كان الامر الي لآثرت أن أرجع الى الديوان ، مصدرنا الاول ، ألتمس في صفحاته الصورة الحقيقية لشخصية البحتري

الديوان يعكس لنا صورة واضحة المعالم لشخصية فنان فطري مطبوع ؛ شخصية عميقة الاحساس بانسانيتها ، تكره العنف والدماء وتؤثر السلم والعافية ؛ شخصية مناضلة كادحة بنت صاحبها في وسط شحيح يابس ، فظل يجهد طوال عمره حتى أورقت له الصحراء ، وتحققت له آماله في الغنى والمجد ؛ شخصية مستوفزة الحس الجمالي ، تدفع بصاحبها الى تتبع الجمال في كل عين مكحولة وكل خد أحمر .. شخصية عجيبة المرونة والذكاء ، استطاعت أن تنجو بآمالها وماجمعت في يديها من دسائس عصر يغص بالمصادرات والمؤامرات ، ويكيد فيه الولد لابيه (المنتصر لابيه المتوكل) وتغدر الأم بابنها (قبيحة بولدها المعتز) .

ونقطة أخرى أخالف فيها استاذنا الزيات : فهو يرى أن البحتري لم يكن يحب المرأة لأنه لم يكن يحترم جنسها ولايثق به لقوله :

ولعمري ماالعجز عندي الا أن تبيت الرجال تبكي النساء !

وانا أرى ان الرجل ـ أي رجل ـ قد يغلبه قلبه على عقله ، فيحب امرأة ما أصدق الحب وأعنفه ، ويتلهف اليها دون ان يحترمها ، وذلك ان الحب غير الاحترام . .

* * *

ونصل الى الدراسات التي تناولت جوانب فنية من أدب البحتري ، وهي أبحاث بذل أصحابها فيها جهوداً طيبة ، ليعينوا على تجلية عبقرية البحتري ويكشفوا عن خصائص فنه الاصيل .

في طليعة هذه الدراسات بحثان « جامعيان » يعرضان لموقف النقاد من أدب البحتري والوقوف على الاطلال بين الادبين العربي والفارسي .

البحث الاول قدمه الدكتور حسين نصار من جامعة القاهرة وانتهى فيه الى هذه الحقيقة المرة : « النقاد القدماء فطنوا الى جميع الجوانب التي تستحق الانتباه من شعر البحتري ، ثم جاء المحدثون فلم يستطيعوا ان يضيفوا جديداً ، فاستعاروا اقوال القدماء وقدموها بأثواب جديدة » وبذلك يدلل الباحث الجامعي في منهجية كاملة وجرأة في قول الحق ، على ان الاول لم يترك للآخر شيئاً ، او ان المتأخر عجز عن ان يضيف جديداً على الارث الذي انحدر اليه من المتقدم .

والبحث الثاني في الدراسة المقارنة بين الأدبين العربي والفارسي قدمه الدكتور محمد غنيمي هلال من جامعة القاهرة أيضاً ، وخلاصة رأيه أن الوقوف على الآثار قد تطور عن الوقوف على الأطلال ، فما الآثار سوى أطلال في عهد حضارة وعمران ، وفيهما كليهما طابع عاطفي » ودليله على هذا التطور تلك المقارنة التي عقدها البحتري في قصيدته السينية المشهورة بين وقوفه على الايوان ووقوفه على اطلال العرب :

حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس ملس

ومساع لولا المحاباة مني لم تطقها مسعاة عنس وعبس

غير ان النكهة الجديدة التي نذوقها في بحث الدكتور غنيمي مردها الى النصوص الفارسية التي ترجمها وربط بينها وبين قصيدة البحتري في وصف الايوان ، فالشاعر الفارسي خاقاني يزور في القرن السادس الهجري اطلال قصر المدائن ، ويقف عند شرفات الايوان الذي وقف قبل ثلاثة قرون عنده البحتري ، ليقول بلسان الايوان :

« نحن كنا بلاط العدل ، ثم عرانا جور الدهر

أي خذلان يتعرض له إذن قصر الظالمين
هذا هو القصر الذي كان فيه ملك بابل خادماً
وشاه تركستان غلاماً .. »

والمقارنة بين وقفة كل من الشاعرين ومافالاه لطيفة حقاً ، وتعد من أطرف مابضمه حصاد المهرجان .

وتجيء بعد ذلك دراستان لأديبين انفقا ردحاً من حياتيهما في خدمة أدب البحتري وهما الدكتور محمد صبري وله كتاب في البحتري في سلسلة (الشوامخ) والشاعر حسن كامل الصيرفي الذي يعمل منذ عشر سنوات في تحقيق ديوان البحتري ، والمأمول ان يصدر قريباً عن دار المعارف بالقاهرة في سلسلة (ذخائر العرب) .

موضوع الدكتور صبري « المناسبات في شعر البحتري » وقد كرر الباحث فيه ماسبق الى قوله في كتابه وأضاف الى ذلك ان دراسة الشعر السياسي في ديوان البحتري مستحيلة« لسبب بسيط وهو أن تاريخ العصر كما كتبه الطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم مشوش ناقص لا دقة فيه ، يعنى بالتفاصيل التافهة ويهمل الحوادث الهامة أحياناً .. » اما انا فأعتقد ان الدراسة الجدية الصابرة في ديوان الشاعر كفيلة بأن تكشف لنا الباحث مالم يستطع المؤرخون ان يكشفوا عنه .

اما موضوع الشاعر الصيرفي فهو « المعاني في شعر البحتري » وكأن الباحث مؤمن بتفوق البحتري في الصياغة دون المعاني فتحدث في دراسته على الوان الصياغة ، وقرر أن « الزمن لو تأخر بالبحتري هذه القرون الأحد عشر لكان له في لونين من الفنون الحديثة مكان أي مكان» وهو يعني بهذين اللونين : الموسيقى والتصوير .

كنت انتظر من الشاعر الصيرفي ان يجهر برأي في دعوى النقد القديم بأن معاني البحتري سطحية قريبة لاغوص فيها ولاعمق ، او كنت انتظر منه ان يكرر ماقاله الدكتور صبري — استطراداً لأنه ليس من صلب بحثه — من ان البحتري يملك معاني عميقة لم يلتفت إليها الأكثرون، لأنهم « خدعوا بسهولة شعره وألهتهم تلك السهولة ومايطرد فيهـا من صور ونغم عن معانيه العميقة ، فشعر البحتري كالغدير الصافي ، سطحه في عمقه ، وعمقه في سطحه » غير ان الصيرفي آثر — فيما يبدو — ان يكون من هؤلاء «الاكثرين» الذين لم يلتفتوا الى ذلك .

وفي حصاد المهرجان من الدراسات الفنية ايضاً بحث عن « الوصف عنـد البحتري » للأديب احمد الجندي ، فيه محاولة شخصية لوضع الاحكام التقليدية المتناقلة عن اجادة البحتري في الوصف على محك النقد والمقارنة ، وقد وصل الباحث بذلك الى وجوب الاقتصاد في الثناء على

إجادة الوصف عنـد البحتري « لسبب هـام في نظره ذلك ان وصف البحتري فرع لأصل هو الأساس عند الشاعر ، وبه بز الشعراء والنظامين ، وهو الاسلوب أو الديباجة .. الخ ... »

والـكلام على « ديباجة البحتري » كانت من نصيب الدكتور جودة الركابي في المهرجان، وقد آثر الدكتور الركابي أن يستعيض عن التحليل الفني للعناصر التي تكون ديباجة البحتري الى تعريف الديباجة بمثل هذه الصورة البيانية : « نسج عجيب يتجلى فيه الهام الشعراء محبوكاً كخيوط من الذهب والحرير ، لا تـكاد تستطيع أن تتبين مكان لحمتهـا وسداها » وأنا أوثر أن يتجه الباحث عن سر ديباجة البحتري الى ملاحظة الركيزتين الكبريين في صيـاغة الشاعر وهما التصوير والموسيقى ، فالبحتري — كما قلت مرة — رسام موهوب ترسم ريشته صوراً بارعة الوصف، وهو فنان ذو ذوق موسيقي تام ، في شعره دبيب الحياة وأصوات وايقـاعات تسحر الآذان وتشق سبيلها الى القلوب ، وسر هذه الموسيقى البحترية عندي هو احساس الشاعر المعجز بروح كل لفظة وبما فيها من طاقة ايحائية ، وتذوقه العبقري لما في جوف كل لفظة من شحنة موسيقية نفسية عميقة ، وبراعته في تلوين جمله السهلة التركيب تلويناً عاطفياً معبراً ، فالتصوير والموسيقى معاً يمنحان شعر البحتري تلك الديباجة (المخملية) ويسكبان في أسلوبه عصيراً سحريـاً يسميه الآمدي : « الماء والرونق » .

وفي خاتمة الدراسات للجوانب الفنية من أدب البحتري تذكر بحثاً عن (المرأة والغزل في شعر البحتري) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد وصلت فيه الى نتائج أراها من البداهة بحيث تفقد كل قيمة ، مثل ملاحظتها بأن البحتري في غزله « يقرن الساقي كثيراً بالخمر » ! فاذا لم يقرن ساقي الخمرة بالخمرة فبأي شيء تقرنه ؟

ان وقفة جدية عند مطالع القصائد الغزلية تكشف لنا عن اعمق اسرار قلب هذا الشاعر الذي ظل حياته كلها يلوب في دروب الحسن وراء سحر العيون وورد الخدود ، يشوقه جمال المذكر كما يروقه جمال المؤنث ، الى اليوم الذي انطفـأت في عينيه آخر ومضات الغزل عن شيخوخة قاربت الثمانين !

* * *

وبعد ، فهذا حصاد مهرجان البحتري كله ، فهل نجد فيه ما ينصف عبقرية الشاعر العباسي الكبير ويوفيه حقه من التمجيد والتخليد في عرس ذكراه .

اذا لم نظلم الذين دعاهم المجلس الاعلى للفنون والآداب الى الـكلام في مهرجان البحتري

قلنا انهم بذلوا كل جهدهم ، في حدود المهمة التي ندبوا لها ، فحللوا عبقرية أبي عبادة وأذاعوا فضله وأكدوا خلوده في الضمير العربي عبر الأجيال المسحورة بعذب موسيقاه وألحانه وديباجته..

ولكننا اذا اردنا ان تنصف البحتري حقاً فطريق تخليده غير هذه الطريق التي سلكها المجلس الأعلى من البداية الى النهاية !

ان ديوان البحتري لم يحظ حتى اليوم بطبعة علمية كاملة محققة ، والطبعات الثلاث المتداولة محرفة ناقصة مشوهة ، وكل دراسة تصدر عن هذه الطبعات تظل ناقصة مشوهة ، ولن يستطيع البحتري أن يفوز بدراسات شاملة متعمقة لحياته وشخصيته وجوانب فنه قبل أن يرى ديوانه الكامل النور ..

لو كان المجلس الأعلى يؤثر العمل الجدي الصامت الدؤوب لتم له انصاف البحتري ، ذلك الانصاف الحق الذي لا تموت ذكراه مع انطفاء شموع المهرجان وهدوء الضجة وانصراف الناس..

فهل نطمع بعد اليوم في أن يهتدي المجلس الأعلى الى الاسلوب القويم في تمجيد العبقريات العربية وتخليدها ، فلا يضل الطريق مرة أخرى.



معركة اليمين واليسار في الشعر العربي

بقلم : نزار قباني

أتساءل ، وملف قضية الشعر الحديث بين يدي ، هل يحق لي ان امد اصابعي الى هذا الهرم المنحوت من حجارة الأعين ، ومن ورق الورد ورفيف الاحلام .

فأنا ، كشاعر ، جزء من القضية التي كلفت النظر فيها . فكيف ألبس ثوب القاضي وثوب المتهم في آن واحد ؟ كيف افصل في معركة انا بعض وهجها ودخانها .

هل أستطيع ان اكون موضوعياً ازاء موضوع اشتبك بلحمي وأنسجتي كما تشتبك خيوط كرة الصوف بين يدي قطة لاهية ...

ان الموضوعية المطلقة في الأدب شيء مستحيل . ولا يمكنني ابداً أن أتصور الناقد انبوباً في مختبر ، أوعدسة في مجهر لا تنفعل بما ينطبع عليها من خطوط وظلال . لا بد لنا ان نحب أو ان نكره ، ان نقبل هذه اللوحة أو ان نرفضها ، ان نبارك هذه القصيدة أو ان نلعنها . أما الوقوف في منتصف الطريق ، كأجزاء سيارة مفككة ، مختبئين وراء قناع

موضوعيتنا فهو الغاء لانسانيتنا وحرية اختيارنا ، وهبوط بنا الى مستوى الحجارة والطحالب..

وانا في هذا البحث عن الشعر الحديث ارفض ان اصبح حجراً او طحلباً . ارفض ان اكون انبوباً في مختبر لايتذوق نكهـــة القصائد ولا يشم رائحتها . ارفض ان ابقى في (المنطقة الحرام) التي لاتعرف ان تحب .. ولا تعرف ان تكره ..

●

موضوعي هو معركة اليمين واليسار في الشعر العربي . واحتكاك اليمين باليسار امر حتمي في كل مجتمع صحيح البنيـــة ومعافى . المجتمع المريض وحده هو الذي لاتشتبك كرياته الحمراء والبيضاء في صراع شريف من اجل الحقيقة .

ماهو اليمين في شعرنا المعاصر ومن هم اليمينيون ؟

اليمين هو الجانب الوقور الهادئ الذي يؤمن بقداسة القديم ، ويقيم له الطقوس ويحرق له البخور . انه الجانب الذي ارتبط ذهنياً ونفسيا ووراثياً بنماذج من القول والتعبير يعتبرها نهائية وصالحة لكل زمان ومكان ، ويرفض اي تعديل لها اومساس بها .

واليمينيون من شعرائنا هم تلك الفئة التي لاتزال ترى في « المعلقة » وفي « القصيدة العصماء » ذروة الكمال الأدبي وغاية الغايات .

والقصيدة لديهم هي ذلك الوعاء التاريخي الذي يتسع لكل مايسكب فيه ، والثوب الجاهز لكل المقامات ولكل الهامات . وهي لديهم قدر محتوم لاتملك له رداً ولا دفعا .

في مواجهة القديم المتعقب لحولياته والفياته ، يقف جيل اليسار بكل طفولته ونزقــه وجنونه . انه جيل مفتوح الرئتين للهواء النظيف ، مبهور بهذه التيارات الفكرية الجديدة تهب عليه من كل مكان فتعلمه ان يثور ، وان يرفض ، وان يحفر باظافره قدراً جديداً .

انه جيل يقرأ التاريخ ولكنه يرفض ان يبتلعه ضريح التاريخ .

هندسة القصيدة العربيـة

جيل اليسار يعتقد ان القصيدة التقليدية كما ورثناها باغراضها المعروفة وابياتها الملتصقــة ببعضها التصاقاً صنعياً كقطع الفسيفساء هي الى الزخرف والنقش اقرب منها الى العمل الأدبي المتماسك الملتحم كقطعة النسيج . كما ان اسلوب بنائها يشابه بناء القلاع في القرون الوسطى .. مرمر .. ورخام .. وشموخ اعمدة . اما القصيدة الحديثة فهي اشبه بديكور حجرة صغيرة وزعت مقاعدها ولوحاتها واوانيها بشكل ربما لايوحي بالثراء الفاحش ولكنه يوحي بالدفء والالفة .

القصيدة التقليدية لون من الريبورتاج السريع يجمع فيه الشاعر كل مايخطر بباله من شؤون الحب والحياة والموت والسياسة والحكمة والاخلاق والدين . كل هـذا يعرضه الشاعر بخطوط متوازية لاتلتقي ابداً .

القصيدة التقليدية مجموعة احجار ملونة مرمية على بساط .. تستطيع ان تزحزح اي حجر منها الى اية جهة تريد . ومع ذلك تبقى الأحجار احجاراً .. والقصيدة قصيدة ..

هندسة القصيدة التقليدية هندسة مسطحة تعتمد على الخطوط الأفقية وعلى التقابل والتناظر في حين ان هندسة القصيدة الأوروبية هندسة فراغية تعتمد على البعد الثالث .فالبيت في القصيدة الأوروبية ليس عالماً قائماً بذاته كما في القصيدة العربية .انه خلية حية تعيش بين مجموعة خلايا في كيان عضوي واحد ،لذلك كان حذف بيت في القصيدة الأوربية معناه تعطيل خلية عن اداء وظيفتها .

والقصيدة الأوروبية بعد ذلك تنمو نمواً داخلياً متدرجاً حتى تصل الى نقطة التجمع الاخيرة ، كما تصب الروافد الصغيرة في النهر الكبير ، وكما تأخذ النغمات بأذرع بعضها لتشكل السمفونية الهادرة .

تخطيط القصيدة العربية

ان القصيدة العربية ليس لها مخطط . والشاعر العربي هو صياد مصادفات من الطراز الاول .. فهو ينتقل من وصف سيفه .. الى شعر حبيبته .. ومن سرج حصانه .. الى حضن الخليفة بخفة بهلوان .. وما دامت القافية مواتية ، والمنبر مريحاً فكل موضوع هو موضوعه .. وكل ميدان هو فارسه .. من حطين .. الى اليرموك .. الى القدس .. الى الجزائر .. الى آخر هذا الفيلم الاخباري الذي يعرضه علينا شعراء اليمين كما تعرض على الجمهور البسيط افلام رعاة البقر ، فلا تتجاوز الاثارة سطح جلده .

في هذه النقطة بالذات يتفوق اليمين على اليسار او هكذا يخيل الينا . فالفخامة والجزالة وتساقط الحروف العربية وتكسرها يحقق لها نجاحاً منبرياً اكيداً لأن جمهورنا ورث مع ماورث غريزة التطريب وحبه الموسيقى مرتبط تاريخياً بالآلات ذات الوتر الواحد او بالأدوار الشرقية التي تعتمد على تكرار النغمة الواحدة بشكل دوري .

أما الشاعر العربي الحديث فلا يحاول استعمال طريقة التخدير الموضعي هذه ولايلجأ اليها ان اللغة لديه ليست غاية بحد ذاتها ولكنها مفاتيح الى عوالم ارحب وابعد . وقيمة الحروف تكون بقدر ماتثيره حولها من رؤى وظلال وتبعثه من ايحاءات .

ان البناء الموسيقي في قصيدة الشاعر الحديث مركب من فلذات نغمية تعـلو وتخف ، وتصطدم وتفترق،وترق وتقسو ، وتهدأ وتنفعل . ويتولد من هذه الحركة الدائمة لذرات القصيدة موسيقى داخلية هي منها الى البناء السمفوني اقرب الى دقات الساعة الرتيبة .

ان ثورة اليسار على ناحية الشكل في القصيده التقليدية لاتعني ابداً رغبة اليساريين ، او المعتدلين منهم على الأقل ، في الغاء هذا الشكل او حذفه . ان وعيهم التاريخي والجمالي بطبيعة الشعر عامة وبطبيعة القصيدة العربية خاصة وظروف نشأتها وتكونها، يمنعهم من التطرف والمغالاة.

انهم يؤمنون ان الانسان ، هو الذي يصنع قوالبه وليست القوالب هي التي تصنع الانسان، وليس في الفن اشكال نهائية او ابدية. فالأثواب الجاهزة لاتطيقها اجسام الموهوبين وكل موهوب يختار الثوب الذي يستريح فيه .

انسان اليسار يرفض ان يضع افكاره في قوالب كلسية جاهزة وهو يرى ان البيان والبديع والطباق والجناس وما يتصل بها من فسيفساء لغوية ليست سوى (حذاء صيني) اعاق الفكر العربي قروناً عن النمو والحركة .

مأساة القافية

ان اليسار لايطالب ابداً بالغاء الأثواب الفضفاضة في شعرنا . لأنه يعرف ان التخلي عن اثوابنا القديمة معناه العري الأدبي التام . ولكنه يطالب بتعديل هذه الاثواب بشكل يجعلها عصرية .. وعملية .. ومريحة ..

اني استعمل هنا كلمة « مريحة » لأنها الكلمة الأصلح لما اريد التعبير عنه . فلا شاعر عربي – مهما كان مجيداً – يستطيع ان يدعي ان جميع قوافيه مستريحة وانه دائماً في احسن حالاته .

فالقافية ، برغم كل سحرها واثارتها – نهاية يقف عندها خيال الشاعر لاهثا . انها اللافتة الحمراء التي تصرخ بالشاعر « قف » حين يكون في ذروة اندفاعه وانسيابه . فتقطع انفاسه وتسكب الثلج على وقوده المشتعل وتضطره الى بدء الشوط من جديد . .

والبدء من جديد معناه الدخول – بعد الصدمة – في مرحلة اليقظة اي مرحلة النثر. وبتكرر الصدمات تصبح ابيات القصيدة عوالم نائية وطوابق مستقلة في بناية شاهقة .

هذه الطريقة في عمارة القصيدة العربية جعلتهـا قصيدة بيت واحد ، نستعمله في حديثنا حكمة مرسلة ومثلا سائرا ونعلقه على جدران بيوتنا مكتوبا بماء الذهب .

وليس « بيت القصيد » كما عرفناه سوى ذلك البيت من القصيدة الذي كتبه الشاعر وهو في لحظة انسيابه الحر .. اي قبل اصطدامه بأي حاجز مصطنع .

وربما كانت ظروف الشاعر العربي القديم وحياته غير المستقرة وعدم توفر ادوات الكتابة بين يديه هي التي جعلت فنه مخزونا في طرف لسانه واضطرته الى الايجاز والتركيز وتضمين فلسفته وعواطفه ونظراته الى الوجود في بيت شعر مكثف يسهل حفظه وروايته .

نحو معادلات موسيقية جديدة للشعر العربي

الشعر هندسة حروف وأصوات ورؤى نعمر بها في نفوس الآخرين عالماً يشابه عالمنا الداخلي .

والشعراء مهندسون لكل واحد منهم طريقته وأسلوبه في بناء الحروف وتعميرها . فالحجر متوفر للجميع ولكن القلة من الموهوبين هي التي تعرف اين تضعه وكيف تضعه .

وبالرغم من اعترافنا بوجود قواعد اساسية للفن الهندسي ، فان حرية المهندس تبقى لا حدود لها ، وهي التي تتيح له في كل لحظة ان يحذف ، ويضيف ويعدل في تفاصيل مخططه حتى يقتنع بكماله الفني .

معنى هذا ان هندسة القصيدة ، اي وضع سلمها الموسيقي ، عمل مرتبط اعمق الارتباط بتجربة الشاعر ، ومهارته ، ومعرفته بكيمياء اللفظة . ومعنى هذا ايضا ان موسيقى الشعر ليست مخطوطة كلاسيكية محفوظة في متحف لا يسمح لنا بلمسها او باخراجها اخراجاً جديداً أو بتوزيع جديد.

ان بحور الشعر العربي الستة عشر ، بتعدد قراراتها وتفاوت نغماتها هي ثروة موسيقية ثمينة بين ايدينا **وبامكاننا ان نتخذها نقطة انطلاق لكتابة معادلات موسيقية جديدة في شعرنا .**

ان ذوقنا الموسيقي تطور ونما وتأثر الى حد بعيد بالبناء السمفوني المركب في الموسيقى الاوروبية، وبالاصوات الحادة المتمزقة التي نسمعها كل يوم كموسيقى الجاز والبوق والصنوج النحاسية

لقد تجاوزنا مرحلة (ربابة الراعي) بايقاعها البدائي البسيط الى مرحلة البناء الموسيقي المتداخل واتت في حياتنا مرحلة (القصيدة الصماء) بابياتها المائة تجلد اعصابنا بقواف نحاسية مرصوصة كأسنان المشط .. نعرفها قبل ان نعرفها .

ليس الشعر صنوجا تضرب في حلقة ذكر ولا ترتيلا مريضا يقرأ على الاضرحة . ولكنه همس خافت يتجاوز الاذن الخارجية ليختلط بلحمنا .. وأعصابنا .. ووجودنا وانسانيتنا .

الشعر العربي الحديث يسمع بالعين ، اي انه موسيقى مقروءة وهذا دليل آخر على دخوله مرحلة التحضير .

اليسار ولغة الشعر

الشعر هو همس الانسان للانسان . هذه هي حقيقة الشعر منذ هوميروس الى فاليري . اذن فالشعر اداة نقل راقية بين الهامس والمهموس له . اداة تصلنا بالآخرين وتوحدنا معهم .

ووسيلة الشعر الى الناس هي اللغة ، وهذا يقودنا الى طرح السؤال التالي : هل هناك لغة شعرية ؟ هل هناك حدود بين لغة نستعملها لكتابة القصيدة.. ولغة نستعملها لكتابة الرواية او المقالة؟

أنا شخصياً أرفض تقسيم اللغة الى مناطق جغرافية ومناخات . **فاللغة هي هواء مشاع يتنفسه الجميع ونقد موحد مطروح في كل يد .**

واذا كانت اللغة هي الحجارة التي نبني بها افكارنا فان الشعر هو ذلك الفن الهندسي الذي يحول الحجارة الى قصور كقصور الف ليلة وليلة .

كل الكلمات بلا استثناء هي موضوع للشعر . والفن الشعري هو ذلك الساحر الذي يحول النحاس الى ذهب .. ويقلب التراب الى ضوء .

ان اليمين متعصب للغة « الاغاني » و« العقد الفريد » ولديه عن البلاغة والفصاحة مفهوم لا يقبل ان يتزحزح عنه . لذلك فهو ينظر شذراً الى كل انتاج جديد ويعتبره مثالا للضعف والركاكة .

اما اليسار فهو يؤمن بان لغة الحديث اليومي بكل حرارتها وزخمها وتوترها هي لغة الشعر وان الكلمة هي الكلمة التي تعيش بيننا .. في بيوتنا .. وحوانيتنا .. ومقاهينا لا الكلمة المدفونة في احشاء القاموس .

لقد نزل الشعر — نتيجة للمد الاشتراكي والماركسي — عن ارستقراطيته ، ولم يعد متاع النبلاء .. ولهو الخلفاء .. لم يعد الشعر كأس ذهب في يد امير بل اصبح قطعة خبز في فم كل جائع للخبز والحرية .

ونحن اذا نادينا بشعر هامس كلغة الحديث اليومي فهذا لايعني بالطبع الهبوط به الى ظلمات الازقة ومستنقع العامية. **كل ما نطلبه ان يكون شعرنا — في المرحلة الثقافية التي نحن فيها — صورة لهذه الثقافة وانعكاساً لها .**

ان لغة المثقفين في جميع البلاد العربية هي القاسم المشترك الصحيح والمادة الأولية التي يجب ان نستعملها في كل مانكتب من شعر اوقصة اونقد اومقالة .

قد لاتكون هذه اللغة (اكاديمية) مائة بالمائة .. وقد لاتكون معجمية مائة بالمائة. ولكنها على اي حال تشبهنا . انها جزء من شفاهنا .. من كتبنا .. من جرائدنا .. من رسائلنا .

انها اللغة التي نحب بها .. ونضحك بها .. ونبكي بها ..

من الاقليمية الى العالمية

اذا فرغنا من مناقشة قضية البناء الخارجي في القصيدة العربية كان علينا ان نناقش محتواها الداخلي . فهل هناك محتوى جديد للقصيدة العربية الحديثة وما هي قيمة هذا المحتوى ؟

مما لاشك فيه ان خريطة العالم تنكمش وتضيق وحدود الدول تذوب وتسقط ككتل الثلج . والعلم الحديث جعل سفر الأشخاص والأفكار بين قارة وقارة و كوكب و كوكب روتيناً يومياً لايثير الدهشة . والأدب هو اكثر الكائنات قدرة على السفر والرحيل فهو روح سريع التبخر ، سريع الاشتعال .

لذلك لم يعد بوسع اي ادب ان يعتزل بين جدران اقليمية ضيقة ويدفن رأسه في رمال اللامبالاة والا صنف في عداد الآداب الميتة .

في وسط هذه الحضارة المتحركة يبحث الشعر العربي الحديث عن نفسه ، ومن حسنات هذا الشعر انه مفتوح العينين على الأبعاد الانسانية الرحبة ، وشديد الحساسيـــة بتموجات الفكر العالمي وذبذباته . فـكل بذور الفكر التي حملتهـــا امواج البحر المتوسط الينا اخصبت في ترابنا واعطت ورقاً .

كل الفلسفات ، وكل النزعات ، وكل المدارس، سواء منها الغربية او الشرقية، البورجوازية او الماركسية تصادمت في منطقتنا ، ثم انسحبت تاركة على ارضنا مزقاً من راياتها .

طاغور ، وغوته ، وشكسبير ، وده موسه ، ومالارميه ، وفاليري ، واراغون، ورامبو ولوركا ، وبول ايلوار ، وآخر العنقود ت . س . اليوت ، كل هؤلاء مروا من هنا، ورحلوا عن هنا .. بعد ان خلفوا على فجر شعرنا شيئاً من انفاسهم .

الالتزام ، ابن الماركسية المدلل ، مر برؤوسنا في اوائل الخمسينات مرور الدوار المباغت فحول شعرنا الى « مانيفستو عقائدي » واستنبت القصائد من مخيلة الشعراء الملتزمين كما تستنبت

البطاطس في احد الخولكوزات .. ثم انكفأ الالتزام عن شواطئنا تاركا وراءه طروحاً شعرية عن ديان بيان فو وفيت مين .. وكوريا .. ولدت بدون عظام وبدون ملامح .

ثم دقت الوجودية السارترية ابواب ادبنا بعنف .. واستطاع سارتر وكامو وكافكا وكولن ويلسن ان ينقلوا عوارض (الغثيان) والسرطان الينا . . وحمل شعراؤنا المحدثون (صخرة سيزيف) على اكتافهم فتعبوا بها واتعبونا معهم . واصبح (اللامنتمي) بجنونه ، وضياعه ، وبلاهته ، وشعره المنكوش البطل الرئيسي في كل عمل ادبي نصنعه .. وملح الطعام على مائدة شعرائنا ..

وفي رأيي ان ازمة العبث والعدم واللاجدوى هي ازمة نفسية مستوردة لها مايفسرها في الحضارة الاوروبية المتعبة . امانحن فقد نقلناها بدون تحفظ ودون ان يكون في حياتنا مايبررها. (فالقرف) الذي يطغى على آثارنا الأدبية ليس (قرفاً عربياً) وانما هو قرف صنع في فرنسا .. وانتقلت الينا جراثيمه بالعدوى ..

انني لا انكر ان الانسانية كلها تعاني ازمة مصير وان جيلنا هو جيل الغبـــار الذري ، والهواء الملوث،والعقد الفرويدية المميتة . الجيل المصلوب بلا صلب ، المشوه من داخله منذولادته .

انني اعرف هذا ، ولكنني اعرف ايضاًان للانسان العربي ازماته الخاصة . ازمات واقعية تتصل بالرغيف ، وبالدواء ، وبالعلم ، وبسرطان اسرائيل ، اكثر مما تتصل بالمجردات الفلسفية التي لاتلتفت اليها الشعوب الا وهي في قمة شبعها وبطرها الفكري .

ولايمكننا ونحن نستعرض رياح الفكر العالمي التي هبت علينـــا ، ان نهمل التجربة (الاليوتية) نسبة الى الشاعر الامريكي الاصل ت . س . اليوت الذي ترك على نتـــاج اكثر شعرائنا المعاصرين ، ولاسيما شعراء العراق ومصر ، بصمات اصابعه واضحة .فقد نقلوا عنه وعن معلمه ازرا باوند طريقتها في كتابة الشعر الحر وفي استعمال الأساطير والرموز الدينية والتاريخية والاعتماد على طريقة التداعي بالصور (ايما جيسم) .

ويقتضينا الانصاف ان نقرر ان نتـــائج التجربة الاليوتية في شعرنا كانت حسنة بمجملها ، فقد حقق بعض الموهوبين بقصائدهم الحرة نجاحات ملحوظة حين منحوا القصيدة العربية المعاصرة ما كان ينقصها ، اي وحدة الشكل ووحدة الموضوع . واصبحت القصيدة العربية على ايديهم كياناً عضوياً ملتحم النسيج يتغذى بموسيقى داخلية ، مركبةالايقاعات متعددة النغمات . كما اصبح للقصيدة نواة اساسية ومحور تتحرك عليه من بدايتها الى نهايتها . وهذا في نظري اكبر نصر يسجل للقصيدة العربية الحديثة .

واذا كانت السهولة الظاهرية لطريقة الشعر الحر قد شجعت كثيراً من الدخلاء على الادلاء بدلوهم في هذه البئر ، وعلى ظهور كثير من النماذج الرديئة اساءت الى سمعة الشعر الحر والى شعرائه ، فان هذا يجب ان لايتخذ ذريعة لمهاجمة الشعر الحديث بمجموعه ، ففي كل فن يوجد موهوبون ، ويوجد مزيفون . وفي الشعر التقليدي نفسه يوجد نسور تغطي اجنحتها وجه الشمس .. ويوجد هوام اجبن من ان تطير في وجه الشمس ..

الشعر العربي الحديث ، يخوض بكل طاقاته وخلاياه واعصابه تجربة كبرى في التجديد . فلنمنحه الفرصة لاثبات وجوده .

●

فاليري والخصومات الأدبية

قال بول فاليري في حديث له عن المعارك الأدبية :

في فرنسا ، يبدو ان الأثر الفني ، وعلى الأخص الشعر ، معرض للمحاكمة اكثر مما هو معد للتذوق . وانهم ليناقشونه اكثر مما يتذوقونه ،وان الشعر يغدو بهذا ، موضوعاً من المواضيع ، لا وسيلة من وسائل التسليةليس لك حيالها الا ان تحبها ، او تطرحها جانباً . ويبدو أن النقاد وجماعة المحاكمات يأملون بان يقنعوا الذين يستطيبون لوناً من الشعر ، ألا يستطيبوه ، والذين لايعجبهم نوع آخر ، بانه من الضروري ان يكون موضع اعجابهم . وفي كل هذا يبدو نوع من الاتجاه الساذج حقا ، ولكنه مبهج في الوقت نفسه ، لأن الخصومات الأدبية ، تدل على وجود نشاط فكري ، بل هي تؤدي اليه بالذات . مع العلم بأن هذه المشادات كلها لن تؤدي الى اية نتيجة .

من حديث مع فاليري عام ١٩٣١

مانجهله من أدب المرأة

بقلم وداد سكاكيني

كان الشاعر المعاصر « فرانسيس كارلو » يزور الأديبة كوليت في مصيفها ببروتانيا ، وكانت أكاديمية « غونكور » تعتز بأن تكون كوليت نائبة لرئيسها فقال لها الشاعر متظرفاً:

— ما هو أدبك كامرأة يا سيدتي كوليت ؟

فعجبت الكاتبة من سؤاله وقالت له بنبرة فيها تهكم :

— آه ، إن أدبي هو أدب الرجل ...

كانت كوليت تعبر عن أدبها هي ، وقد بلغت فيه القمة التي أدركها كبار الأدباء في زمانها وشاركتهم في التعبير عن ومضات الفكر والابداع ومسارب الحس والجمال ، حتى تأتي لها القول الفني في نطاق ادبهم ومحصولهم ، وكانت كوليت إذا صح الفصل في تحليل ادبها كاتبة كالرجال ، فمجموعتها المسماة « كلودين » يمكن لأي أديب بارع ان يكتب مثلها .

على أن الحياة الأدبية قبل عصر كوليت كانت تستهين بالأقلام النسوية وتستكثر عليها الابداع والاتقان ، وكأن الأدب وقف على الرجال يستأثرون به ويتبحبحون في رحابه ،ولا تجسر الأقلام الملهمة الناعمة على اقتحامها ، الأمر الذي جعل بعض الأديبات يستعرن الأسماء الرجالية في تقديم آثارهن للجمهور فجورج صاند هو الاسم المشهور المستعار للكاتبة الفرنسية « أورورودوفان » وجورج اليوت هو الاسم الرجالي الذي استعارته الأديبة الانكليزية « ماري آن

ايفنز » التي صورت في قصصها ريف بلادها ، وغير هاتين الأديبتين كثيرات شاركن من وراء استمارة أو ستارة في ادب ممتع رائع كان يمضي بمواهبه الفنية وتجاربه الانسانية في موكب الأدباء البارزين .

ولم يكن هذا شأن الأدب النسائي في العرب ذلك الحين ، فان المرأة العربية لقيت المتاعب والمحن في حياتها الأدبية قبل نهضتها المعاصرة ، حتى دعا أنصار الحرية والعدالة لتقدير آثارها وتسديد خطاها أسوة بالرجل ، لكن النابغة لم تكن تظهر إلا على أطراف السنين حين يقيض لها من يأخذ بيدها ويتعهدها في ثقافتها ودراستها ، حتى تبرز مواهبها في الشعر أو النثر ، فكان العالم العربي في بعض اقطاره وامصاره ، يحتفي بظهور الموهوبات ويرجو أن يكثر عددهن ،وكان بعض الصحافيين والأدباء يدعون لأدب المرأة ولا يتحرجون من توقيع مقالاتهم بأسماء نسوية لتشويق القارىء وإغرائه بهذا الأدب الجديد .

حدثنا الصحافي الكبير عبد الحميد حمدي يرحمه الله قائلاً : أنشأت في القاهرة صحيفة تحررية فكرية فكانت تثابر على نشر مقال شهري فيها فتاة أدبية توقعه باسم « فتاة النيل » وكانت ترد عليّ رسائل إعجاب من قارىء شامي تولع بما تكتبه الفتاة ، حتى جاء مصر وسأل عني مقدماً لي هدية من الحلواء الدمشقية ، وبعد زورتين سألني الفتى عن « فتاة النيل » فقلت له : إنها مريضة ، فأبدى أسفه وحيرته ، وبعد ايام قليلة عاود الرجاء والالحاح في ان يلقاها ليحمل لها تحية وهدية ، فتحيرت في أمري لا حرصاً عليها وإنما حرصاً علي ...

وضحكنا طويلاً حين روى الصحافي الأديب انه قال للزائر الحائر :

— أنا فتاة النيل ولا وجود لمن حسبتها كاتبة في مجلتي !

فبهت الزائر وذابت من خياله صورة الحسناء الأدبية فتاة النيل التي اخترعها الصحافي لرواج صحيفته ، وإغراء القارىء بالأقلام النسوية التي كانت ضئيلة في

أيامه او متسترة بالأسماء المستعارة ، ومثل هـــذا الكاتب العربي كثيرون أنثوا أقلامهم وموضوعاتهم لقلة الكاتبات ايامهم وتشجيع المتهيبات من الموهوبات ، حتى تزحزحت الأثقال التي كانت تضيق بالأقلام النسوية في البلاد العربية والغربية التي سبقت إلى التطور الذي اعان ذوات المواهب على التفوق والنبوغ .

إن أدب المرأة حين يكون من شأنها وطبعها موضوعه ومحتواه لا أكاد اجده عند الرجال إلا في الندرة والابداع ، فالقصصيون منذ وجدوا في عمر الأدب تمثلوا المرأة في خيالهم وظنونهم وكانت في كثير من الأحيان محجوبة عنهم فصوروها في حياتها ومزاجها النفسي مخلوقة على نحو من خصالهم ومشاعرهم ، او اتهموها بالمساءة والانحراف وركبوا في تكوينها ما لم يخلق فيها حتى أصاب الأدب الغربي والشرقي هذا الضيم الذي نزل بالمرأة قديماً وحديثاً .

لقد وجدت تولستوي متجنياً على « آنا كارنينا » حتى خيل إلي ان هـذه المتهمة الموصومة هي من مخلوقات تولستوي الاختراعية لا الواقعية ، فان الوجود المعقول لا يسمح بامرأة واعية تنشأ في بيئة مهذبة ان تترك ابنها وزوجها من اجل عشيق وأن تمعن في هذا الضلال ...

ولو احصينا ما في القصص العالمية من اختراع الكتاب الذين تخيلوا المرأة وتمثلوها حسب اهوائهم وأوهـامهم لبرز حشد من نسوة مغبونات اكثرهن مصنوعات ، فهن تماثيل من مرمر ومن شمع ، وأقلهن النوادر في صدق الملامح

وكان بوسع المرأة — حين تكون أدبية حقـاً — ان تكتب ادبها هي بقلمها ومن وحي خواطرها دون رفد من رجل فيجيء ثمرة غرسها ومرآة فنهـا وبيانها ، فيا تصور به جنسهـا وتحلل فيه النفوس والسجـايا ، فيبدو ادبها نسوياً خالصاً يسري فيه حسها وذوقها ، على أني لا ابتغي لهـذا الأدب النسوي عزلة انثوية يتجافى بها عن الرجل ، فان الحياة خلقت من اجلها معاً ، وإنما اردت له

ان ينطبع بطوابعه الأصيلة وإنسانيته الفدائية وزواياه الشاغرة ، ليرفد الأدب الحديث كما ترفد المرأة الحياة ، وقد افسح لها التطور الفكري والحضاري مجالاً وسيماً في علم الأدب تبدلت فيه الموازين والقيم وغدا الترجيح والتفضيل للأحسن والأفضل ، بل إن الأدب الصادق القيم بتعبيره الفني ومحتواه الابداعي لا يعرف فروقاً بين ادب النسوة وادب الرجال إلا من ناحية الموضوع الذي يعكس المزاج والطبيعة وهذا الأدب نفسه على الرغم من اتساع آفاقه ومعانيه ومشاركة المرأة في بنائه وتطوره لا يزال يجهل نواحي كثيرة من آثارها ومواهبها لم تكشف عنها او لم تعالجها .

ولكم اعجبتني كلمة قالها « جورج دوهاميل » في كتابه « دفاع عن الأدب » حين سألوه عن التحليل النفسي واثره في توضيح الشخصية الأدبية فقال:

— إني اعجز عن تحليل نفسي ، فكيف يتسنى لي ان احلل نفوس الآخرين؟

وبهذا اراد الكاتب ان يسقط من حساب الأدب المعاصر تجارب التحليل النفسي ، ولعله لا يرضى ايضاً بأن يقره لعلماء الفلسفة ، فمن العجب وقد يكون الكثير من رأي دوهاميل — ان يحلل الأدباء وبخاصة كتاب القصة — شخصية المرأة في قصصهم ورواياتهم كما شاءت اهواؤهم وآراؤهم فيها .

وقد سبق عصرنا مفكرون من العرب بحثوا في شؤون المرأة وطبعها وطاقتها ، بل كانوا من المجتهدين في الشريعة ، فكان بعضهم إذا سئل في امر المرأة ليفتي فتيا تتعلق بسرها استمهل حتى يسأل زوجته او واعية من اهله ، فما لاريب فيه ان الموهوبة المثقفة اكثر فهما لبنات جنسها من فهم الرجل لهن في اكثر الاحيان والاطوار وان يكن في الادباء المتمرسين من قد يكون اعلم بهن من علمهن بأنفسهن ؟

والأديب نفسه قد يتعسف في معرفة جنسه فيضل السبيل في تصوير

حقيقته وحياته كما ضل « فيكتور هوغو » حين ابرز بطل البائسين «جان فالجان» في حرمانه وبؤسه ، فعابه النقاد بأنه تجاوز الواقع وغلا في التعبير والتصوير ، إذ كان بطل روايته مخلوقاً اسطورياً لايشبه اي بائس في الدنيا، ولقد ابتدعه هوغو كما ابتدع (كازيمودو) ذا العاهات الموجود في الصور والخيال لا في الطبيعة والحياة، حتى اضطرت الفنون السينمائية ان تعريه من تهاويله لتستطيع إخراجه في الروايات المعاصرة.

ومن هاهنا كان الأدب النسائي ابعد غوراً واقوم سبيلا اذا كتبته من اوتيت مواهبه وعدته وتمرست بشؤونه وثقافته ، اما المدسوس المبتذل الذي يصور مراهقة محمومة ودغدغة حسية، وتقليداً ساغانياً فغير محسوب على أدبنا وإن هتف له الهاتفون مغالطة ووهماً ، فما كانت إباحية الانثى ليتطلبها حريص على كرامتها او معترف بحقيقتها. غير ان أدب الغرب يكاد يستوفي نواحي فنه في انتاج المرأة سواء فيما كتبته هي او فيما كتبه الرجل عنها ، إذ كان لتمازج الجنسين وانتشار الثقافة اثر عميق في اقلام الذين تناولوا الحياة النسوية في شتى الصور والموضوعات ، او في اقلام الاديبات اللاتي شاركن في فنون القول والتعبير مشاركة مرموقة ، اما في عالمنا العربي الحديث على اختلاف اقطاره وآفاقه ، فمازال ضنيناً بالنوابغ من الموهوبات الدائبات اللواتي يقدمن للحياة الادبية والمكتبة العربية محصولاً قيماً ، ويمثلن ادب المرأة في شعرها ونثرها وتجاوبها مع الحركات التطورية والثورية بجد وعناية وإيمان .

وأي ضير في الأدب او حرج على الرجل والمرأة اذا تناول كل منهما الناحية التي يجيدها او يبدع فيها فيكون موضوعه ألصق بطبعه وأقرب الى قلبه ، وكل هذا يغني أدبنا الحديث بانتاج يشارك فيه الجنسان ويتنافس القلمان في كل مامن شأنه ان يسد الفراغ ويسدد الخطوات ويكشف نواحي مجهولة او مهملة في أدب المرأة ، تطالب بأقلام نسوية سوية ناضجة الفكر والثقافة لا مستغلة او مستعارة

يعرفها القاريء بغير لثام ، وكم يؤثر الرجل ان يرى وجه المرأة كما خلقه الله بريئاً من الزيف ، وما أفدح الزيف اذا اصطنعت فيه حواء لوجهها قناعاً ذا شاربين او ألصقت عليه لحية !

والأمل معقود بالموهوبات اللاتي لا يتعجلن الخطى ولا يتهافتن على الضجيج بل يتمرسن بأدب صادق البيان والاحساس ، يمثل المرأة في طبيعتها الفنية وسماتها الأصيلة وتجاوبها مع الحياة والمجتمع في حمل التبعات والتكاليف أسوة بالرجل . أما المجون الذي احتدم في قصص نسوي حديث فما كان سبقاً ولا حقّاً في حياة المرأة الحرة التي تأبى على تبذل القلم والوجدان واصطناع البدعة الاباحية في تعبير جنسي محموم لو لم تقدمه الأيدي الناعمة لما أثار هتافاً وضجيجاً او اختصر الاسباب الى الدرب البعيد .

فاجعة..

في اولوياك

للقصاص العالمي اليوغسلافي

ايفو أندريتش

"جائزة نوبل للآداب"



ترجمة : حنين حاصباني

زعموا ان رجلا من الاقدمين كان ذا صلاح ووقار ، وانه زار مرة قرية (اولوياك) فقال عن اهلها « ان الله حباهم المال والثراء وابتلاهم بضروب الشقاء » ... وفي الحق انهم كانوا كذلك ، وانهم ظلوا كذلك على توالي الايام وكر الاعوام . فلم يحدث قط ما يعدل او ينفي رأي الرجل الصالح الحكيم .

هذا . وان (اولوياك) قرية صغيرة مستقرة في الاعالي ، على حافة هوة عظيمة فاغرة ، وفوق تلة قائمة على سهل فسيح مرتفع ، اما منازلها فتبدو منزلا فوق آخر لان الارض ترتفع مصعدة تدريجاً . وهذه البيوت ذات طابق واحد في الغالب ، وهي متقاربة ، متجمعة على طول السيل المسمى بالسيل الاسود .. وان القرية بمجموعها تضيق على حافتي الهوة وعند طرفيهـــا ، فتبدو كلها للناظر اليها من بعيد وكأنها سفينة كبيرة حملتها الى ذلك المكان موجة عاتية من امواج طوفان هائل جبار ، انحسر بعد ذلك عن المرتفع ، وارتد عنه متلاشياً .

وللقرية طريق رئيسية تنطلق من وسطها وتنحدر انحداراً عظيما مفاجئاً ثم تندفع بـين جلاميد الصخر وتلاع الجبل ، وتسعى منسابة كالافعى حتى تبلغ نهر (درينا) في مجراه الضيق المحصور بين كتل الصخور . فبين هذا النهر والقرية مسيرة ثلاث ساعات صعوداً منه اليها، ومسيرة ساعتين اثنتين انحداراً منها اليه على تلك الطريق ، وفي محاذاتها يتدافع السيل الاسود ، فيختفي تارة ويظهر طوراً ، ثم يهوي من أعالي الصخور هوياً مخيفاً بعيد القرار ، حتى ان الميـاه تتناثر رذاذاً من المطر وقطرات من الندى ، قبل ان تبلغ مستقرها على الأرض .

وليس الموقع النائي المرتفع هو كل ماتمتاز به تلك القرية عن سائر القرى في المنطقة . بل ان لها ميزات كثيرة اهمها هذا الخصب المرتفع الرائع الذي اشتهرت به اراضيها . فـكل انواع الغراس والزرع ، فيما عدا القمح والحبوب ، أوفر غلة فيها وأجود محصولا ، منها في سواها ، وهذا صحيح بصورة خاصة في انواع الثمار ، وبصورة أخص في ثمر الجوز . حتى ان محصولهم منه اعظم من محصول القرى الاخرى مجتمعة ، وحتى ان القرية كلها محاطـة باشجار الجوز على انواعها ، من النبتة الطرية الى الشجرة الغضة الى الدوحات القديمة الجليلة ..

وجماع القول ان كل ماتنبت القرية حسن طيب ، اللهم الا اهلها . فانك لتلقى الرجل منهم فاذا هو قصير القامة ملتوي الساقين ، عظيم الظهر، مشوهه . له رقبة غليظة تندمج مع الجذع ، ويدان طالتا بدون حساب ، ووجه مبطح مسطح فيه أنف افطس ، وعينان صغيرتان سوداوان تبعثان

نظرات ملحـــة ، عنيدة ، خالية من كل تعبير . ولهم ، فوق كل هذا ، مشية خاصة بهم ، اذ يردون الى الوراء كل القسم الاعلى من جسمهم ، حينما يمشون . وذلك لكثرة ماصعدوا الى قريتهم العالية ولكثرة ماهبطوا منها . فـكان لهم من كل هذا هيئة مميزة حتى كان الناس يميزونهم عن غيرهم بسهولة ويسر ولو كانوا بين مئات الناس في مجتمع السوق بالمنطقة .

وهم ، الى ذلك ، معروفون بالحذر والحيطة ، مشهورون بالقسوة وغلظة الفؤاد؛ يقتصدون في الـكلام ويعزفون عن الغناء ويدأبون على العمل فلا يتوقفون ، ويثابرون على الجمع والتحصيل فلا يملون او يكلون . وقد شاع في الناس ان كل من ولد في (اولوياك) فلا بد أنه ذو عاهـــة أو نقص ، فما من انسان فيها الا وهو مفقود او اكتع او مشوه .

بيد ان هؤلاء الرجال القصار القامة الشديدي البأس ، السا كنين في اعالي الجبال وأعشاش النسور ، يفوقون سواهم من البشر في الدهاء الذكي ، والقوة الآبدة الصامتة والتجمل الصابر في المشاق والعمل . فحقولهم احسن حراثة وا كثر محصولا واجمل زرعا. وثمارهم أجود نوعاوا كثر غلة وافضل اعدادا . واذا كانوا في السوق لم يجادلوا في سعر ولم يقبلوا نقاشا في ثمن ، لكنهم يفرضون اسعارهم فرضا على الناس . وهم لايرفعون امورهم الى القضاء الا في النذر اليسير . لكنهم اذا قاضوا ساروا في المقاضاة حتى ينتصروا . . ثم انهم لايتزوجون الا من اهـــل بلدهم . حتى كونوا في مجموعهم كتلة مترابطة تـكاد تكون عرقا مستقلا وجنسا خاصا هو جنس (اولوياك)

وكان الشيوخ والعجائز يروون ان الاهالي احتلوا كل بيت بلاد « البوسنة » عدا قرية (اولوياك) ، وانها قد احترقت كلها قبيل وصول الغزاة اليها ، ولذلك لايمكن القول انهم قد احتلوها.

وفيما يلي قصة ذلك الحريق :

كان في اولوياك اسرة كبيرة من أكثر الاسر فيـــا وجاهة ومقاما ، هي اسرة آل (موديروزفتش) . وحدث ان احد افرادها قصد الى سيراجفو ودخل مدارسها فتعلم وتثقف حتى صار مديرا لمدرسة كبيرة ، مما لم يألفه اهل القرية ولاعرفوه ، وقد خلف شاباً مثقفاً اصبح قاضيا في مدينة موستار . وكان احرص من ابيه على الابقاء على اواصر القربى مع الاسرة الباقية في القرية . وهكذا ذهب ذات صيف حار ، مع عائلته كلها ، فقضى العطلة في مسقط رأس أبيه واجداده . وقد بدا له ولزوجته ان يسعيا الى تزويج أغنى رجل في الاسرة الى فتاة غنية جميلة من (موستار) . فثارت ثائرة القرية ونسائهـا لمثل هذا الزواج من دنيا بعيدة مجهولة . بيد ان القاضي مضى في مشروعه بحزم ودأب . فما ان كان الخريف حتى تحقق ماأراده ، وتم الزواج .

وهكذا جاءوا بالفتاة الحسناء من مدينتها موستار ، يرافقها أصغر اشقاء عريسها وواحد

من اقربائها. فلما كانوا في الطريق الى القرية، بلغوا فيما بعد الظهر نهر (درينا) فراعها ان ترى الى جانب مياهه الخضراء العميقة هيكلا عظمياً لجواد مسكين تجف بقاياه في الشمس . فعللت نفسها بأن ماتراه انما هو الهول الذي لابد من تجشمه قبل بلوغ جنات السعادة ومراتع النشوة الالهية ، كما تقول الاساطير .

ولما بدأت الجماعة تصعيدها نحو اولوياك ، على التراب الاحمر الذي تحرقه الشمس ، في الطريق الصاعدة عمودياً ، شعرت الفتاة أن خاتمة هذا المطاف القاسي قد لا تكون أقل شراً من بدايته . لكنها كانت مخطئة نوعاً ما . فقد كانت الخاتمة من القسوة ما جعل الفتاة تتلهف ، منذ اليوم التالي ، على نهر درينا ومياهه الخضراء القبيحة وعلى الدرب المضني المصعد . فالعريس والبيت والقوم ، بل ، كل شيء ، كان مخيفاً ، مريعاً ، لا يكاد يصدق . لا يكاد يوصف .

وعندما ودعت قريبها العائد الى موستار قبلت يده ، وهي تئن أنيناً موجعاً ، ولكن دون أن تذرف دمعة واحدة امامه ، وقالت :

ألا سلم عليهم .. سلم عليهم جميعاً . .

ثم اخذت تتابعه بنظراتها وهو يغوص مع جواده ، في تلك الاعماق الداكنة التي تفصل بين اولوياك وبين سائر انحاء العالم .

لقد كان يكفيها أن تلقي نظرة على ما حولها لتدرك انها لن تستطيع العيش هناك . وهذا لا يعني ان الموت حتم عليها في هذه القرية وانما يعني انها لاتعرف كيف تعيش فيها ، لقد كانت شبه ضائعة ، منسحقة القلب من الألم ، لا تعلم تماماً ما الذي سيحدث لها من شقاء ، ولكنها تحس احساساً عميقاً وواضحاً ان شقاء ما سيحل بها .

ألا لحا الله ذلك القاضي . كيف خطر له ان يزوج هذه الحسناء مثل هذا الزواج . ألم تكن له عينان تبصران الناس حوله ؟ الم يرها هي ونضرتها وجمالها ؟ لقد كانت هيفاء طويلة فارعة تزيد قامتها هامتين عن قامة زوجها وثلاث هامات عن قامة اطول امرأة في القرية . وكانت متينة، خفيفة ، رشيقة وكانوا هم قصاراً ، ضخاماً ، فيهم قبح وثقل . وكانت لعوباً مرحة ضحوكاً ، وهم عبوس ، كلهم كآبة وصمت . وكانت تحب الغناء والاهازيج والرقص وهم لا يميلون الا للكد والجد القاتم العابس . وكانت تحب ان تتزين وتتبرج وتعنى بجسمها الجميل ، فتعيب عليها النسوة في البيت وشقيقات عريسها هذه الميول التي تبدو لهن غريبة مستقبحة ، فيلمن ويعرضن .

كل هذه الفوارق والخلافات تلازمها طول نهارها وليلها ، وتباعد كل يوم بينها وبين اسرة زوجها واهل القرية كلهم ، اما الزوج الشاب فلم يكن يراها الا مساء عند عودته من

العمل . وكان رجلا شديد الأسر متين البنيان ، رقيق الجسم ، بكرت التجاعيدفي وجههالأسمر ، وغلظت رقبته وغاصت بين كتفيه ، وبدت في عينيه نظرة قاتمة مشحونة بالشكوك والريب .

وكانت تعروها قشعريرة كلما اشتمت رائحته تدنو منهـــا . ذلك ان رائحة جسمه كانت مزيجاً عجيباً مقرفاً يجمع بين رائحة التراب والوحل ، وزرائب الماشية ، وحموضة اللبن . وكان يقاربها صامتاً لا يفوه بكلمة كأنهـما عدوان .. ثم يفارقها كذلك . اما ما يجري بينهما فما يدريه سوى الليل الساجي والحظ العاثر الذي حط على المرأة الحسناء التي اطبقت فاها فما تند عن كلمة او شكوى .

وكانت نوافذها تنفتح صوب الجبال . فاذا وقفت امامها ورفعت رأسها الى فوق ورأت سماء الخريف الزرقاء ، وتحليق الحمائم البرية ، عاودتها ذكريات السهل الفسيح الأخضر الممتـد قرب (موستار) فراحت تبكي بكاء مراً صامتا ، ثم تبتلع دموعها المنسابة بغزارة .

وكان الخريف فصل عمل دائب ونشاط كثير . فانهمك القرويون جميعهم رجالاً ونساء واطفالاً في اعمال الحقول من قطاف وجني وعصر وصنع اطواق وا كاليل من ثمار الجوزوالدراق. وكان هذا كله عمل النساء بصورة خاصة . فكن يدأبن على اعمال الفرز والكسر والتنظيف وغيرها.

وكان يبنهن تلك الحسناء ، دائبة ، صامتة ، منحنية . وكانت ايادي النساء العريضة ، القصيرة ، المتشققة تلامس يديها الجميلتين الطويلتين ، فتحمل اليها تعبيراً صامتاً عن الكراهية والبغض الشديد ، وكذلك كانت تصطدم عيونهن الباهتة بعينيها الواسعتين الحلوتين كالعنبر ، فتنفذ نظراتهن الى قلبها مشحونة بالكيد والكره والحسد .

وكانت شاردة النفس ، فلم تتقن هذه الاعمال المضنية الدقيقة . فجر ذلك عليها احتقار النسوة بعد ان جنى عليها جمالها بغضهن .. وكانت طوال نهارها لا تنظر الا الى شقائهاوبؤسها ، ولا تحس الا بانها ضائعة ، تائهة بين اكوام الجوز . وكانت طول ليلها تحلم فلا تبدو لها في منامها تلك السهول الخضر حول (موستار) بل تتراءى لها صحراء مترامية بدلت فيها حبـــات الرمل بثمرات الجوز التي تتهامس وترقص . وكانت تجد في كل هذه الأحلاموالرؤى نذيراً بشرمستطير.

وهكذا انقضى الخريف ، وانقضى بعده شتاء قاس بارد . ثم اقبل الربيع مختالا . وكانت اسرة المرأة تنتظر ان ترسل اليها ابنتها لزيارتها ، كما تقضي العادة والعرف ، فلما لم يرسلها اهل زوجها قرر ذووها ان يبعثوا لها بأخيها الاصغر ليطلع على حالها ويتفقد امورها . وكان هذا الاخ اثيراً عندها ، محبباً اليها ، وكان شبيهاً بها حتى كأنه صورة عنهـا : كان شابا وسيما طويل القامة ، حسن الوجه ، ذا شعر اشقر غزير ، وعينين جميلتين داكنتين ... لقد كان دائماً عزيزاً

عليها يد انه بدا لها ملاكا منقذاً عندما رأته هذه المرة يأتيها فجأة وعلى غير انتظار . وخيل لها انه تجسيد حي لكل مافقدته هناك في موستار ولكل ما لم تجده هنا في اولوياك .

فلا عجب اذاً ان تكون قد اشرفت على الاغماء عندما نظرت الى الطريق الصاعدة نحو القرية ، فرأت فيها فارساً يتجه نحوها تحت السماء الصافية ثم عرفت فيه ، عبر غمامة من دموعها المنهمرة ، اخاها الحبيب الاثير . فلما وصل راحت في شبه ذهول تداعب سرج جواده الاحمر ، وتقبله . وحتى بعد ان تناول الجميع طعام العشاء ، لم تستطع ان تبتعد قيد انملة عن شقيقها .وكان زوجها الى جانبها ، ينظر اليها ، وينتظر ، جلاداً قاسياًصبورا .

ولما انقضى شطر من الليل وبدا لها ان زوجها قد استسلم للنوم ، تسللت بخفة وصمت الى الغرفة الامامية التي ينام فيها اخوها . ورغم انه طلب اليها بالحاف وحزم ان تعود الى غرفتها، ظلت جالسة قرب فراشه ، وراحت تحدثه حديثاً طويلا بصوت خافت مكتوم .

وقالت له انها لن تستطيع الحياة ولن تحتملها في هذه الصحراء الجافة ، وبين" هؤلاء القوم الاشرار الغلاظ القلوب ، هؤلاء الاقزام القميئين ، هؤلاء الوحوش المرعبة المنطلقة في الغابات ، ثم كشفت له عن انها قد زوجت الى رجل كريه غريب الاطوار . فهو ذكي صحيح العقل طالما هو في عمله نهاراً . فاذا جن الليل بانت حقيقته فاذا هو رجل مجنون مخبول تتراءى له احلام مخيفة واوهام مرعبة . وتسيطر عليه فكرة ثابتة واعتقاد دائم بأنه مهدد في حياته وماله واهله ، فافترق عن ذويه ، واخذ ينام وزوجته في كوخ خشبي بدلا من البيت الكبير المشترك . ومنذ ليلةالزواج الاولى علق بندقية محشوة فوق السرير ، وجعل بينه وبين امرأته على الفراش سكيناً طويلا حاداً . فقد اصيب بحالة من احوال الغيرة المرضية منذ اللحظة الاولى ، ودون مبرر لذلك ..وبالها من غيرة من غير حب .. غيرة ، هي في الحقيقة مرض جنوني يدفع الى التعذيب والتحطيم .

وقد بذلت كل ما استطاعت من جهد لكي تطرد من رأسه هذه الاوهام والوساوس ، وحاولت ان تخفي اسلحة زوجها عن عينيه ، فما كان لهذه المحاولات من اثر الا ان ايقظت في نفسه شكوكا جديدة ومخاوف جديدة . حتى انه هددها بأن يحرقها حية اذا عادت الى محاولة ذلك ، وهكذا ، فبعد ان ينقضي النهار في تعب دائم ومنهمك ، تأتي فتضطجع في الليل مع سكين طويلة حادة وقرب رجل بائس شرير مجنون . لذلك كانت تبكي نهاراً وليلا . فاذا لم تستطع اخفاء دموعها ورآها اهل زوجها قالوا لها ببلادة وبلاهة : ان حزنها ودموعها امور مألوفة في كل عروس حديثة العهد بالزواج ، وان عليها ان تبكي طالما لم تنجب طفلا يبكي بدلا منها.

وطال حديثها وكان ذا شجون . وكان اخوها يستمع اليها ولكنه يرتعد بين الفينة والفينة

فقد خيل اليه انه يسمع جلبة وضجة وصوت اسلحة . لكنها كانت تهدىء من روعه ، وتداعب خصل شعره ، وتضغط على خديها بكفي اخيها الكبيرتين الجميلتين الشبيهتين بكفيها . وهي لاتزال تهمس في اذنيه : « ياشقيقي العزيز ، ياشقيقي الوحيد ، خذني معك اوفاقتلني . انقــذني من كل هذا كيفما استطعت .

اما الشاب فــكان يحاول الصمود امام هذا السيل من الكلام ، وهذا الغمر من الحنــان والمداعبة . لقد كان يود ان يركز ذهنه ، ليعمل الفكر فيما يجب اتخاذه من قرار وتصميم .

وكان يقول لها : مهلا يا اختاه ، رويدك يااختاه . فلنتريث حتى صباح غــد . سأكلمه غداً . فلا تبكي ، ولاتخشي شيئاً .

لكنها ظلت تتشبث به ، تتعلق به تعلق الغريق المشرف على التلف . وما فتئت تناجيه : ياحبيبي يا وحيدي .

على أنها كانت اول من اشتم رائحة دخان وحريق . فتركته فجأة وانسلت نحو غرفتها وهي تمشي على اطراف قدميها . واخذت تدير « اكرة القفل » بدون صوت وبحذر بالغ . إلاان الباب لم يفتح . فاستندت اليه بكل قوتها ، وبصمت تام . فلم يفتح لأنه مقفل من الجهة الاخرى، من الداخل . فداخلها ذعر شديد واخذت ركبتاها تتخاذلان فما استطاعت الرجوع الى غرفة اخيها إلا بعد كد وجهد بالغين . واخذت تنبئه بما كان ، وهي تهمس في رعب شديد . فهب الشاب واقفاً لتوه وظلا واقفين معاً ، متشابكي الايادي ، في ظــلام راعب . وكانا في اضطراب وذعر لايسمع احدهما ، في الصمت المخيف ، سوى دقات قلبه ونبض الدماء في عروقه .

* * *

ثم سمعا جلبة في الخارج ، كأنما كان هنالك من يعبث بمغالق النافذة . فاندفع الشاب نحو هذه النافذة الوحيدة فألفاها موصدة وقد اسند اليها من الخارج شيء ثقيل . وعبثاً حاول ان يفتحها ، فما استطاع . وفي هذه الناحية بالذات كانت رائحة الدخان شديدة جداً . فقطع الغرفة مسرعاً وعالج بابها المؤدي الى الشرفة . ولكن هذا الباب أيضاً كان قد سد بشيء ثقيل الوزن فلم يفتح إلا مواربة . فتدفقت منه امواج من دخان خانق متصاعــد من نمط ملتهب وتبن محروق . فجن جنون الشاب واندفع نحو القسم الذي انفرج عنه الباب يحاول ان يوسعه بحيث يستطيع ان يمر منه . وفي هذه اللحظة ، وفي الظلمة السائدة ، سدد اليه شخص مجهول ضربة قوية على رأسه بآلة ثقيلة حادة ، مدببة ، وكانت الضربة سريعة خاطفة كومضة برق صامتة ، قــاتلة . فتراجع الشاب متخاذلا ، متهاوياً ، وترامى منهاراً في وســط الغرفة ، فأطلقت المرأة صيحة حادة

وخرت على ركبتيها . ومن تلك الفرجة التي حاول الشاب أن ينفذ منها ، تسلل الزوج الدقيق الجسم المتين البنيان ، وقد حمل سكينه الحاد الطويل وراء ظهره . ثم اغلق الباب الذي كان يتدافع منه الدخان ، وأدار المفتاح في القفل ، ثم سحبه منه واخفاه في زناره العريض . واستدار نحو امرأته ، وتقدم نحوها ، بينما كانت تمد ذراعها فوق شقيقها المغمى عليه ، وقد اخرسها رعب لايوصف .

وبعد مضي ساعة على ذلك ، حدث ان امرأة عجوزاً مسهدة تنبهت الى الدخان الكثير فصاحت وحضرت الناس حولها ، فاذا الكوخ الخشبي الذي كان الزوجان ينامان فيه عادة ، قد التهب من جهاته الاربع وتعالت النار منه ألسنة حمراء هائلة . فتراكض الناس نحو المكان وهم يحملون أوعية المياه . لكن النار قد اندلعت اندلاعاً مخيفاً في الكوخ . وكانت النوافذ والباب موصدة من الداخل . وحاول البعض ان يحطم الاقفال لكن النار اشتدت فردتهم خائبين . كانت النار الشديدة تنطلق من حزم من القش والتبن صفت متقاربة واضرمت فيها النار . فذعر الناس وأخذوا يصيحون وينادون كلاً من الزوج والزوجة وشقيقها . فلم يجب احد منهم . واخــذ الكوخ الخشبي يتصدع وتتساقط اجزاؤه في اللهب الآكل ، فتراجع الناس وقد تملكهم الرعب الشديد .

* * *

ثم هبت رياح جنوبية ثقيلة دافئة وراحت تشتد وتشتد . فاقتلعت من السقف الملتهب قطعاً من القش المحترق ، تحملها الرياح ويرافقها الشرر ، فتطير فوق القرية كأن لها اجنحة قوية . فتفرق الناس وشغل كل امرىء ببيته يحاول انقاذه . وصعد الرجال الى سطوح المنازل، بينما شغل النساء والاطفال بالبحث عن مواضع النار ليدلوا الرجال عليها . وقد علا الصياح وساد الهرج والمرج والخوف الهائل .

إلا ان قطع النار كانت اكثر عدداً من ان يستطاع التغلب عليها وقد اشتدت الرياح لقرب طلوع الفجر .

وفي تلك الليلة اتت النار على القسم الاكبر من القرية وهو القسم الذي الى يمين السيل الاسود . وقد جرح رجال كثيرون اثناء مكافحة النيران. بيد انه لم يقتل احد منهم . واستطاعوا ان ينقذوا النساء والاطفال والشيوخ ، وان ينقلوهم الى الجانب الآخر من السيل. كذلك انقذوا ماخف وغلا من امتعتهم ، فجمعوها في حديقة كبيرة حيث اختلط بعضها ببعض وقــد اتسخت واسودت . وكان بينها عدد من السجاد والاثاث وقدور الطبخ ، وقطع السلاح . وعبثاً انتظر

الناس ساكني الكوخ الثلاثة . وانما وجدت بقايا جثثهم بين الاعمدة والجسور المحترقة المتفحمة، وكل ماوجدوه أشلاء متناثرة مشوهة ، هي آخر مابقي من أجسادهم .

ولم يمض زمن يسير على الكارثة ، حتى قام الناس الى الاطلال الباقية ، واخذوا يمهدون الارض ليعيدوا بناء قريتهم ، دون ان يحفلوا بتلك الفاجعة وبأن يجدوا لها تفسيراً صحيحاً عميقاً . وعملوا بجد ونشاط ، ولعلهم كانوا مستطيعين اعادة بناء نصف منازلهم لولا ان الحرب قد اندلعت فاندفعت جيوش الالمان من النمسا الى « البوسنة » وساد الاضطراب والخوف في كل مكان وفي اولوياك ايضاً . بيد ان اهلها عادوا الكرة ، منذ ان جاء الربيع التالي وهدأت الامور قليلاً في البلاد وهكذا اعادوا بناء قريتهم كما تبني جماعة النمل مساكنها .

لقد أعادوا البيوت والاسطبلات ومخازن الحبوب ، وبنوها في امكنتها السابقة وكما كانت من قبل . إلا ان هنالك بيتاً واحداً لم يعد بناؤه ، ذلكم هو البيت الذي وقعت فيه المأساة الفاجعة التي لم يدرك احد لها سبباً ، وظل ذلك المرتفع الصغير الذي كان عليه ذلك البناء قاحلاً اجرد كأرض مهملة لا اسم لها ولا مالك .

وهنالك ، في الايام المشمسة ، تقوم نساء أولوياك بنشر قطع الغسيل او تجفيف اثمار الجوز .

فكرة

نحن والمنبر العالمي

تواجه المعرفة ، مشروعاً جليلاً ، من مشاريع المستقبل ، وتحب ان تضعه في خطوطه الأولى أمام المفكر العربي ، ليسهم فعلا في تحقيقه ، اذا مارأى ورأينا أن عناصر نجاحه متوفرة ميسورة .

المشروع : أن تصدر إدارة هذه المجلة باحدى اللغات العالمية ، مجلة فصلية ــ أربعة اعداد في العام ــ تتضمن أفضل ماينشر في « المعرفة » الشهرية ، بالاضافة الى مايمكن أن يكتبه الكتاب العرب ، خاصة ، في مواضيع تطرح عليهم ويكون في عرضها باللغة الأجنبيــــة ، فائدة واضحة المعنى والهدف ، بالنسبة للفكر العالمي ومستوياته .

نواجه المشروع ، ونضعه أمام المفكرين ، بكل تهيب وتحفظ ، لنجابه بالواقع سؤالاً طالما تردد في الأذهان وعلى الألسنة : ماهي قيمة أدبنا أو انتاجنا الفكري المعاصر ، في مقاييس الفكر العالمي ؟

قيل من قبيل التفاؤل ان ادبنا شعراً ونثراً وبحثاً ، إذا تيسرت له الترجمة الى لغة عالمية ، استطاع ان يحتل مكانته بين آداب الشعوب من شرقية وغربيـــة التي كانت منذ نصف قرن شعوباً متخلفة ، واصبحت اليوم تشارك في الثقـافة العالمية عن طريق الترجمة بنصيب ما . ولنذكر على سبيل المثال ، خروج الأدب الجزائري بقوة الى المنبر العالمي ، واحراز كل من اليونان ويوغوسلافيا ، جائزة نوبل الكبرى ، للشعر والقصة خلال الاعوام الاخيرة .

انا نطمح الى هذا الشرف، بل نحن اصحاب التراث الفكري الضخم يجب ان نكون اكثر شعوراً بمشروعية هذا الطموح .

ولن تنقصنا الترجمة، وبامكاننا ان نعد لها جهازها الكامل ، انما نحن معكم في التفتيش عن المستوى ، والظهور اللائق :

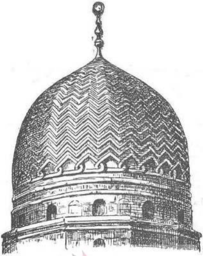
نحن امام مشروع ، وفكرة ، فشاركونا في البحث والتنفيذ .

رئيس التحرير



الفنون

الكتاب والموضوعات



نموذج لقبة من الطراز العربي في القاهرة

فن العمارة العربية

ماذا أخذ وماذا أعطى

المهندس صبحي كحالة

يظل فن البناء السجل الخالد لحياة كل قطر في كل عصر، والصورة الباقية التي تعكس في خطوطها اسلوب معيشة ذلك القطر وما بلغه أهله من تقدم علمي وفني وما وصل اليه مجتمعه من مستوى ثقافي وفكري. والخصائص التي تتميز بها طرازات البناء في كل مرحلة حضارية من مراحل التاريخ، وما تتسم به من مميزات، حصيلة طبيعية لتفاعل العديد من التأثيرات الداخلية والخارجية ونتيجة حتمية لمدى تلاؤم وتضارب شتى العوامل المادية والروحيـــة المؤثرة في

ابداعها وتوجيهها وما تتعرض له هذه العوامل تحت ضغط الأحداث والاحتكاك الخارجي من تغير مستمر وتطور دائم .

فالبناء المصري القديم ، وما تميز به من منشآت هرمية جسيمة ومن كتل صخرية ضخمة ، وأعمدة ثقيلة متراصة ، وما اتسم به من نقوش ورسوم فنية رائعة ، ليس الا صدى واضحاً لما كان يهيمن وقتذاك على حياة المصريين من عقيدة بالخلود والبقاء ، وايمان بقدسية الفراعنة والوهيتهم ومن نظام اقتصادي فرض العبودية على الشعب وجعل حياة الافراد وجهودهم وقفاً على خدمة الملوك والكهنة والنبلاء .

والبناء اليوناني القديم ، وما عرف فيه من تناسق في النسب وانسجام في الخطوط ، ليس الا ترديداً جلياً للنزعة الفنية البارزة التي كانت تسود عصر اليونان من تمجيد للجمال وسعي وراء الكمال في الفن والأدب وجميع مناحي العقل والتفكير . فبرزت هذه النزعة بوضوح في كل ما تركوه لنا من آثار خالدة ، كانت للاجيال من بعدهم ادق مقياس لما بلغته حضارتهم في تلك العصور من شأو رفيع .



تفاصيل مقرنصات
لمدرسة عربية في المغرب

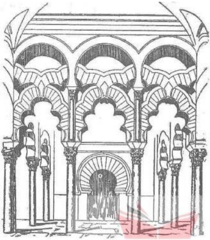
واذا تميز البنـــاء الروماني باستعمال القوس في المنشآت لاطلاق سعة الفتحات ، وبالاتساع في انواع المشاريع الهندسية العمرانية الضخمة في شتى أنحاء الأمبراطورية الرومانية الواسعة

الارجاء ، فانما كان ذلك النتيجة الطبيعية لما فرضته على الرومان أهدافهم التوسعية الاستعمارية ، من واجبات انشائية فكانت آثارهم الجبارة من بعدهم اللسان الناطق بما كان يسود حياة مجتمع ذلك الزمن من اوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية وبما وصل اليه فنهم من تقدم في استعمال المواد .

ولعل في فن العمارة العربية القديمة ، وما اتسم به من زخارف رائعة ومن نقوش ومقرنصات ومن قباب ومآذن ، واقواس مدببة وذات فصوص ، كان فنانو العرب يستوحونها من جو عهودهم الباذخة ، وبما تأثروا به من اتصالهم بشعوب الارض الاخرى ، ابلغ ما يعكس لنا صورة جلية عما كان يتفاعل في الحضارة العربية العظيمة من عوامل دينية واجتماعية ، ومن مؤثرات داخلية وخارجية ، ثم عما وصلت اليه تلك الحضارة المجيدة من رقي وتألق وازدهار .

والفن العربي هو وليد تلك النهضة العربية الشاملة التي انشقت مع بزوغ فجر الاسلام من بطحاء مكة ، في مطلع القرن السابع بعد الميلاد ، فعم نورها القسم الاكبر من العالم المتمدن آنذاك . والطراز العربي في البناء هو اسمى مظهر من مظاهر هذا الفن . نشأ ونما بنمو الحضارة العربية وازدهر بازدهارها ، وبقي حتى اليوم سجلاً رائعاً لمختلف الصفحات التي مرت عليها .

على ان فن العمارة العربية لم ينشأ وينمو ويتطور الا نتيجة تبدل جذري حصل في العقلية العربية اثر احتكاكها بالحضارات القديمة من بيزنطية في سورية ، وفارسية في العراق ، واثر تطور شامل في حاجات المجتمع العربي . فلم يكن للعرب في سالف تاريخهم ، وقد كانوا يصنفون انفسهم بين اهل وبر واهل مدر ، عهد بالضخم من البناء ، او حاجة للرائع الفخم من المنشآت . وحتى مساجدهم في صدر الاسلام بدأت كأبسط ما يكون البناء ، من جدران طينية وسقوف خشبية لا أثر فيها لروعة الفن ولا طابع من دقة التصميم . ولكن اتساع رقعة ملكهم



انواع مختلفة من الاقواس العربية المفرضة وحدبة الحصان . وتلاحظ رشاقة الأعمدة وقلة عددها بالنسبة للمعابد المصرية القديمة واليونانية .

والتغيير الشامل الذي طغى على حياتهم الاجتماعية ، وامكانياتهم المادية ، وعلاقاتهم الخارجية ، فتح عيونهم على آفاق جديدة من المفاهيم والقيم كانت مغلقة عليهم في الماضي فبدلت الكثير من نظرتهم للحياة والفن . فكان من الطبيعي ان يستمرئ امراؤهم سكنى القصور فيشيدوها ، وان يبهروا بروائع المعابد القديمة فيعمدوا الأن يبزوها ، بدافع من تمجيد ايمانهم الجديد ، باشادة ما هو افخم منها واكثر سعة ؛ وان يسعوا لحماية ما بسطوا سلطانهم عليه من الممالك والامصار فينشئوا حولها المنيع من الحصون والشاهق من القلاع ، ويعملوا على بناء كل ما يحتاج اليه ملكهم المتعاظم من مرافق ومنشآت .

ولم يكن من الغريب ، في المراحل الاولى من تطور العرب الحضاري ، أن يجنحوا نحو الاستفادة من خبرة الذين سبقوهم ، فيستقدموا لمساعدتهم في بناء ما يبنون اكثر من تواترت شهرتهم في مختلف الامصار والاقطار وقتـــذاك من

المهندسين والفنانين والنحاتين والبنائين وليأخذوا عنهم من اساليب البناء وطرق الانشاء ما سبق لهم ان اقاموا مثله في مراكز الحضارات السابقة للاسلام . وهكذا نلاحظ الطابع الروماني والبيزنطي يغلب على كثير من التفاصيل المعمارية في المساجد والقصور التي شيدها الامويون في القرون الاولى بعد الهجرة ، كما نلاحظ الطابع الفارسي والشرقي يغلب على الكثير من التفاصيل المعمارية في المساجد والقصور التي شيدها العباسيون في العراق ، أو من سار على غرارهم في غير العراق كابن طولون في مصر مثلا . وليس في مثل هذا الأخذ عن الحضارات السالفة ما يبخس من قيمة الروائع التي شيدها العرب او مايحط من شأن الفن الرفيع الذي ابدعوه . فتاريخ الحضارات يظل على مر العصور سجلا حافلا بالأخذ والعطاء . فقد سبق للرومان ان نقلوا واقتبسوا كثيراً عن اليونان وغير اليونان فيما انشأوه من بناء ، كما سبق لليونانيين قبلهم ان استفادوا من خبرة المصريين في فن البناء الحجري ورفع الاثقال ، وكذلك فان في البناء المصري نفسه آثاراً واضحة مقتبسة من البناء الكلداني والسومري يدل على مدى ما كان يجري بين حضارات العصور الاولى من التاريخ ، من أخذ وتبادل وعطاء .

والعرب في أخذهم من فنون العمارة في الحضارات الأخرى كانوا مقتبسين ولم يكونوا مقلدين ولا ناقلين . ثما لبثوا ان طبعوا كل ما أخذوه بطابع طرازهم الخاص ، واعطوه لونه ورونقه ، وكسوه ثوبه ولباسه .

فالقوس الروماني المستدير الجاف ، مثلا ، اصبح بيد فناني العرب مصدر وحي والهام ، نفخوا فيه الحياة واخرجوا منه الاقواس ذات الفصوص والاقواس الشبيهة بحدوة الحصان . ولكل منها اشكال وانواع استعملت في مختلف عصور النهضة العربية فكانت كلها وعلى اختلاف أشكالها واماكن استعمالها آية في الروعة والجمال



مئذنة عربية
من عهد المماليك في القاهرة

والقباب الفارسية والبيزنطية الدائرية التقليدية، باتت في يد العرب مبعث تفنن وابتكار. أكثروا في تنويع اشكالها بين كروية ومخروطية وتمكنوا، بتمديد مراكز استداراتها وتغيير اوضاع وابعاد محاورها، وبالباسها اثواب مزركشة من الزينة والنقوش والتخطيطات المزخرفة في الداخل والخارج، ان يبدعوا انماطـاً جديدة من القباب ما فتئت تميز الطراز العربي الاسلامي للعمارة بلون زاه جديد من طرق البناء لم يسمُ قبل المد العربي في القرون الوسطى الى مثل هذا المستوى الرائع من الجمال.

والأعمدة الثقيلة الضخمة المتراصة التي اكتظت بها معابد الكرنك في مصر والاكروبول في أثينا، مثلاً، تطورت بين أيدي الفنانين في العمارة العربية الى حوامل رشيقة للبناء تتميز بخفة لا يشوبها ضعف وبجمال وانسجام لا ينقصه متانة أو مقاومة.

على أن عبقرية العرب في فن العمارة لم تقف عند حد الابداع في الاقتباس، والمهارة في التكييف فحسب، بل تفتحت عن ألوان زاهية جديدة من اساليب البناء ما كانت معروفة قبل نمو الحضارة العربية، ولا كانت ذائعة قبل انتشار الاسلام. ولئن احسن العرب في الأخذ، فانهم كذلك لم يقصروا في حسن العطاء.

فقد كان العرب أول من بنى المآذن والمنائر وتفننوا فيها. ومآذن المساجد في العمارة العربية في الواقع تختلف اختلافاً كلياً، من حيث الشكل ومن حيث التفاصيل الفنية والانشائية، عن ابراج الكنائس عند الرومان، او أبراج البابليين والصومريين

اللوبية في التاريخ القديم . ولعل أبرز ماييز كل بلد عربي واسلامي عن سواه من بلاد العالم ، ويضفي عليه ذلك الطابع الروحاني الشرقي الخاص به، هو تلك المآذن والقباب المتناثرة برشاقة خلابة في خط أفقه العريض ، والمرتفعة شامخة الى السماء .

والعرب كانوا اول من استعمل الحجارة المختلفة الألوان في البناء الواحد ، وكانوا اول من أدخل المقرنصات « الاستالاكتيت » . ويقول بعض المؤرخين انهم كانوا اول من برز بالشرفات في البناء — حتى ان المؤرخ لامبري في كتابه « كل طرق البناء» يذهب الى ان كلمة «بلكون» الفرنسية مشتقة أصلا من اللغة العربية(١).

على ان أروع ما افتر عنه العرب من مبتكرات في فن البنـــاء هي تلك الأساليب الجديدة التي استحدثوها في فن الزخرف الهندسي والتزيين . فمن خطوط ومنحنيات متشابكة بسيطة ، متنوعة الاشكال والمقاييس ، تمكن العرب ان يخلقوا فناً رائعاً من الزخـــارف والنقوش مازال يعتبر حتى اليوم ، ورغم بساطته المتناهية ، آية الابداع في جماله ودقته وسحره وعذوبتـه . ولا بد انه كان لتأثير تعاليم الاسلام يد في ابتداع هذا الفن . فعبقرية الفنانين التي حيل بينها وبين فنون الرسم والنحت ، مالبثت ان وجدت مخرجاً لها في فن زخرفة البناء ، فنبغت فيه وسجلت مآثر خالدة لاتمحى .

ولم ينحصر تألق الفن العربي في البناء واستعماله ضمن نطاق البلاد العربية . بل انتشر في جميع الاقطار الاسلامية كما امتد اقتباسه الى جميع البلاد التي احتك العرب بها واتصلوا معها . وقد نتج عن اختلاف بعض مواد البنـــاء وتباين بعض الأساليب المعارية المحلية في مختلف مراكز الحضارة الاسلامية ان تفرع عن الفن الاسلامي مدارس خمسة:(١) السورية المصرية (٢) العراقية الفارسية (٣) المغربية

(١) ولعلها مشتقة من « الكة » وهي لغـة جناح يخرج من حائط اوسقيفة ، اوظلة تكون فوق باب الدار ، اورف في البيت « المنجد » .

الاندلسية (٤) العثمانية (٥) الهندية . ورغم انه كان لكل من هذه المدارس ميزات خاصة تفرقها عن اخواتها ، سواء من حيث الشكل او من حيث التفاصيل المعارية والانشائية ، الا أن كثيراً من السمات البارزة المشتركة التي اشتهر بها الفن الاسلامي قد أضفت عليها طابعاً من الجلال والاناقة والرشاقة جمع بينها كلها وميزها بوضوح عن طابع الضخامة والقسوة الذي عرف به الأسلوب الروماني . ولعل الفارق بين الاسلوبين من هذه الناحية كان نتيجة مباشرة للفارق بين البيئتين ونفسية المجتمع في كلا الامبراطوريتين .

وكما أخذ العرب واستفادوا من الحضارات التي سبقتهم ، ومن خبرة البنائين والمهندسين في البلاد الاخرى ، فانهم لم يبخلوا حين باتوا سادة العالم المتمدين في صدر حضارتهم ، عن امداد بلاد العالم حيثما شاء ابناؤها اشادة الباذخ من البناء بخبرائهم من مهندسين ونحاتين وبنائين . ومن هنا نرى كيف تسرب الكثير من تأثير العمارة العربية بأقواسها المتنوعة وزخارفها المشرقة الى البناء القوطي في الغرب والى بناء عصر النهضة « الرنسانس والباروك فيما بعد » . وكيف برزت آثار التراث العربي الخالد في كثير من المنشآت التي شيدت في تلك العصور وما بعدها في اسبانيا وصقلية وفرنسا وايطاليا وغيرها من بلاد الغرب .

وبهذا تكون قد اكتملت حلقة احدى الدورات التاريخية الكبرى من التبادل الحضاري ، المتكررة في سير التاريخ التصاعدي الطويل الى الامام . فلئن كان من الحق ان فن العمارة العربي لم ينشأ وينمو الا بالكثير مما أخذ عن الحضارات الأخرى ، الا انه من الحق ايضاً ان هذا الفن بتطوره وتقدمه مالبث ان شب عن الطوق ، فابتكر وابدع ، وثم عاد فأعطى . وما كان عطاء الفن العربي ابداً بأقل قيمة وروعة من أخذه واقتباسه ، ولا كان أثره في اغناء التراث الحضاري ، وفي اضفاء معان زاهية جديدة لمفاهيم الفن العالمي ومقاييس الجمال بأقل عمقاً ونفاذاً من أي أثر سواه .

إحياء تراثنا الشعبي بالفن

بقلم : سامي الكيالي

الصلة بين الفن والتراث الشعبي صلة جد وثيقة . وهي قديمة موغلة في القدم وربما امتدت الى أبعد حدود الزمن .

فالنزعة الفنية عند الموهوبين هي التي كانت تفرض عليهم الابداع في الألوان التي تستهويهم وتطمئن ميولهم وأحاسيسهم في تذوق الجمال ..

ومن هنا، عاش الكثير من الفنون في الاوساط الشعبية ، فكانت القصص والحكايات والاساطير والرقص والغناء ، وألوان مختلفة من الازياء والتزاويق والصناعات التي تعبر عن ثقافتهم وميولهم — الميول الدينية والجنسية معاً ، وتعبر أصدق تعبير عن وجدانهم القومي .

وقد انتقلت هذه الفنون من عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، وظلت محتفظة بأصالتها لا تمتد اليها يد التحريف والتشذيب ما دامت في بيئاتها التي ترعرعت في حماها .

على ان مدنية العصر المادي التي امتدت امتداداً بالغ الأثر الى كل بقعة من بقاع العالم أخذت تداعب بسحرها هذه الفنون والتزاويق والصناعات حتى كادت المداعبة تصل الى الضم والعناق بل الى الصهر والتذويب !

ومن هنا ايضاً انبثقت صيحات من عالم الغرب الذي جاءنا بحضارته المادية — انبثقت صيحات مخلصة تريد الحفاظ على هذه الالوان والمظاهر والفنون التي يتمثل فيها الكثير من خصائص الشعوب وهي من الغنى والوفرة والجمال بما لا يتصوره انسان .

نعم ، حين طغت مدنية الغرب بشتى ظواهرها كاد هذا التراث يتقلص لولا فئات قليلة ورثت هذه الفنون عن اسلافها، أباً عن جد، فظلت حريصة عليه، حرصها على أقدس شيء تملكه ، ترعاه وتغذيه بدمها واحساسها وأعصابها ولو عاشت على الطوى ، وفي جحيم الفقر والحرمان .

وقد ظلت فنوننا الشعبية منذ انبلاج فجر القرن العشرين الى يومنا هذا — ظلت في معزل عن كل بحث ودرس ورعاية ، حتى اذا أخذ بعض رجالات الفكر والفن يبحثون هذا التراث على ضوء عناية مختلف الامم بفنونها الشعبية فتنبهنا الى ماعندنا من فنون أصيلة ترجع الى مئات السنين وآلافها ، وهي ما تزال حية نابضة ، محتفظة ، والحمد لله ، بأصالتها .

٢ — وقبل ان اتناول هذا الموضوع الذي اقترحه علي الصديق الزميل الاستاذ الشايب رئيس تحرير هذه المجلة — قبل ان اتناوله بالبحث اريد ان اسجل كلمة لا بد منها عن صلتي بالفنون الشعبية — هذه الصلة التي كانت الى سنوات قريبة طارئة . وقد أجهل الكثير عن ألوانها وخصائصها ونظمها وكيف انصرف الاخصائيون لتحقيق أصولها حتى أصبحت علماً يدرس بالجامعات ، واصبح لها

مدارسها وروادها ونشراتها ومؤتمراتها وهي كل يوم تزداد شأناً ، وتزداد البحوث عنها كما انكشفت ظاهرة من ظواهرها المهملة أو الدفينة .

نعم ، ان صلتي بها كانت ، الى فترة غير بعيدة ، طارئة . ففي مطلع عام ١٩٥٨ سمي غير واحد من اكابر ادبائنا ومفكرينا الى عضوية المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وكنت احد اولئك الاخوان — الاقل معرفة، ولا علي ان اقول الأصغر شأناً — وكان لا بد من تسمية مقررين للجان المجلس — للشعر والنثر والتاريخ والترجمة والتبادل الثقافي وللفنون الشعبية ، وحالت بعض ظروفي الخاصة ان احضر هذه الجلسة ، وتقسم الزملاء رئاسات هذه اللجان كمقررين لها ، وكان لا بد من ان يعهد الي كعضو أصيل برئاسة احدى اللجان ، ومع انني عشت طوال حياتي مع كل ما يتصل بالادب والتاريخ وشؤون الفكر والثقافة ، وكان بوسعي ان اضطلع بعبء احدى هذي اللجان ، الا ان صديقين عزيزين ارادا ان يمكرا بي فاقترحا ، او اقترح احدهما الا كثر حباً ومكراً ، ان تعهد الي رئاسة لجنة الفنون الشعبية كمقرر لها .

وحين التقينا في اول جلسات المجلس الاعلى ، تبادلنا الابتسام المشوب باهاب رقيق من مكر الاصدقاء .. وتقبلت هذا المكر راضياً ، وكان لا بد من الولوج الى غمار الموضوع بثقة واطمئنان .

٣ — من هنا بدأت صلتي بالفنون الشعبية فأخذت ادرس وابحث، وقدهالني ان أجد آفاقا وعوالم واسعة من صميم ذاتنا وكياننا ومجتمعنا وتقاليدنا وقوميتنا وعروبتنا متأصلة تأصلا محكماً في هذه الفنون الفريدة التي كادت تبتلعها مادية العصر الآلي .

وان من يتابع دراسات الفنون الشعبية في عالمنا العربي المترامي الآفاق يتحقق له ان الأمة العربية في شتى مناطقها واقطارها وفي القطر الشامي بصورة خاصة — ان هذه المناطق تعج بالكثير من هذه الفنون ، ومازال في شكلها

البدائي ، محتفظة بأصالتها ، وهي من الوفرة والغنى والتنوع والطرافة أكثر مما تتصوره اذهاننا وخيالنا .

فمن صميم هذه الفنون انبثقت حضارات ، وازدهرت مدنيات ،وتكونت ثقافات ، وابدعت صناعات ، وهي في عميق جذورها مازالت ترمز الى الوان تلك الحضارات التي عاشت عبر القرون ، ومازالت ، رغم غبار الزمن الكثيف الذي يطمرها تحت سجفه — مازالت محتفظة بروائها واصالتها ..

٤ — وقبل ان نبحث وسائل احياء تراثنا الشعبي اريد ان ازيل خطأ شائعا من أذهان الكثيرين الذين يظنون ان الفنون الشعبية هي الرقص والغناء ولا شيء غير الرقص والغناء فلا تكاد تذكر حتى ينحدر بها بعض المفكرين الى مستوى غير رفيع لا لشيء الا لأنها فن الشعب الاصيل !

والواقع ، ان الفنون الشعبية لا تقتصر على الرقص والغناء فحسب بل تتناول الكثير من المظاهر والفنون التي يمارسها الشعب سواء ما كان منها ذا اثر روحي او مادي . .

فالرقص والغناء والموسيقى ومايصاحبها من فنون القول كالزجل والموال والاناشيد ، ثم الحكايات والقصص والاساطير والامثال والنوادر والالغاز ، ثم الزخرفة والوشم والنقش واشغال الفخار والجلد والمعادن والزجاج والنقش على الحجر وحفر الخشب وتلوينه والتنزيل والتصديف والفسيفساء والتطعيم ،ثم التطريز والازياء والاثاث والصناعات المختلفة التي يمارسها القرويون — كل ذلك وغيرها مما يبدعه ابن الشعب ، ويرمز الى فنون اصيلة في حياته وحياة مجتمعه خلال فترات طويلة من الزمن ويصور الكثير من خصائصه وعاداته — كل هذه الفنون أطلق عليها علماء الغرب كلمة « الفولكلور » والاصح ان العالم الانكليزي

ويليام جون تومز هو الذي اطلق هذه الكلمة وقد صاغها من لفظتين هما «فولك» بمعنى الشعب او الصنف من الناس ، و « لور» بمعنى الحكمة .

وكان معناها ، عند اعلانها غامضا غير محدد .

ومنذ اعلانها هاجرت هذه الكلمة الى اوربا ، وترددت في المانيا وايطاليا وفرنسا وروسيا .

وانقسم المشتغلون بدراسة المأثورات الشعبية حيالها الى فريقين :

فريق يدعو الى اطلاقها على هذا العلم الجديد الذي جاء به العصر الحديث ونعني به علم المأثورات الشعبية .

وفريق آخر يدعو الى ان تستخدم كل لغة من لغات اوروبا،الاصطلاح المأخوذ من مفرداتها هي . وعلى هذا النحو ظهرت كلمات المانية وفرنسية وايطالية تقابل الكلمة الانكليزية او تعارضها (١) .

وبالرغم من كل التعاريف التي وضعت ظلت كلمة « الفولكلور » هي الشائعة على الالسن لدى جميع امم العالم .

أخذ بها العلماء وأقرتها المعاهد والجامعات وهي تعني دراسة كل مايتعلق بعادات الشعوب وتقاليدها ، بمجموع معارفها : مروياتها وعاداتها المأثورة،معتقداتها الوهمية ، واساطيرها ، لغاتها ، تطيرها وتنبؤاتها ، وحياتها اليومية وما يتصل بذلك من مأكل وملبس وأثاث وزينة وغير ذلك مما يمثل حياة الشعب ويمثل الفنون التي يمارسها اصدق تمثيل .

لا اريد ان اتوسع في الحديث عن هذه الظاهرة في حياة الشعوب والتي اعطتها الحكومات والهيئات العلمية الكثير من عنايتها وخصصت لها الكثير من

(١) الفنون الشعبية لرشدي صالح ص ٣١

من المبالغ للانفاق على معاهدها ، وفتحت لها المجالات الواسعة للبحث والدرس والتسجيل والحفاظ على صورها الاصيلة فحسبي القول ان البلاد العربية وفي طليعتها مصر وسورية ولبنان والكويت، وربما غيرها من الاقطار قد التفتت الى هذه الظاهرة واخذت توليها الكثير من عنايتها، ولا اشير الى مايقوم به المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وما تقوم به وزارة الثقافة والارشاد القومي التي جعلت العنـــاية بالفنون الشعبية ، ومد المشتغلين بها بشتى الامكانيات بعض اهدافها .

٥ — هذا التراث الشعبي الأصيل كيف نعمل على احيائه بالطرق العلمية والوسائل الفنية ؟

ليس لنا الا ان نسير على نفس الطرق التي سـار عليها غيرنا من الامم المعنية بفنونها الشعبية والتي لاتزال تسير عليها .

والطريقة المثلى هي العمل على تسجيل هذه المأثورات كما عرفت في بيئاتها الشعبية وعلى لسان الاصلاء من البقية الباقية من رجالات السلف .

ولهذا التسجيل طرقه وهو ارسال البعثات العلمية والخبراء الفنيين الى شتى المناطق التي تعج بهذه المأثورات ، وتزويدهم بجميع الامكانيات حتى اذا استطعنا ان نملك هذه المأثورات سواء بالكتابة او بالتسجيل الصوتي عدنا الى تصنيفها وعملنا بطاقات لها وشرح كلماتها أي توضيح رموزها باللغة الفصحى اذا دق فهمها باللغة الشعبية الدارجة .

ولئن خطت مديرية الفنون الشعبية في وزارة الثقافة والارشاد القومي خطوات واسعة في هذا الميدان الا اننا لانزال في بداية الطريق ، فسورية مليئة بشتى الوان الفولكلور ، ولا يستطيع افراد مها أوتوا من العلم والذكاء والخبرة والامكانيات ، ان يقوموا وحـدهم بهذا العمـــل ، ولا بد من بعثات

تطوف ارجاء سورية، مدنها وريفها وصحاراها، بدوها وحضرها والمناطق التي تقطن في ربوعها بعض الأرومات غير العربية التي لاتزال تحتفظ بتقاليدها رغم استعرابها.

وهذا عمل لا يمكن مسح قطاعاته ، في سنة اوسنتين ، بل يحتاج الى سنوات مع توفر شتى الامكانيات ، وبدهي انني اتكلم هنا عن الاغاني والرقص والموسيقى والحكايات والقصص والاساطير ، وتملك سورية مجموعة ضخمة من هذه الالوان الشعبية الاصيلة التي ترمز الى وجدان الامة وخصائصها المتميزة في شتى المجالات . ومتى انتهينا من هذه العملية بدأ الفن ، او بدأ الفنانون اعمالهم.

هل يعمد الى التطور ام يحافظ على الاصالة ؟

لقد اختلف الباحثون في هذا الموضوع فمنهم من يحرص ان يحافظ على الاصل مع ادخال تطوير بسيط دون ان يمس الجوهر . ومنهم من يرى ان التطوير بمدلوله العميق ، لا بد منه لمجاراة العصر في شتى نزعاته التطورية .

والرأي السائد ان التطور عملية لا بد منها شريطة ان لاتخرج عن الأصالة التي ترينا الملامح والسمات المعبرة ، والتي ترمز الى العصور التي عاشتها .

ففي ميدان الرقص مثلاً نأخذ رقصة « السماح » التي يعتبرها الكثيرون « باليه العرب » هذه الرقصة انتهت الى الفنانين القدامى كما عاشت عشرات السنين، ثم لامستها جذوة التطور فأخذت ألواناً جميلة من اطارها الفني . . ولكن هذا التطور قد تهلهل حتى كادت الرقصة تخرج عن اصالتها بل كادت تميع ..فما من مدرسة او معهد او ناد الا وله فرقته . ويلاحظ الفنانون الأصلاء ان رقصة كل فرقة تختلف عن زميلتها من حيث الحركات والخطوات والنغمات والأغنيات والملابس ، فاذا مرت بضع سنوات على هذا التطوير الذي لا يقوم على أسس فنية أخشى ان تنتهي رقصة السماح الى رقصة قريبة من الشارلستون !

وفي هذا خطر أي خطر على فنوننا الشعبية(١).

وما أقوله عن الرقص أقوله عن الغناء والموسيقى والازياء والمصنوعات وغيرها وغيرها، فالتطوير لا بد منه، وانا من القائلين بالتطور، ولكن شريطة ان لا يخرج عن اصالته.

ففي هذه الفترة من الاهتمام بفنوننا الشعبية لا بد من الاستعانة بالخبراء.. ولا بد من وضع المناهج والدراسات التي تقوم على أوضح مبادىء الفن والا وقعنا في حيرة وتخبط وارتباك، وذهبت كل محاولاتنا ادراج الرياح.

---

(١) اصل رقصة السماح نشوة استجمام كان الصوفيون يمارسونها بعد حلقات الذكر التي يغيبون فيها عن الوجود، ولاسيما في الفترات التي يصيبهم فيها التعب، فكانوا بعد صحوتهم، وقبل ان يعودوا الى حلقات الذكر، يرقصون هذه الرقصة التي تدور في نطاق من الشعور الديني الذي يصرفهم عن زخارف الدنيا.

وعلى لسان الكثيرين من شيوخ حلب وائمة الفن ان اول من اخرج رقصة السماح من نطاقها الديني الشيخ محمد العقيلي المنبجي سنة ١٨٨٠م فقد صادف في تلك السنة انحباس المطر فخرج الناس الى الحقول والبراري يطلبون من الله العلي القدير الغيث ويصلون صلاة الاستسقاء وعقب الصلاة اخذ الشيخ العقيلي ينشد وتلامذته قصيدة دينية مطلعها:

مولاي اجفاني جفاهن الكرى
والشوق لاعجه بقلبي خيما

ومنها: اسق العطاش تكرما
فالعقل طاش من الظما

وما كادوا ينتهون من انشادها حتى انهمر المطر مدرارا، فاعقبوها فرحين بموشحات حلبية تبدأ من ذات الايقاع البطيء وتنتهي بالموشحات ذات الايقاع السريع. ثم نقل هذه الموشحات الى المجتمعات المرحوم الشيخ عمر البطش الحلبي.. وهكذا، تطورت من مجتمعات الصوفيين الى تضرعات المستغيثين، الى مظاهر الرقصة الشائعة اليوم.

الى القـــراء

هذه الصفحة نخاطب بها القراء ، ونرجو ان تكبر بتآسيها معهم ، وتغدو صفحات . فالمجلة هـــذه ، إنما يسهم قراؤها في ملكيتها فعلاً ، بقدر مايستطيعون ان يرفدوها به من رأي ، ووجهة نظر ، او اي كلمة حق تقال .

وليس من حرج في ان يبدي اي قارىء رأيه ، او يقول قوله ، لأن الهدف الأول الذي تنزع اليه «المعرفة» هو بلوغ التفكير منزلة الرأي ، في قضية أدبية ، اوفنية او اجتماعية ، والرأي تعبير عن أعلى مراحل التفكير ، كما هو توضيح لأفضل خصائص الانسان ، عندما يتوفر له اليقين بأنه كفرد ، ذرة تتكامل بها ثقافة مجتمعه ، وحضارة أمته .

بل الحرج كل الحرج ، للمجلة وللقارىء ، الذي يحرص على عونه وابدائه ومشاركته ، أن يصدر الرأي عن الهوى ، فيأتي التقريظ ثوباً خليعاً او النقد تقريعاً وتجريحاً .

وليس الاعراض عن الهوى بدعوة الى التخلي عن العاطفة والوجدان ، أو إلى إهمال سهمهما في تقويم الأثر الأدبي او الفكري عامة ، لأن هذا الأثر اذا لم يكن مزاجاً وفكرة فليس من الأدب والفن في شيء . انما الهوى أن نتعسف ، ونعبث بميزان العدل ، ونحن على يقين من أن العقلية العربية تتميز بأنها عقلية منظمة بالعدل والاعتدال ، مضبوطة بضوابط التهذيب وعدم الجنوح ، والرجـل المهذب ، عادل مع نفسه ومع الآخرين . ومن أولىمن المفكرين ، بأن يحملوا في اول مايحملونه ، سمات العقلية العربية : سماتالقسطاس والتوازن.

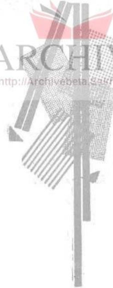
كلمة نوجهها الى كل قارىء عربي ، ونرحب بآرائه وافكاره ، في مجلته .

(المعرفة)

مجلة المعرفة

مع

التيارات الفكرية العربية والعالمية



ثورة ورجل

تأملات في كتاب الدكتور فانون عن (السنة الخامسة لثورة الجزائر)

تقديم وعرض: الدكتور جمال أتاسي



الدكتور فرانز فانون

ماهي أبعاد هذه الثورة التي بدأت صعودها في الجزائر منذ سبع سنوات ونيف وما زالت تتسع وتشتد فتغير حياة المجتمع ، وتبدل علاقات البشر ، وتصنع حياة جديدة وقيما جديدة ؟

من اين بدأت هذه الثورة والى اين تمضي؟

ماالذي احدثته وما الذي ترمي الى تحقيقه؟

لقد نشبت هذه الثورة في قطر عربي متخلف ومستعمر ، فقامت تطالب باستقلال وطن وبحق شعب في ان يقرر مصيره ، ووراء هذا المطلب المباشر سارت حركة ثورية جذرية اخذت تبدل مجتمعاً بأكمله وتغير حياة الناس وافكارهم وعاداتهم

بدأت ثورة وطنية بسيطة وكأنها ثورة تجريبية تفتش عن طريق النجاح . وبدأت ثورة محاصرة يطبق عليها عدوها من كل جانب ويعمل في داخل المجتمع الجزائري تهديماً وتخريباً . فكان لابد لها من ان تعتمد على نفسها ومن ان تواجه وحدها مصيرها . ولكنها بدأت ثورة جذرية منذ ان عرفت طريقها الى قلب الشعب فرسخت قواعدها في صميم مجتمعها ، وارتفعت الى اعلى مستوى يمكن ان ترتفع اليه ثورة وطنية واجتماعية وسياسية حديثة .

وسنحاول الان ان نستعرض هذه الثورة من خلال كتاب عنها هو « العام الخامس من ثورة الجزائر » وأن نعرف شيئاً عن تجربة رجل غير عربي عاش هذه الثورة والتقى معها التقاء كلياً واعياً . انه مؤلف هذا الكتاب : الدكتور فرانز فانون .

* * *

في أمسية من أمسيات تشرين الماضي ١٩٦١ جمعتني في مدينة ليون مع فريق من اطباء النفس الاوروبيين ، حلقة بحث دار النقاش فيها حول ثورة الجزائر والموقف الذي يلتزم به كل انسان تجاه هذه الثورة .

ودار الحديث بيننا حول موقف الاستاذ **فرانسيس جانسون** ذلك المفكر الفرنسي ، الذي قال بالالتزام الحر وآمن بالثورة الكلية ونظر الى اليسار في بلاده وهو يخون قضية الثورة الاشتراكية فلا يبرهن في موقف جريء حاسم على الانفصال عما يربطه من روابط موضوعية بالاستعمار الفرنسي في الجزائر . ووجد ان خير سبيل يسير فيه لطرح هذه المشكلة ولتطبيق ايمانه الثوري ، هو في ان يحقق ذلك عملياً في حياته وان يشارك فعلياً في ثورة الجزائر فانخرط في شبكة سرية تعمل لصالح هذه الثورة، وهو اليوم طريد لما يسمونه « بالعدالة » في دول اوروبا الغربية !

وتطرق الحديث الى مواقف **جان بول سارتر** من ثورة الجزائر وانتصاره لها ،وتأييده العنف الثوري . لقد قرر سارتر بوعي صارم ان اليسار في فرنسا اصبح عاجزاً ، وان اليمين يدفع في طريق الفاشيستية العسكرية ، وليس مايوقف هذا التيار الا انتصار ثورة الجزائر وتحطيمها للجهاز الاستعماري البوليسي والعسكري ،وبهذا المعنى يرى ان انتصار ثورة الجزائر ليس تحريراً للجزائر وحدها بل هو تحرير لفرنسا ذاتها .

وجئنا اخيراً على حديث **فرانز فانون** ووقفنا طويلاً عنده . ان فانون طبيب نفساني عاش سنوات من حياته الدراسية والمهنية في مدينة ليون . وكان في عداد حلقتنا اكثر من زميل واحد عرفه ، وعمل معه في كلية الطب والمستشفيات . وأردنا ان نعرف المزيد عن هذا الرجل ، الذي ذهب في التزامه الثوري الى ابعد مداه .

جاء هذا الرجل الملون من المارتينيك ، من مستعمرة فرنسية يحمل أهلها الجنسية الفرنسية .

ودرس الطب وتخصص في الطب النفسي من فرنسا في مدينة ليون بالذات ، وانتقل منها ليعمل في الجزائر . وهناك ترأس مستشفى الامراض العقلية في مدينة « بليدا » . كان فانون جم المعرفة ، انيقاً في هندامه وكلامه ، كثير الحيوية والنشاط وكان يتمتع فوق ذلك بقدرة كبيرة على البحث والتأمل والمشاهدة ، وجاء في ممارسته لمهنـــة الطب النفسي لينفذ الى ماوراء المظاهر وليعيش حياة النـــاس وأزماتهم وأمراضهم ، فيعرف دوافعها ومبرراتها . ولقد عاش في نفسه وفي دراسته لمشكلات الآخرين ، حقيقة الاستعمار وما تقوم عليه عملية الاستعمار من تزييف للعواطف والافكار ومن تفكيك للروابط الاجتماعية ومن تشويه للعلاقات الانسانية .

وتحدث من زامل فانون ، عن مراحل حياة هذا الطبيب الشاب . وعن طابع الثورة والتمرد الذي طبع حياته كلها ، وذكر نتفاً من اخباره تعبر عن روح العنفوان التي كان يواجه بها من يحيط به من اطباء فرنسيين ، وما كان يحمله من احتقار وتحد لـكل من لايبرهن منهم على تنكره الـكامل للسلطة الاستعمارية .

لقد رافق فانون ثورة الجزائر منذ بدايتها ، وآمن بأنها ثورة جذرية ، وانها ثورة انسانية اصيلة لن تنحصر في ارضها وشعبها ، بل سيكون لها انعكاساتها على افريقيا كلها ؛ وعلى الشعوب المستعمرة والمتخلفة جميعها . وآمن فانون بأن الثورة هي الطريق الوحيد الى تحرير الانسان وان العمل الثوري الدائم هو السبيـــل الى ان يتجاوز الانسان وضعه والى ان ينتقل من العبودية والضياع الى الوجود الحـــر الكريم . فانضوى فانون تحت لواء ثورة الجزائر ؛ ملتزماً بـكل ما تفرضه هذه الثورة على مناضليها من سلوك ومن اعمال واطمأنت قيادة الثورة الى هذا المناضل الكبير ففتحت له قلبها فأصبح محرراً في «المقاومة الجزائرية » وفي « المجاهد » وحين تشكلت الحكومة الجزائرية الموقتة ، أوفدته رئيساً لبعثتها السياسية في غانا . وكان المرض الخبيث قد بدأ يأكل دمه ، وراحت قوى الجسد تخبو وتضعف ليحافظ الفكر على نزاهته ووضوحه . كان فانون يعرف ، والثورة ما زالت في عامها الخامس انه لن يعيش طويلا ، وان مهمته ان يقول كل ما يمكنه قوله عن تجربة هـــذه الثورة فكتب « العام الخامس من ثورة الجزائر » وراح يناضل بأفكاره في سبيلها بمختلف الوسائل ، الى ان أقعده المرض ونقل من سويسرا الى أحـــد مستشفيات واشنطن ، وانجز في هذه الفترة كتابه الاخير « الملعونون على الارض » ، مبشراً فيه برسالة العنف الثوري ، داعيا شعوب العالم الثالث ، الشعوب المتخلفة والمستعمرة في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، الى توحيد نضالها في سبيل تحقيق التحـــرر الكامل . وكانت ثورة الجزائر هي النموذج الحي الذي يستمد منه رسالته وافكاره .

وفي السابع من كانون الاول عام ١٩٦١ نفذت برودة الموت بخطى بطيئة الى قلب فانون وانتهى الرجل وهو لم ينجز الاربعين. وحملت الطائرة جثمانه الى تونس؛ ومن هنـــاك اخترق المجاهدون بنعشه الحدود؛ ليدفنوه وهو ملتف بالعلم الجزائري، في تراب الجـــزائر؛ عند مرابض المقاتلين.

واعود اليوم الى كتاب فانون «العام الخامس من ثورة الجزائر»؛ لأنطلع من خلال فانون وكتابه الى هذه الثورة التي لم نستطع ان نعطيها نحن العرب، لا من فكرنا ولا من حيـــاتنا؛ ما اعطاها هذا الغريب الثائر، من فكره ومن نفسه. كما لم نستطع ان نأخذ عنها ما اخذه فانون: التجربة الحية التي يعيشها إنسان في قلب المعركة المستمرة.

في المقدمة التي كتبها جان بول سارتر للمؤلف فانون الأخير «الملعونون على الأرض» قال سارتر مخاطباً الأوروبيين: «كونوا جريئين واقرءوا هذا الكتاب، فلعله يجعلكم تخجلون من أنفسكم؛ ومثل هذا الخجل بذاته شعور ثوري. أيهـــا الأوروبيون إنني اسرق كتاب رجل خصم وأضعه امامكم، لعـــلي استطيع ان ادل به على وسيلة لعـــلاج اوروبا وشفائهـــا، فانتهزوا الفرصة.. لاتظنوا ان في نفس فانون تعطشاً للعنف يدفعه اليه حرارة دمه او عذاب عاناه في طفولته، فما هو إلا رجل يشرح لنا وضعاً ويتخذ موقفاً..»

امـــا نحن العرب، الذين عشنا تجـــربة التخلف والاستعمار، سواء في ارضنا او فيما يعانيه الشعب العربي في اقطار اخرى، فان فانون يحدثنا حديثاً آخر، ويدلنا من خـــلال تجربة قائمة، الى طريق التحرر وطريق الحياة. يحدثنا عن الثورة التي انطلقت في مجتمع عربي هو هو الجزائر، وواجهت عنف المستعمر وارهابه فردت عليه بالنضال والعنف، وزلزلت عمليـــة الثورة مجتمع الجزائر زلزالاً شديداً، فمزقت الروابط القديمة والمفاهيم السابقة وحركت اشياء ذلك المجتمع كلها عن مواضعها ووضعتها على ارض المعركة، ووحدت الشعب الذي يعاني جميعه البؤس والاذلال والاستبداد لتنتقل بهذا الشعب كله الى طور انساني جديد، من السلوك ومن الفهم والوجود، ما كان لغير الثورة ان ترقى به اليه.

ويدخـــل بنا الدكتور فانون في خضـــم الصراع، ويقودنا في ارجاء المجتمع الجزائري، ليرينـــا كيف دار هـــذا الصراع بين المستعمر والمستعمر في الماضي، وكيف تحول بعملية الثورة. وليرينا اشكال المقاومة التي كان يجيب بها مجتمع، يريد الحفاظ على وحدته القومية، على تشبث الاستعمار بدمج الجزائر العربية بفرنسا. ومن الصراع تنشأ اوضاع وتتحدد نقاط للمقاومة والاحتـــكاك، ويأتي الفقر والذل والموت، ثم يأتي العنف والحقد والتمرد، وفي بوتقة النضال الثوري الدامي تلد حياة جديدة لمجتمع متجدد.

تلك هي قصة الثورة في كلمات فكيف كانت البداية ، وماهي الميادين التي جرى فيها الصراع؟ لقد عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال اكثر من قرن على دمج الجزائر بفرنسا ، وعلى محو جميع المميزات العربية للمجتمع الجزائري ، فأراد الاجهاز على تقاليده وكل مايربطه بماضيه وأراد إبدال لغة اهله بلغته الفرنسية والقضاء على ثقافتهم ، من غير ان يترك امامهم منفذاً سليماً الى ثقافة الغرب وحضارته .

لم يكن امام الجزائري منطلق حر واضح الى المستقبل ، وجاءته الدعاية الاستعمارية تبشر بقيم مجتمعها ، وجاءته ثقافة الغرب وتكنيكه في ثوب الدخيل المتسلط ، فكان جوابه عليها الرفض ، ورد عليها بالمحافظة والرجعة . وهناك الاستعمار يجس نقاط المقاومة والدفاع ليوجه ضربته اليها .

ان الجزائري يحافظ على نظام الاسرة في شكلها الابوي القديم ، وهو يحجب امرأته عن الغرباء ، وهذه العزلة تحمي الجزائري وأسرته من الاندماج بمجتمع المستعمرين . فركز الاستعمار حملته على الوضع الرجعي المتخلف للأسرة الجزائرية ونادى المرأة الى رفع الحجاب والتحرر والى الدخول في مجتمع المدارس والحفلات والزيارات المختلطة . كان هدف الاستعمار من هذه الدعوة تهديم حصن من حصون مقاومة الدمج . فرد الجزائري بالاصرار على حجاب المرأة وعلى سلطة الأب المطلقة وأقام بين اسرته وبين مجتمع المستعمرين سياجاً من المحرمات .

وفي مختلف المجالات ، سخر الاستعمار وسائل الدعاية والثقافة والتكنيك لتركيز دعائمه وتبرير وجوده ، ولكن الجزائري الذي رأى في هذه الوسائل كلها ، اداة تعمل على تفكيك قوميته وإفساد مجتمعه ، راح يصر على الاحتفاظ بشخصية الجزائر القديمة . واستمرت المقاومة احيالاطويلة . ونوع الاستعمار وسائله وشدد الضغط ، وكانت في الجزائر دائماً انتفاضات وردود ، الا انها ظلت تدور في دوامة المحافظة والدفاع الى ان كانت هذه الثورة التي اخرجت المجتمع بعملية العنف من قوقعة التقاليد الجامدة ونقلت الجزائري من الدفاع الى الهجوم ومن المحافظة والرجعة إلى التقدم والوثبة .

* * *

تحت عنوان «الجزائر تسفر» بحث فانون في الفصل الأول من كتابه التبدل الذي طرأ على حياة المرأة خاصة وعلى حياة الأسرة الجزائرية عامة ، من خلال الصراع مع الاستعمار ومن خلال عملية الثورة .. بحثها من خلال ظاهرة موضوعية في حياة المرأة هي الحجاب ، قال :

« لقد كان حجاب المرأة ، إلى جانب عددمن المظاهر الأخرى لحياة المجتمع الجزائري ، هدف معركة ضخمة جند لها الاستعمار الكثيرمن وسائله. لقد وضع المسؤولون في الادارة الفرنسية خطة لتهديم اصالة الشعب الجزائري فعملوا بمختلف

الوسائل على تفكيك وإذابة جميع أنماط الحياة التي تذكر هذا الشعب من قريب او بعيد بواقعه القومي .. وقالوا لأنفسهم اذا اردنا ان نضرب تماسك المجتمع الجزائري لابد لنا من ان نبدأ بغزو المرأة ، ولا بد لنا في سبيل ذلك ، من ان نمعن في البحث عنها وراء الحجاب .. » . ان هذا التصميم من قبل الادارة الاستعمارية لم يأت عفو الخاطر ، بل جاء في اعقاب دراسات لعملية الدمج سخرت لها فرنسا مجموعة من علماء الاجتماع ومن الخبراء في الشؤون الانسانية ، فوصلوا منها الى النتيجة التالية :

ان الرجـــل العربي في الجزائر يرفض الاندماج ، وهو يبقي امرأته في عزلة ، ويتحصن بهذه العزلة ليحمي نفسه واسرته من الانصهار في بوتقة الاستعمار الافرنسي ، فلابد اذن من من مهاجمة هذا الحصن . فاذا ما استطعنا دفع المرأة الى السفور ، وكسبناها للقيم الاوروبية ، استطعنا السيطرة على الرجل وتمكنا من ان نهدم بوسائل عملية ،التقاليد التي يمسك بها الجزائري. من هنا انطلق المستعمرون في الدعوة الى تحرير المرأة الجزائرية . وقـــام دعاتهم من المستوطنين بانشاء الجمعيات لمساعدة المرأة الجزائرية ، وحاولوا الوصول اليها عن طريق تقديم المعونات ،وراحوا يقدمون الكساء والغذاء في الاحياء الجزائرية ، ومع كل حفنـــة من الطحين تعطى لجزائرية ، كانوا يعطون ايضاً نصائحهم ، ويشعرون المرأة بالحيف اللاحق بها .وفي المدارس ما كانت تعرض للمعلمين الفرنسيين مناسبة الا ويندودون فيها بوضع المرأة غير الانساني في الجزائر ويقولون للطلبة : « ان الآمال معقودة عليكم أنتم ،فلعلكم تستطيعون ان تفرضوا وجهة نظركم في المستقبل ، وتعملوا على تبديل هذه الاوضاع .. »

وكان الهجوم مركزاً على المثقفين من الجزائريين ، من اطبـاء ، ومهندسين ومعلمين ، الذين لايستجيبون لدعوة «التمدن» ويحتفظون بقريباتهم محجبات ، وكان الاوروبي يفسر محافظة الجزائري تفسيراً يقوم على التمييز العنصري ويصل منه الى ان الجزائري غير مؤهل للتقدم والتطور .

هذه كانت عملية الاستعمار فماذا كان جواب الجزائري ؟ « ان السفور يعني ان يقبل الجزائري انتهاك المستعمر له . فالمجتمع الجزائري يبدو مع كل وجه امرأة يسفر ، وكأنه يتقبل الدخول في مدرسة الأسياد ، وكأنه يقرر في هذا السفور ، ان يبدل تقاليده وعاداته بتوجيه من الأجنبي وتحت قيادته » . فأصر الجزائري العربي في المدينة التي يجاور بها الاجنبي ، ان يبقي أسرته محصنة محجبـــة ، وان يقيم الحرم والممنوع سداً في وجه الدمج والتمثل .

كان الحجاب قبل ان تركز الادارة الاستعمارية هجومها عليه ، تقليداً جامداً لايعني شيئاً كثيراً. ولكن الهجوم الاستعماري واصراره قد اعطيا هذا الشيء الميت معنى جديداً ، فأصبح عنصراً من عناصر مقاومة ارادة الاجنبي وحامياً من عملية الاذابة والدمج . ويكشف لنا فانون عن احد

« القوانين النفسية للصراع بين المستعمر والمستعمر » . ففي الزمن الأول من عاليــة الاستعمار يأتي المستعمر ليحدد مراكز المقاومة التي يدافع بها الشعب عن ارادته في البقـاء وفي الاستقلال. ومااان يبدأ الهجوم على هذه المراكز حتى تأخذ معنى جـديداً ووجوداً استثنائياً . فأمام هجوم المستعمر على حجاب الجزائرية ، رد المجتمع الجزائري بتقديس الحجاب .

ودار الصراع على هذا النمط التقليدي ، الى ان بدأت معركة التحرير الشامل ، وقام النضال الثوري يهز اركان المجتمع فيقوض الاوهام ويبدل المفاهيم والمعاني بعملية تبديل جذري شـامل ، فكيف كان أثر هذه الثورة في حيـاة المرأة الجزائرية وفي حجابها ؟

تقول لنا قيادة الثورة في نشرة لها في صحيفة « المجاهد » : « إن عقيدة الثورة واستراتيجية المعركة ، لم تطرحا مشكلة حجاب المرأة ولم تبحثا أمر اعادة النظر في موقف المجتمع الجزائري من هذه المشكلة الا اننا نستطيع ان نؤكد اليوم ، ان مثل هذه المسائل لن تكون موضع بحث في الجزائر المستقلة . فلقد أدرك الشعب من ممارسته للثورة ان هذه القضايا كلها تحل نفسها بنفسهـا في الحركة الثورية ذاتهـــا التي تطرح قضية التحرر الكلي للمجتمع . »

اننا نعرف اليوم أن حجاب المرأة لم يعـد موضـــع بحث في جزائر الثورة ، وأن المرأة تشارك في جميع اعمال الثورة ، مقـاتلة وممرضة وفدائية . وأمامنا صور من بطولاتها ونماذج حية من الثـائرات ، عرفتهن سجون الجزائر وفرنسا مستبسلات صامدات ، وعرفتهن الجبال محاربات ومسعفات ، وهن اليوم في كل مكان لا يسدلن حجاباً ، ولا يهربن خائفات من نظرات الغريب ، بل يقفن عيناً لعين ، في اباء وعنفوان، أمام علوج المستعمر وامام جـلاديه . فكيف تم هذا التطور ، وكيف بدلت الثورة في سنوات قليلة حياة المرأة فخرجت بها من عزلة القرون الطويلة طفرة واحدة الى وهـج الثورة وجلبة المعركة ؟

في العام الأول للثورة ، حمل الرجال وحدهم أعباء النضال . وكان الطابع السري للمعركة يقضي أن يخفي المناضل عن زوجته كل شيء ، فظلت المرأة بعيدة عن كل ما في الثورة . واخذ العدو يتلاءم مع اشكال المعركة ، واخذ يجيب عليها بأمتن ما يملك من وسائل . ومشت الثورة خطوة اخرى ، فأمام الصعوبات التي يقيمهـا في طريقها الاستعمار كان لا بد لهـــا من ان تقدم حلولاً جديدة ، ولا بد لها من ان تدخل عناصر جديدة الى الثورة ، واتاحت الظروف لبعض الجزائريات ان يبرهن على ما تحمـــل المرأة من امكانيات للمشاركة في الثورة ، وقمن باعمال كن فيها مثلا للثبات والبأس ، وهناك مهمات تستطيع المرأة ان تؤديها وعين العدو عنها غافلة ، فهو لا يعرف ان للمرأة الجزائرية دوراً في الثورة او قدرة على مشاركة الرجال اعمال العنف. وطرحت

مسألة اشراك المرأة في الثورة على بساط البحث ، وقاوم الكثيرون من قادة الثورة في البداية هذه الفكرة . فالمسألة هنا لا تقتصر على ارادتهم في تعبئة قوى الشعب كلها في وجه الأجنبي المحتل ، اذ لا بد لهم من التوفيق بين دخول المرأة في هذه الثورة ، وبين الحفاظ على طابعها كحرب ثورية حديثة .. لا بد للمرأة لكي تشارك من أن تمر بتجربة مزدوجة ، لابد لها اولا من ان تتحرر من عزلتها ومن خوفها من الأجنبي ، ولا بد لها من ان تبرهن بالتالي على قدرتها على الارتفاع الى مستوى التضحية التي رقي اليها الرجل الثائر ، وفي المرأة نقاط ضعف قد يحاول المستعمر الضرب عليها واستغلالها . وقادة الثورة يعرفون شراسة العدو وقد خبروا ما يحمل من قدرة على القتل والاجرام . وهم يعرفون ان كل جزائرية توقف ، ستعذب بلا رحمة ، وستتعرض لشتى انواع الاهانة والاكراه . ولكي تصمد امام هذا كله ، لابد لها من أن تكون متمتعة بمزايا نفسية رفيعة وخارقة .

وجاءت الأفعال لتبرهن على ان المرأة الجزائرية قادرة على ان تكون ثورية من طراز رفيع . وانتقلت من المشاركة التلقائية التي كانت تأتي اتفاقاً ، الى القيام بمسؤوليات محددة ، وقررت قيادة الثورة إشراك بعض النساء . على ان يتم اختيارهن من بين زوجات المقاتلين والشهداء ليساعدن الرجال في القتال واعمال الاسعاف وفي ايواء المجاهدين في مراحل تنقلهم واخفاء الثائرين ولم يكن إشراك الفتيات موضع بحث بعد ، فالفتاة الجزائرية ما كانت قد ألفت ان تخرج من البيت وحدها قبل ان تتزوج وما كانت تخالط من الرجال الاأباها .

وراحت المرأة الجزائرية تملأ دورها في الثورة وكان عليها ان تبذل جهداً نفسياً خارقاً ومضاعفاً في هذا السبيل . كان لابد لتلك المرأة المتطوعة من ان تتلقن دفعة واحدة ، مهمتها الثورية التي تضطلع بأعبائها ، ودورها الجديد كامرأة تدخل مجتمع الرجال الأجانب وتسير لوحدها في الطريق كان ذلك ميلاداً جديداً لها وتجربة كبيرة ، كان لابد لها من ان تتعلم كل شيء من جديد ، فهي امرأة لاتاريخ لها في النضال . ان وضعها هنا لايماثل في شيء وضع المناضلة الأوروبية التي شاركت في الحروب والثورات . الأوروبية تقوم بدور شغل مخيلتها من قبل في كتب التاريخ فهي تكرر دوراً كانت تقوم به مثيلاتها . اما الجزائرية فكانت تقوم بعمل مبتكر . انها تخرج من عزلة القرون ، تخرج من الظلمة الى عالم المفاجآت .

وارتفعت المرأة الى مستوى المأساة ، ودخلت في خضم الثورة الكلية ، صعدت الجبال مع المجاهدين وأسهمت في جميع الاعمال التي يقوم بها المقاتلون . وصمدت المرأة امام هذه التجربة وانتصرت في ان تكسب حريتها بدمها . وجاءت الفتاة تطرق باب الثورة وتطلب التطوع . وكانت قيادة الثورة تعرف ما للزوجة والأم من التزامات وواجبات ، وتعرف ان الفتاة التي

لاتلتزم بمثل هـذه الروابط أقدر على العمل الثوري ، وكانت خطوة جديدة وتحرير نهائي : ان باب الثورة مفتوح امام كل جزائري وجزائرية . وبدأت المرأة في الجزائر تاريخاً جديداً .

ولننظر الآن الى تطور موقف المجتمع من حجاب المرأة بعد التزامها الثورة . ظلت المرأة في البداية تقوم بمهمات الثورة وهي محجبة . ثم كان عليها ان تمارس النشاط الثوري في الاحياء الاوروبية من غير ان تلفت اليها الانظار او تثير الريبة ، وليس لهذا من سبيل ، الا اذا حملت الزي الاوروبي اوزي جزائرية مندمجة ، فطرحت المرأة المناضلة الحجاب في غير تردد ، وراحت تمشي رافعة الرأس . انها لم تعد تلزم الحائط في تردد بل هي تسير في رشاقة وخطوات رصينة ، وكان عليها ان تسجل في كل مهمة تؤديها ، نصراً على نفسها .

ومشت الثورة تنفذ في العمق وتتسع في المكان وأصبحت اجراءاتها هي القدوة المثلى التي يقتدي بها كل جزائري وجزائرية . فكان من الطبيعي وقد سفرت المناضلة ان يقتدي بها جميع النساء في الجزائر . وراح الحجاب يتساقط عن جميع الوجوه ، ان الحجاب لم يعد شعاراً من شعائر مقاومـة الدمج ، بل أصبح عائقاً يعوق مشاركة المرأة في نضال الثورة . وفقد الحجاب في اشهر قليلة تلك القدسية التي قام عليها خلال اجيال .

هذه ظاهرة من بين الظواهر الاجتماعيـة والنفسية الكثيرة التي يعرض فانون سيرة تبدلها الجذري من خلال عملية الثورة في الجزائر ، هذه الثورة « التي تبدل الانسان وتجدد المجتمع . . . تمضي نحو الاعماق لتنفض ركود الاجيال والعصور فهي اوكسجين الحياة ، الذي يبتكر والذي يهيء انسانية جديدة » فأمام تاريخ الاستعمار والاحتلال يقوم اليوم تاريخ للتحرر القومي يبدل البنيـة الاجتماعية والنفس الانسانية ، وفانون في كتاب « العام الخامس من ثورة الجزائر » يقدم لنا بعد بحث سفور الجزائر ، عرضا واقعيا للتبدل العميق الذي أحدثته الثورة من حياة الاسرة الجزائرية وفي روابطها . فتقاليد الزواج المبكر الذي كان يتم بعد اتفاق بين الاباء وبمعزل عن ارادة الفتاة راح يزول تدريجيا . واصبحت الفتاة الجزائرية تختار زوجها بحرية . وكثيرا ما كانت تفرض ان يكون خطيبها قد برهن على رجولته واقدامه في المشاركة في النضـال التحرري ، او ان يكون مجاهدا او فدائيا .

واحدثت الثورة تبدلا في كل ميدان وفي كل مجال من حياة الجزائر ، ولم يعد تسلسل المراتب في الاسرة الجزائرية يخضع للتقاليد المتوارثة ، بل جاء المناضل الاول والثوري الاكفأ ليصبح هو قدوة الاسرة وسيدها وموجهها .

ورافق هذا التبدل في الحياة الاجتماعيـة والعلاقات الانسانية ، تبدلات مماثلة في المفاهيم وفي سلوك الافراد . فارتفع الشعب العربي في الجزائر الى مستوى جديد ، وتحول عن سلوكه

وعقليته، الى تبني احدث وسائل التكنيك والمعرفة.

وتحت عنوان **«الطب والأستعمار»** قدم لنا فانون دراسة عميقة للتطور الذي احدثته الثورة في تفكير الجزائريين ، وذلك من خلال ظاهرة تكنيكية واجتماعية ، وهي علوم الطب وموقف الجزائري من الطبيب والعلاج ومن قواعد الصحة ومفاهيمها .

يقول الدكتور فانون : « لو اخذنا بهذه الظاهرة من الوجهة الموضوعية والانسانية وحدها ، لقلنا ان من المفيد ان يساعد البلد المتقدم من الوجهة العلمية والفنية ، بلداً آخر بعلومه ومعارفه . وعندما تتناول هذه المساعدة مسألة صحة الانسان وحياته والتخفيف من آلامه فان اي موقف سلبي او معارض لايجد تبريرا له . » ولكن هذه المساعدة قد لبست هنا ايضا ثوب المستعمر وجاءت الى الجزائر عن طريقه .

فالطبيب يأتي مصحوبا بالجنود والشرطة ، وسلطة المستعمر هي التي تجمع السكان للفحص الطبي الالزامي والتلقيح ضد الامراض السارية والاستعمار يريد ان يتخذ من مساعداته ومستشفياته ومستوصفاته مبررا لوجوده واحتلاله وبقائه . والجزائري يعرف بالتجربة انه ما ان يتقبل ناحية من النواحي التي جاء بها المستعمر حتى يجد نفسه سجينا للنظام الاستعماري كله . وهكذا اخذ يضع رجال التكنيك والعلم وجنود الاحتلال جميعا في وعاء واحد واخذ يرفض الاطباء والمعلمين والمهندسين كما يرفض المظليين ورجال البوليس .

« في المجتمعات المنسجمة تقوم العلاقة بين المريض وطبيبه على اساس من الثقة ، فهو يسلمه جسده ويتقبل منه ان يؤلمه عند الفحص والمعالجة ويعرف ان ذلك لخيره ، اما في المجتمع المستعمر فان كل علاقة بين المواطنين وبين الوافدين اليهم من مجتمع المستعمر يشوبها الحذر والشك » . فألم مريض في المعالجة ، وموت آخر في المستشفى ، كل ذلك كان يشجع التأويلات ويزيد النقمة ، ويجيب عليها الجزائري برفض تطبيب الاجنبي والرجوع الى الوسائل العتيقة التي كانت في ذلك المجتمع من قبل . فلجأ الى الدجالين والتعاويذ و « الحجب » ، وآمن بالجن وروح الشر التي تسكن بدن المريض . وهرب من التلقيح ضد الامراض السارية ورفض فكرة العدوى وقال بالاذى الذي تحدثه نظرات أعين البشر . فالاستعمار الذي يأتي ويمنع الطريق في وجه تقدم المجتمع وتفتحه من نفسه ، يزيد من انغلاق هذا المجتمع على نفسه وينمي في أفراده تلك العقلية التي لاتتقبل منطق العلم ولا وسائل التكنيك الحديث ، بل تستسلم لواقعها السلبي .

ولكن اذا كان هذا هو موقف المجتمع الجزائري من رجال التكنيك الاجانب ، فما هو موقفه من ابن الجزائر الذي يتعلم ويصبح طبيباً ويمارس مهنته في الجزائر ؟ ان هذا الموقف كان متضارباً قبل الثورة ، فهنا الجزائري الذي يتعلم ويبرع كان برهاناً على قدرة هذا المجتمع على ان ينهض من نفسه ، ودليلا على امكانية كل فرد من

م — ١٠

افراده في ان يصبح طبيباً ومهندساً ومحامياً . ولكن الى جانب هذه النظرة ، كانوا يرون فيه شكلا من اشكال التقبل لقيم الاجنبي وعاداته ، وكانوا يتطلعون اليه وكأنه أصبح غريباً عنهم واندمج ببيئة المستعمرين « وأخـذ بعادات معلميه » .

ان الغزو التكنيكي والثقافي الاستعماري كان هو ايضاً ميدان جـدال وصراع ، وسارت مقاومته ايضاً بأساليب محافظة وقاصرة ، ولكن ما ان دخل الصراع مرحلة الثورةوحرب التحرير حتى اخذت المواقف تتغير وتتبدل ، وحتى اخذ العقل يتحرر من قيوده الماضية لينظر نظرة جريئة واضحة لـكل ما يدور من حوله ، من غير ان يهرب الى العزلة والى الغيبية .

فالجرحى والمرضى من الجزائريين ما ان قرروا هنا ان يقبلوا المعالجة حتى وجدوا امامهم مقاومة المستعمر وحرمانه لهم من الاسعافات والعلاجات . ان العدو يريد إنهاك مقاومة الجزائر ويريد لجرحى المعركة ان يموتوا ويتعطلوا . وسخر المستعمر الاطباء لخدمة مرضاه وجرحاه وشدد عليهم كي يخبروا عن كل جريح يطلب منهم اسعافه . وشدد الاستعمار الرقابة على الصيادلة وعلى تجارة الادوية ، ومنع صرف كثير من الادوية والادوات الطبية كالكحول والقطن والأربطة والادوية المرقئة ومضادات الالتهابات والالتهابات والمصل المضاد للكزاز ، فـا كانت تعطي لغير الأوروبي . وما كانت تباع إلا بعـد تسجيل هوية الشخص الشاري وعنوانه ومبررات الشراء . وكانت مآسي وتجارب مريرة : المريض يموت لعدم توفر العلاج والجرح يتعفن ، وكم من جرحى ماتوا امام مواطنيهم وأهليهم بشكل مفجع بعد نوبات الكزاز البشعة القاسية .

واخذ الجزائري يتطلع الى ابناء وطنه وينادي الأطباء والصيادلة والممرضين الجزائريين لمساعدته وراح هؤلاء يندمجون بشعبهم ويبذلون جهودهم لتدارك الادوية ولتوفير مايقدرونه من وسائل العناية لمواطنيهم . وصدرت اوامر قيادة الثورة الى الاطباء وطلاب الطب والى الممرضين ليلحقوا بالمحاربين . وحملت الثورة على عاتقها منذ تنظيمها الأول العناية بشؤون الصحة العامة للمحاربين وغير المحاربين من ابناء الشعب واصبح للثورة تخطيطها الصحي الذي يبنى على مشاورات القادة العسكريين والرجال الفنيين ، وأخذت تهتم بالدعاية الصحيـة وتوجيه المواطنين لأسباب العناية بالمريض والجريح ولم يعد الطبيب الجزائري ذلك التكنيـكي المندمج بمجتمع المستعمر ، بل اصبح « طبيبنا » الذي يزيل آلامنا . ولم يعد إهمال الأم العناية بوليدها هو الذي يمرضه ويميته « بل هو المستعمر الذي يحجز العلاج » .

وكان الصراع قاسياً مريراً . فالاستعمار يزيد من إرهابه وتنكيله ويشدد الضغط والمراقبة على العلاج . انه يريد القضاء على مقاومـة الشعب الجزائري ، والجزائري يناضل ضد الموت وضد الألم ، ويريد ان يشفي الجرحى والمرضى ،

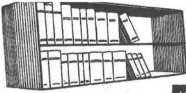
ليعودوا الى ميدان النضال . وأخذ الشعب يناضل في سبيل صحته ، انــه يريد ان يعرف وسائل الوقايــة والتطهير والعلاج ، يريد ان يشفى ، ويطلب من قيادات الثورة التوجيهات والارشادات وفي خضم المعركة ، اقام الاطباء وطلاب الطب دورات لتعليم التمريض ، وراحت توجيهــات الثورة تنتقل الى كل بيت وكل اسرة لتفهم ماهو المرض وما هو العلاج الطــبي ، وماهي الوسائل الأولية لاسعاف الجريح .

نور جديد من منطق العلم راح يشيع في كل مكان ، وزالت المعتقدات القديمــة ووسائل الشعوذة والسحر وحل محل الجن والروح الخبيث مفهوم واقعي للجرثوم والسراية والمرض ، وتم ذلك كله من خلال الممارسة ومن خلال مشاركة الثورة.

* * *

ولنقف في النهاية مع فانون حين يقول لنا ، ان التعرف الى هذه الثورة لايكون بالتحليق من فوقها وتمجيد قوتهــا وصمودها « فلا بد من السير خطوة خطوة في ذلك الجرح العميق الذي خطه الصراع العنيف في ارض الجزائر وفي جسد الشعب الجزائري .. انه شعب كبير يعيش أقسى تجربة للظلم والاستبداد عرفتها الانسانية، فيبتكر وسط الأفكار الهائلة اشــكالا جديدة لحياته وهو في ثورته ، يحقق وحدته ويخلق من الألم مجتمعاً روحياً هو اقوى قاعدة للمجتمع الجزائري العربي المقبل » . تلكم بعض الأفــكار الكبرى التي تضمنها كتاب فانون (١) . «انتهى»

(١) انتصر للثورة الجزائرية ، كثيرون من المناضلين والمفكرين في العالم من غير العرب ، على تباين مذاهبهم الاجتماعية ، وعقائدهم القومية ، من اشتراكيين ووجوديين الى انسانيين ورهبان وسواهم ، ورأى فيها كل فريق مايمكن ان يراه من خلال عقيدة اوفكرة او وجهة نظر . ويبقى ان الثورة الجزائرية ، حدث كوني ضخم ستظل الأقلام والفلسفات تدور حول شموخه طويلاً قبل أن تحيط به وتنفذ الى اعماقه ، ولا يمكن لأي نظرية فلسفية أن تدعيه لنفسها ، وتبصمه بطابعها ، وتفسر تاريخه بمقاييسها ، وان يكن صحيحاً ماعرضه الدكتور فانون ، من ان الثورة بدلت الكثير من المفاهيم والتقاليد أوقضت عليها ، فمن المؤكد أن القيم العربية بتقاليدها ومفاهيمها الأصيلة ، لم تذهب ، بل الذي ذهب منها مايمكن أن يعيق حركة الثورة ويعطل عجلة التقدم ، من توافه تعلق عادة بجذوع القيم . ويبقى العربي المحافظ على قيمه الغالية ، من وراء قوة هذه الثورة .



مع الكتب

تحليل ونقد: **خليل الهنداوي**

الحياة الأدبية في البصرة

الى نهاية القرن الثاني الهجري

للدكتور أحمد زكي

— منشورات دار الفكر —

أظن لاول مرة في أدبنا الحديث أني اقرأ كتاباً يؤرخ الحركة الفكرية والادبية والاجتماعية لمدنية ، بدلا من فئة اومدرسة .

وليس هذا بغريب في حياة المدن ، اذ سبق ان رأينا مدناً قامت في التاريخ ، كانت بنفسها ذات شخصية متأثرة بغيرها ، مؤثرة في غيرها ، تبعاً لظروف خاصة ، من حيث موقعها ، او الاحداث التي احاطت بها . وقد سبق للبصرة نفسها ان كانت لها مدرسة في النحو واللغة والاشتقاق والفقه تخالف باتجاهاتهامدرسةالكوفة القريبة منها .

ولكننا الان في سبيل تمييز البصرة كمدينة لها شخصية مستقلة ، وأدب خاص ، واتجاهمطبوع بها ، تختلف بها عن غيرها من المدن كدمشق والقاهرة وبغداد .

على اني اذا تقبلت هذا المبدأ فانني اتقبله على تجوز واتساع ، لان المدن التي تتطلق في عصر ذهبي كذلك العصر الهجري الاول والثاني ، لايمكن ان يحكم عليها بالانفصال التام ، بل هي متصلة بغيرها من المدن ، تعطي وتأخذ ، وتتأثر وتؤثر .

والبصرة بحكم موقعها الحساس في ارض عريقة بالحضارة ، لعبت في تاريخ الفكر — لافي تاريخ السياسة — دوراً هاماً ، ومنذ انتهت وقعة الجمل باندحار البصرة لم تعد البصرة الامدينة مضطربة ، قلقة ، تتلقى التأثير الخارجي بحكم مجاورتها لفارس ، والتأثير الداخلي بحكم اقبال العرب على النزول في مرابعها ، لانها خط التماس بين حياة الحضارة وحياة البداوة . وثقافة العرب وثقافة الفرس .

وهذا الكتاب الذي يقع في نحو خمسماية وخمسين صفحة دراسة عميقة شاملة ، تقدم بها صاحبها لنيل الدكتوراه ، وقدنالها بمرتبةالشرف الاولى .

واول مايلحظه المؤلف ضخامة هذا التراث الذي وضعه قادة ضخام في البصرة ، هؤلاءالقادة الذين مهما بلغ عنصر التفوق الشخصي فيهم فان

تفرد بلدهم بهم لايعني الا تفردها هي ذاتها بميزات لم تتح لغيرها . ومن هذا الطريق سار المؤلف في منهجه الذي اعده حول البصرة .

فابن المقفع – مثلا – والخليل بن احمد واضع فن العروض ، والفرزدق وبشار ، وابو نواس ، والجاحظ لم يكونوا الاثمرة اوضاع وقيم لاتكاد تعرفها – على النحو نفسه – مدينة اخرى كالقاهرة ومكة ، كما اننا لايمكننا ان نسلخ الرجل عن بلده ، ولا يمكننا ان ننكر فضل بلده عليه . بل لايمكن ايضاً الا ان نقول : « انه بصري .. لان البصرة بشخصيتها وطاقاتها خلقته وشكلته.

« وبهذه الشخصيـــة .. شخصية البصرة القادرة على التشكيل والتوجيه ، اندفع قادتها يتولون زمام الثقافة العربية ، بل الانسانيــة في حين من الاحيان .. اندفع شعراؤها يغنون على أوتار جديدة ، عدت فيما بعد من أسباب التجديد والتوليد ، واندفع علماؤها يخضعون منطق ارسطو لمنهجهم ، ويطورون بحوثهم في الفلسفة والكون والحياة ، بحيث تتسع لأفكار الانسان في كل مكان ، فكانوا – من هنا – اكبر من ان تضمهم البصرة . ووضعوا أسس علم الكلام وطوروه ، وابتكروا العروض ، وعمقوا بحوث المنطق ، وقدموا النحو في الصورة التي نعرفها بها اليوم ، وجعلوا القصيدة العربية صوراً تعبر عن لحظات معاشة .

كان كل ذلك في زمن وجيز اذا قيس بالزمن الذي يحدد اعمار الشعوب . »

وليس في التــاريخ تساؤل او تعليل : لأن وثبات الشعوب كالينابيع ، بينا هي تفور ، اذا هي تفور . او كالأنهار العصية التي تخرج عن مجرى الى آخر ، بدون سابقة من نذير .

واتباعاً لأمانة البحث لم يجد المؤلف بدأ من ان يربط الحياة الادبية بالحيوات الأخرى من اجتماعية واقتصادية . بل لعل دراسة هــذه الحيوات أحق بأن تكون مقدمة ضرورية لفهم حياة الأدب الخاصة .

ومنذ ان هتف النقاد الفرنسي « تين » بأن الأديب ابن بيئته ، أصبحت كل دراسته تتجه الى مظاهر هذه البيئة ، لتجد فيها العوامل الثابتة التي آلت الى خلق الاديب على هـــذه الصورة ، لاعلى صورة غيرها . ومنذ تلك الهتفة وقعت الدراسات الأدبية على مذهب جــديد ، وجدت فيه الكثير من تفسير التكوين الطبيعي للتفوق الشخصي . ومعنى ذلك ان أية شخصية بصرية ليست في الواقع إلا نبتة طلعت في تربة أخصبتها ايد لم تكل يوما من الايام . ولذلك لابد من ان يتصدى المؤلف لتـــاريخ البصرة الاجتماعي والاقتصادي والعقيدي .

ومن العجب ان يحكم المؤلف في مقدمتــه على « ان الشعر في الوقت الذي كان يؤدي فيه دوره في عملية البناء ، كان النثر لايكاد يكشف عن اتجاه فني معين ، ولم تكن له الشخصية المميزة. أما أعلامه فقد جاءوا حالات فرديه » ومعنى هذا الحكم ان المؤلف يعتمد على الشعر اكثر من

اعتماده على النثر ، معتبراً النثر الذي ظهر ، ضعيف الأثر . وفي الحق ان النثر اذا قعد عن الشعر في البصرة ذاتها ــ كما يذهب المؤلف ــ فليس الذنب ذنب النثر ، ولكن طبيعة العصر الذي ورث الشعر ، ورجح الشعراء على غيرهم ، هي التي أبعثت الأسبقية للشعر . على أن هذا لا يجعلنا نعتقد مع المؤلف بأن النثر لم تكن له شخصية متميزة في هذا العصر ، بل نجد أن النثر فيه خطا خطوة لم تتيسر له من قبل ، ولا من بعد . لأن النثر الفني وجد فيه ، وأثبت وجوده ، واتصل بالأغراض التي يقوم من أجلها النثر . وما همنا أن الناس لا يزالون يرنون الى الشعر كمادة أصيلة؟ لأن غلبة الشعر على النثر في أمة لا تعني الا أن هذه الأمة لا تزال في أول مراحل تكوينها الفكري . تريد أن تشعر ، ولا تريد ان تفكر . والشعور ــ غريزياً ــ يسبق التفكير .

وهكذا تناول المؤلف ــ في الباب الاول ــ تاريخ البصرة وحياتها الاجتماعية والعقلية ، محللاً ميل البصريين الى الثورة ، ونزعتهم الى الواقعية المادية ، وما انتاب تفكيرهم من شك وجدل واستقلال في الرأي ، وآثار الثقافات الأجنبية التي أثرت فيه . ثم خاض في الحياة الأدبية في البصرة ، شعرها ونثرها ، ومدى اتصال هذه الحياة بعصرها ، من حيث ان الأدب تعبير عما كان ، وتعبير عما هو كائن ، وتعبير عما يجب أن يكون ... ولم يفت المؤلف أن يختار من شخصيات البصرة بشار بن برد ، وأبا نواس ، ليمثلا وجه شعرها ، وابن المقفع ليمثل وجه نثرهـا . ولا أدري : لماذا **أهمل الجاحظ** وهو في القمة من حيث مبلغ النثر . وهو جدير بعد ذلك بان يكون ألصق بالبصرة العربية من ابن المقفع الذي غلب عليه التأثير الفارسي . ولعل الجاحظ هو الكاتب الاول الذي كانت له شخصية متميزة ، وكان لنثره طابع ذاتي يفرده عن غيره ويجعله صورة لنسيج وحدها .

وفي الكتاب آراء كثيرة ومذاهب مختلفة قد توافق المؤلف فيها في كثير ، وتخالفه في كثير . ولكن الدراسة بعد هـذا كله تروقك وتمدك بالمعارف ، لأنها ابنة الجهد والدأب ، وابنة البحث الموضوعي المركز ، الى أسلوب يهزك ببيانه المشرق .

ويحق أقول : ان هذه الدراسة واحدة من نماذج قليلة مثلت فكري في مطالعاتي الأدبية الحديثة .

●

في شعر النكبة

للدكتور صالح الأشتر

« بحث تخطيطي في اصداء نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر
مطبعة جامعة دمشق »

حين نقول النكبة لا أظن القارىء يحتاج الى من يعرف له هذه النكبة ، لأن نكبة فلسطين لم تماثلها نكبة سابقة ، ولا لاحقة في تاريخنا ، ولذلك بتنا حين نقول « النكبة » تبدو وراءها فلسطين دون غيرها ، لان نكبتها أنست غيرها من النكبات .

وجدير بالنكبات ـ وهي لابد منها في الحياة ـ ألا تحمل المصاب على اليأس ، سواء كان هذا المصاب فرداً او امة .. وما قيمة الرجولة في الفرد اذا طأطأ رأسه للحوادث ؟ وما مناعة الأمة اذا تخاذلت عند الصدمة الاولى ؟

لقد اتت نكبات كثيرة على الوطن العربي ، ومنها ما اصاب الجذور ، وأوجع في الصميم ، ولكن هذا الشعب العجيب .. هذا الشعب الذي أمدته الحياة بمقومات خاصة استطاع ان يستخلص نفسه من كل النكبات ، ويخرج منها اكثر اصراراً على الحياة .

وهذه النكبة الحديثة في تاريخنا ـ وهي ليست الاولى في ضراوتها ـ لم تترك أثرها في شعراء فلسطين وحدهم .. هؤلاء الشعراء الذين أصيبوا ، واخرجوا من ديارهم كرهاً ، فكان لابد ان يكون وقعها شديداً على أنفسهم .. ولكنها تخطتهم الى كل شاعر عربي يعتبر أن النكبة تتصل به ، وتهز مشاعره هزة قومية ، وانسانية .

ان هذه النكبة لها موضعها في التاريخ والأحداث . ولن نتصدى لهذا الموضع ، لأن الكلام محصور في أثر النكبة في الشعر ، وفي الشعر وحده ، دون سائر فنون القول ، باعتبار ان هذا الموضع أقرب اتصالا بالنفس والوجدان.

واذا كان هناك من يسيء الظن في الشعر والشعراء لبعدهم عن جو الأحداث ، فان الشعر العربي في نكبة فلسطين لم يكن محايداً ، ولم يكن بعيداً عنها . بل لعله ـ ولا نغالي في القول ـ كان في الطليعة تنبيهاً للكارثة ، وايقاظاً للعرب في كل مكان .

من هذه النقطة بدأ المؤلف يحدد رسالة الشعر وما قامت به هذه الرسالة في النكبة ، فبدأ بالشعر الذي سبق النكبة ، وهو ينبه الأنظار الى ما كان يكفهر في جو فلسطين من مؤامرات على كيانها العربي ، والعرب مستخفون بالمخاطر ، غافلون عما كان يرصده العدو في أرضهم ، على الرغم من صيحات النذر .

وهاك ما قاله ابراهيم طوقان ، شاعر فلسطين المنكوبة :

أمامك ، أيها العربي ، يوم
تشيب لهوله سود النواصي
وأنت ـ كما عهدتك ـ لا تبالي
بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمسه الأداني
وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غداً بباق
لساكنها ، ولا ضيق الخصاص

ان في هذه الصيحة نذيراً مبيناً ، قد تبين على ضوء الأحداث ما ينتظر وطنه من مصير مؤلم . وهو يصور لكل عربي هذا المصير ، ويحاول ان ينبهه مما أغرق فيه نفسه من متاع وعبث رخيص. وكل الناس ، من أقاص وأدان ، يتحدثون عن هذا المصير المحتوم . وهذا العربي وحده يجهل هذا المصير ..

وماً هي الا كرة الطرف حتى برز هـــذا المصير لأصحابه ، فاذا هم يضجون ويلوبون ... ولكن النكبة تأبى الاانتمشي الى غايتها ، بعد ان عبث الساسة بمقدرات شعب بأسره ، حكموا باخراجه من دياره ليسكنوا غيره على آثاره ... فكان من ذلك مآس ، لم تبدأ لتنتهي ، لأنها في كل يوم تتفتح عن مأساة .

وهنا جاء دور الشعر ليصور هذا الضياع .. ضيـــاع شعب حائر ، مشرد ، فقد المـكان والاطمئنان ، وعاش بلا زمان .

وكما قال الدكتور الأشتر في وصف هذا الشعر :

« وشعر النكبة يدمي القلب ، ويبكي العين حقاً ، عندما يقف امام خيام اللاجئين ، ليقص قصة العربي التائه ! لقد انتهى دور اليهودي التائه منذ أصبح له في اسرائيل وطن قومي يحميه ، وبيت يظله ويؤويه ، وارض تطعمه من خيراتها وتغنيه . وهام العربي على وجهـه ، بلا وطن ولا بيت ولا أرض . يلوب في الدروب حافيـاً عارياً جائعاً ، ذليل الصوت ، كسير النفس والقلب » .

لنستمع الى الشاعر « كمال ناصر » وقد وقف أمام خيمة من خيام اللاجئين في الاردن ، خيمة مذعورة ، مصلوبة ، حيرى ، يعوي فيها الفراغ ويحف بها الذل والعذاب :

مذعورة ، على رحب المـكان
مصلوبة ، منسية في الزمان !
حيرى على أوهامها في المـدى
لا حب في سمائها ، لاحنان
مشدودة في الارض ، معصوبة
كأنما شدت بأيدي الهوان
النار في ارجائهـــا أخمدت
وفي زواياها تلاشى الدخان
يعوي بهـــا فراغها طاويا
في مقلتيـــه الكبر والعنفوان
والهم من يأس بهـا مطرق
يحصي عليها في العذاب الثوان ..

هذه ليست بقصة خيمة واحدة ، وانما هي قصة كل خيمة ! و مثل هذه الخيمة لابد لها ان تبعث اليأس والاستسلام في النفس ، وتشيع الحزن والكآبة في الشعر . وقد كان ذلك الى حين .. وهو الحين الذي تقدره المصيبة نفسها حين تنزل ، ثم لاتكون المصيبة بعد ذلك الا حافزاً الى الثأر والانتقام ، لأنها لم تستطع ان تذل كبرياء الشعب في هذه الخيام .

وهذا الشاعر « يوسف الخطيب » الذي يريد على حد قول الدكتور أن ينتقم لعاره ، ويثأر لكرامته ، فيرسل من أعماق قلبه هـــذه الصرخة الرائعة التي تتجاوز حدود شاعريته ، ويثب بها الشاعر وثبة يتفوق بها على نفسه :

انا مشعل ، أنا مارج جبار
لاالريح تخمدني ، ولا الاعصار
سأمد في الآفاق ألسنة اللظى
حمرا ، لها في الخافقين اوار
ولأحرقن الليل حتى تنجلي
اسدافـــه ، فتوقدي يانار !

للميتين دموعهم وجراحهم

وجذوتي ساح الوغى ، والثار

ولسوف أغسل جبتهي ،حتى ترى

مثل الضحى ، ويذوب عنها العار

أنا للحياة ، ولن أظل مشردا

أقسمت : لا ارضى ولا اختار

انا مجرم ، انا حاقد ، انا سيء

حتى تعاد الى ذويها الدار . .

وهذا الاصرار نفسه على العودة هو الذي ابدع شعر الحنين الى الوطن المغصوب ، وهو حنين يشبه بمأساته حنين شعراء المهجر الى ارضهم الاولى ، لكن الحنين المهجري يظل رفيقا بنفسه ، رقيقا بنوازعه ، لأنه لا يتعرض للحواجز والحدود بينما شعر الحنين في نكبة فلسطين يمثل المأساة ، والحرمان ، والذكريات.

وهذا الشاعر « ابو سلمى » يصور حنينه الى داره في فلسطين ، والى دنيا من الذكريات الحلوة التي خلفها فيها :

داري التي أغفت على ربوة

حالمة بالمجد والثار

تفتح الزهر على خدها

فعطرت أيام آذار

والتينة الخضراء ، في ظلها

تاريخ أشواقي وآثاري

والعين ، خلف الدار في المنحنى

تروي حكاياتي وأخباري . .

وهكذا نجد الشعر الذي انشأته النكبة كان يختلف بين البكاء والحنين ، ثم الثورة. .الثورة الجامحة التي لا تأتي الا بعد ان تنشف الدموع ، وتجف الجراحات ، وييبس الدم على الطريق ، وان للبكاء والحنين أمدا ، وان للثورة غدا .

وليس من العجيب ان تتحول هذه الذكريات الحالمة على ظلها ـ عند الشاعر ابي سلمى ـ الى كتلة من نار عند ـ هارون هاشم رشيد ـ شاعر العودة بالقوة اذ يقول :

من الكهف ، والخيمة البالية

سأجمع للثأر أشلائيه

سأجمع اهلي واصحابيه

واصرخ من عمق اعماقيه

وارسلها صيحة داوية

وأدعو الى الجولة الثانية . . !

اما الخصائص التي تميز بها شعر النكبة فهي كما لخصها الدكتور الاشتر من ناحية المضمون : « تصوير حي للمخاض النفسي العنيف الذي عاناه العرب في مختلف اطوار النكبة . . وجل هذا التصوير يستوحي مآسيها وأهوالها ، ويتناول الجانب الحزين منها والمتمرد » ومن ناحية الشكل الفني : « نشوء الفكرة الشعرية الملتزمة، وصياغة الشعر الحر ، او الشعر الجديد الذي نرى فيه تمردا على الشعر القديم »

ولا اخال ان هذا التطور ـ كما ذهب المؤلف ـ كان مرده الى النكبة وحدها ، لأن أكثر ماقيل من شعر في النكبة انما ينطبق على ميزان الشعر القديم ، دون ان تختل موازين القيم

←

زهرة استوائية في القطب

مجموعة قصص لعادل أبو شنب
عرض ونقد : محي الدين صبحي

عادل أبو شنب .. صحفي وقصاص ومسرحي وذو مساهمات في مختلف انواع الحياة الأدبية منذ مدة لا تقل عن عقد من السنين . وهو بعد ان انتج مجموعة من القصص في مجموعتــه الاولى « عالم ولكنه صغير » يعود الى القراء في مجموعته الثانية « زهرة استوائية في القطب » منطلقاً من النقطة ذاتها التي بدأ منها حياته الأدبية ، وهي عرض الواقع بكل ثقله حين ينوء على ضمير الفرد ويكيف سلوكه . وبذلك يرزح الفــــرد تحت ضغط الاحداث ويتراجع امامها متنــــازلا عن اهدافه وامانيه ثم عن مثله واخلاقه ، ولايتبقى له بعد كل هذا الانسحاب سوى الحــاح حاجة لم تشبع ، ومذلة سؤال لم يتحقق . وتبدو هذه الظاهرة واضحة اشد الوضوح في قصة «احزان الرجل الصغير » وهي اجود القصص التي ضمتها المجموعة من حيث اسلوب العــــرض وتوالي

←

فيها ، وفكرة الالتزام في الادب نشأت في الادب العربي ــ كمذهب ــ قبل ان تكون النكبة عندنا . على ان فكرة الالتزام في شعر النكبة لابد أن تنبع من نفسها ، لأن الشاعر كيف يكون شاعرا اذا لم يشعر بالجراح التي تدمى في قلبــه ؟ فشعر النكبة ملتزم بطبيعته ، لأن المأساة تعشي في حناياه..

وأما القوالب الشعرية فتلك تتمة للتجربة التي قام بها المهجريون حــين شققوا الاوزان ، وتلاعبوا بالتفاعيل .

هذا ما اراده الدكتور الأشتر من بحثه التخطيطي ، وهو لم يقدم عليه الا لأنه يعتقد بأن شعر النكبة هو لباب الشعر المعاصر وجوهره ، ويرى ان في دراسته ورصد تياراته وتقويم خصائصه دراسة ورصدا وتقويما للاتجاه الرئيسي الفعال في الادب المعاصر كله .

وفي الحق ان المؤلف يجزى الجزاء الأوفى على تقديمه هذا البحث توضيحاً للتاريخ ، وانصافاً للشعر الذي أدى رسالته بأمانة في هذه المحنة .

والدكتور الأشتر ــ على الرغم من تعلقه بالأدب القديم الذي شغله البحث والتحقيق فيه تحقيقاً علمياً دقيقاً ، وله على ذلك شواهد بينات ، لم يستطع أن ينسى عصره ، وهو أحد المؤمنين بالالتزام في الأدب ، وأحد الدعاة له . فعاج على أبرز مجال في أدبنا الحديث ، يبحث أيضاً ويدرس ولكنه هذه المرة يدرس بقلبه ؛ ويخط بعاطفته ؛ ويكتب ببيانه ؛ لانه هو أيضاً من شهود النكبة...

الأحداث وصدق الأستبطان . وتتلخص الأزمة فيها بأن « احمد » شاب قروي انتقل الى المدينة واستأجر غرفة قذرة ضيقة وعاش على الكفاف لأنه لم يوفق الى ايجـــاد عمل يعيش منه . اما (سامي) فهو الصديق الثري لاحـمد منذ ايام الدراسة الاولى ، وهو يستعير من (احمـــد) غرفته المتواضعة ليـــأوي اليهـا مع رفيقاته . ان (احمد) بما نشأ عليه من اخلاق قروية ، يأبى هذا الوضع ، لكنه يستسلم لـكل مطاليب(سامي) على امل ان ينجز هذا وعده بايجاد عمل لاحمد . وفي كل مرة يأتي ســامي مع اصحابه الى غرفة احمد ، يبدأه سامي بالحديث عن محاولاته المستمرة في البحث عن عمل له ، فلا يلبث احمد ان يلين ويسكت غضبه وينسحب من الغرفة . انه يتخلى عن اخلاقه طمعاً بالعمل الموعود . وما يمنح مثل هذا الموقف قيمة اخلاقية هو ان « احمد » يعي انهياره ، ويشعر بمزيج من الضيق والحسد والثورة كلما تلصص من ثقب الباب وانفلت هـــارباً الى الزقاق .

على ان هذا المستوى من الصراع ليس دائمـاً في قصص عادل . ان شخصياته البـاقية تستسلم بسرعة اكبر وبمقاومة اقل لقدرها الذليل .ويبدو هذا الموقف جلياً في قصة « دموع كاللؤلؤ » حيث تتجول الشـــاردة في البيت الذي وعى طفولتها البريئة ثم تخرج باكية لتتابع سبيلها .. وفي هذه القصة بالذات نقف وجهاً لوجه مـع مشكلة التعبير الشعري في قصص عادل . ذلك ان المؤلف يحـــاول أن يغني قصصه بمجموعة من العواطف المؤثرة والاسلوب الشعري والسرد المتوتر . لكن هذه المحاولة تفشل لسبب أساسي هو ان الشعر في القصة يجب ان يكون منبعثاً عن موقف او عن وضع انساني ناتج عن مجموعة من العلاقات الانسانية تحتم على الانسان مصيره . وهذا مفقود في صلب القصص . ولو اخـــذنا قصة « زهرة استوائية في القطب » حيث يحـاول المؤلف ان يغلف كل شيء بالضباب ليستطيع ان يصل الى الغنائية التي ينشدها ، لما وجدنا أي جو شاعري ، ماعدا ظلال الالفاظ . وذلك ان القصة مفككة ، وأهم مايميز الانفعال الشعري هو كثافته وعضويته . إلا ان المحاولة جديرة بعدم الاهمال .

وفي قصة « الحصاد » نعثر على سقطة فنية ثانية ، هي افتعال التوتر عن طريق الالفاظ . والمأساة التي حاول ان يعرضها المؤلف بموت بائع الكعك تفقد قيمتها تماماً بسبب الاسلوب. انالتوتر لاينتج عن مثل هذا الاسلوب : « تك . تك . تك رجل يتثاءب في كوبا ، يفتح فمه . وامرأة تلفظ وليداً في ايران .. في نفس اللحظة.. وبائع كعك صغير اشقر ؛ عيناه ذكيتان . يبرز من مكانما في شارع بدمشق » ذلك ان هذا الاداء يحول التجربة الى رياضة ذهنية ويمسخ المأساة الى عبرة

←

هذا العالم المتفجر

محاضرة الدكتور قسطنطين زريق القيت في مدرج الجامعة بدمشق

عرض وتحليل: أديب اللجمي

عرض الدكتور قسطنطين زريق ،في المحاضرة التي القاها على مدرج جامعة دمشق بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد القومي ، للسمات التي يتميز بهـا عصرنا الحاضر ، ووجد في مختلف ظاهرات حياة انسانيـة القرن العشرين ، فورة خارقة ، وتفجراً مذهلاً ، وكان ان اختار لموضوع محاضرته عنواناً معبراً : «هذا العصر المتفجر » .

ان اول مايميز انسانيـة العصر الحاضر هو تفجر العلم والمعرفة . وقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر ، انطلاقة « الثورة العلمية » التي استبقت « الثورة الصناعية » فبدلت وجه اوروبا ، بل وجه العالم كله . واستمر تقدم هذه الثورة العلمية حتى غدت في العقود الأولى من هذا القرن العشرين شاملة كل ناحيـة من نواحي المعرفة ، مندفعة في الميادين النظريـة والتطبيقية ، اندفاعاً لايعرف حداً ، فاعلة في حياتنا المادية ، وتظمنا الاجتماعية ، وتفكيرنا ، وعقائدنا ، فعلا عميقاً جذرياً .

ورغم ان هذه الثورة لم تبدأ في هذا العصر « مادمنا سلمنا بأن العقل العلمي قد انطلق منذ القرن السادس عشر » فان خصائصها اليوم ، تختلف اختلافاً كبيراً ، عن خصائصها بالأمس إنها اليوم ثورة شاملة تتصدى لمختلف شؤون المعرفة : معرفة الطبيعة والحياة الانسانية ، وهي ثورة لها فعلها النظري العميق ، لان الاسس التي يقوم عليها العقل العلمي الحديث ، تختلف اختلافاً بيناً ، عن الاسس التي قام عليها في عصر نيوتون وهي فوق ذلك ثورة لها فعلها التطبيقي الواسع الذي يتجلى في صناعات ، واختراعات وفتوحات

يتعظ بها عباد الله . والزهرة التي تتضوع في المجموعة نجدها في قصة « اسطورة » حيث يتجاوز عادل نفسه في دفقة من امتزاج الشعور بالاخلاق ضمن تعبير رمزي حقيقي . .

ان قارىء المجموعة يخرج من قراءتها بانطباع اساسي : ان عادل قصاص ، مافي ذلك شك . لكنه يفتقر الى رؤية ثابتـة ومتماسكة للحياة والاحداث. وبالتالي فانه يفتقر الى اسلوب في الاداء وان كثرة الطرق التعبيرية التي سلكها عادل ابو شنب تدل على انه لم يقرر بعـد ان يلقي مرساته في اسلوب معين . . ربما لانه لم يجد اسلوبه الخاص بعد . .

لاتفتأ تبدل الأوضاع وتغير معالم حياتنا .

وهي اخيراً ثورة تتزايد في سرعتها واندفاع تقدمها ، انهـــا تتطلب من ارباب العلم ، مثل ماتتطلب من الشعوب ذاتها ، يقظة دائمة وجداً مستمراً . وكل من يتهاون بحقها . يقضى عليــه بالتخلف ، وتقل كفاءته للابداع وللاسهــام في بناء الحضارة .

* * *

والسمة الثانية التي تميز انسانية العصر الحاضر، هي « تفجر السكان » . والواقع ان هذه السمة نتيجة للسمة الاولى إلى حد كبير . فسكان العالم في تكاثر متفاقم ، يثير المخاوف ويدعو الى القلق على المصير ، تدل على ذلك الارقام التالية :

في مطلع عهد ميلاد المسيح ، كان عدد سكان العالم يقدر بحوالي (٢٥) مليوناً ، واصبح في منتصف القرن السابع عشر حوالي (٥٠٠) مليون وفي منتصف القرن الثامن عشر ، حوالي (٧٥٠) مليوناً ، وفي منتصف القرن التاسع عشر حوالي (١٢٠٠) مليون . ثم اخذ يقفز قفزات سريعة في هذا القرن ، فبلغ في مطلعه (١٥٠٠) مليون وهو الان حسب تقدير هيئة الامم المتحدة يبلغ (٣٠٠٠) مليون نسمة . اي ان عدد سكان الارض قد ارتفع في مدى الخمسين سنة الاخيرة ، بمعدل ١٠٠٪ واذا استمرت الزيادة ، على هذه الحال فسيصبح عدد سكان الارض في في آخر هذا القرن بين ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ مليون نسمة .

ومما يزيد في خطورة امر هذا التفجر كون اضخم الزيادات في السكان ، تتجلى عند الشعوب المتخلفة تقنياً ، واقتصادياً فتزداد الفوارق القائمة بين هذه الشعوب ، وبين تلك التي قطعت شوطاً كبيراً في ميادين العلم والصناعة .

* * *

والسمة الثالثة التي تميز انسانية اليوم وهي « تفجر الحاجات والآمال والمطامح » . انها هي الأخرى نتيجة لتفجر العلم والمعرفة . انها تتجلى في نقمة متصاعدة على الظلم والعوز والمرض والجهل، وشتى صنوف العبودية . فلقـــد اشتد شعور الانسان بوجوب التخلص من هــذا الشقاء الذي يقيده ، واصبح انسان اليوم يتـألم من الألم ، ويحس بالحاجة ، ويتوق الى الحق والعدالة .

هذه السمات الثلاث لتفجر الحياة الانسانية في في عصرنا ، تجعلنا نقف « على ابواب مستقبل جليل رهيب : جليل بما يحمله من تحقيقـــات وقدرات ، ورهيب بما ينطوي عليه من شدائد واخطار » .

فنحن امام مشكلات انسانية جديدة ، تتطلب مواجهتها عقلية جيدة ، **عقليـــة يجب ان تتمتع بصفات وميزات من نوع خاص؛** لـكي تتمكن من الفوز في مصارع الحياة المقبلة .

أولى هذه الصفات « الزيادة والاستطلاع » . فلم يعد ممكناً لنا ان نبني عالم الغد ، اذا لم نحن نصوره ، ولم نـــدرك كنهه . ذلك هو مفهوم التخطيط . « ان التخطيط يتطلع الى المستقبل ،

فيرسم الغايات ويحدد الوسائل ، على ضوء الصورة التي يكونها له » . والتخطيط السليم ينبثق من عقل قادر على استباق الاحداث والاعداد لها . « والأمة التي لا تتميز عقليتها بالاستطلاع والاستكشاف ، ولا تجد السير قدماً الى الغد الآتي ، سيوقظها يوماً عنف الصراع ، وقسوة السباق ، وستجد انها في مؤخرة الركب ، وانها ليست وفية لماضيها وحاضرها ، لأنها لم تكن وفية لمستقبلها » .

ولكن العقلية المستطلعة ، لا تقتصر على ميدان واحد ؛ إن عليها ان تشمل العالم . فالثورات العلمية والصناعية المتتابعة ، جعلت الصلات في عالمنا وثيقة ، وربطت بين اجزاء الأرض ، ووحدت مصير البشر ، « وكذلك الحال في انتشار الافكار والآمال والنزعات ، وكل تطور يحدث في بقعة من بقاع العالم تتجاوب اصداؤه في البقاع الأخرى ، لذا صح قول القائل « إن البشرية قد ولجت اليوم العصر الكوكبي » فالعقلية الجديدة المنشودة « لضمان البقاء في هذا الزمن والوقوف في وجه تفجراته ، هي عقلية عالمية في نطاقها ، كوكبية بل كونية في سعة مداها ، فلم يعد يصح للفرد ان ينظر الى مشكلات أمته من زاوية مصلحته الخاصة ، او من نافذة حيه ، او طائفته ، او عشيرته ، او طبقته ، او بلده ، بل يتوجب عليه إذا اراد ان يكون له رأي مسؤول ، او فعل منتج — ان يضع هذه المشكلات في موضعها من التطورات العالمية ،

فيسعى الى ادراكها في هذا النطاق ، والى معالجتها بما ينطبق على مقتضيات هذا العصر الكوكبي ومتضمناته » .

لذا توجب على هذه العقلية الجديدة ايضاً ، ان تكون مرنة ، بحيث تستمر في انطلاقها وتساير الركب العلمي ، والتطور الحتمي ، وتتجلى مرونتها في نشدانها للحق اينما وجد ، وفي اعترافها به ، كما تتجلى في استعدادها للنمو المستمر . « ان المفاهيم تتغير او تضطر الى التغير ، والاوضاع تتبدل ، او يفرض عليها التبدل ، فلا غرو إذا تطلب ذلك كله عقلية تتميز بالتنبه والمرونة » .

وبتعبير مختصر ، إن الصفة البارزة للعقلية المنشودة ، هي الطابع العلمي . « وعلى هذا فان تكوين العقلية العلمية المرتجاة ، يقتضي اول مايقتضي قراراً صادقاً في صميم نفس المجتمع بكامله . ومآل هذا القرار ، هو ان الحقيقة ، هي ارفع قيمة انسانية ، وأنفس مايمكن ان يكتسبه مخلوق ، وإنها في نهاية الأمر اسلم للفرد والمجتمع من الخطأ وأبقى ، وان طريق الخلاص الامينة ، هي طريقها ، طريق العلم والعقل » .

يجب ان نؤمن إذن بالعقلية العلمية ، ويجب بالتالي ان نعمل على توفير وسائل العلم وبناء اجهزته ؛ فهي السبيل الذي لامحيد عنه ، والعدة التي ليس منها بديل ، إذا أراد المجتمع ان يضمن لنفسه العيش ، او ان يكون له اثر في الحضارة وذكر في التاريخ » .

ولكن العقلية العلمية ليست كافية وحدها ؛

انها تظل ناقصة إذا لم يسايرها فعل الضمير ويقظته. « فالعقل يحدد الغايات ويبين الوسائل ، ويرسم الخطط ، ويميز الصواب من الخطأ ، ولكنه كثيراً مايقف عاجزاً دون الحفز الى الحق ، والاستثارة الى الخير ، او دون الانضباط والارتداع ، عن مزالق الشر والفساد ، وذلك بسبب نضوب معين الضمير ، وخفوت صوته ». ان ازمات الانسانية ترتد بنسبة كبيرة الى هذا التفاوت البارز بين تفجر علمها ، ونضوب ضميرها ولذا فان أزمة الحضارة الانسانية تتجسد في هذا التفاوت . وكما ان العقل يثور على الضلال والوهم فان الضمير يثور على الشر والفساد . ولكن سبيل الثورية الضميرية ، كسبيل الثورية العقلية ، صعبة شاقة ، لانها تتطلب محاسبة مستمرة للذات ، واستعداداً للخضوع لأحكامها ، ولأنها كما قال النبي العربي الكريم تمثل الجهاد الاكبر ، جهاد النفس » .

هذه الثورية العقلية ، وهذه الثورية الضميرية هما في الواقع نتاج للثورية الداخلية الشخصية . إن ماتنشده الانسانية من اهداف السيادة والقوة والعدالة ، لن يتحقق لها مالم تحسن السير وفق مبادئ العقل العلمي ، والضمير الحي اليقظ فمشكلة عصرنا المتفجر ، ترتد بالنتيجة الى تحرر الانسان، وتحرر نفسه من اوهامها وجهالاتها واهوائها وغواياتها . « وهل من سبيل الى هذا التحرر الذاتي سوى سبيل الضمير والعقل ! » .

●

مولود جديد..

اسمه نادي القصة

عبد الله الشيتي

في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٦١ ، شهدت الاوساط الادبية ولادة مؤتمر نادي القصة في الجمهورية العربية السورية ، وكان لهذا الحدث الادبي الضخم أثر في حياتنا الادبية ، تناولته صحف ومجلات محلية وعربية كثيرة ، بالتقريظ والتهليل

فقد كانت ولادة ناد للقصة السورية ، يحضن كتاب القصة جميعاً ، تعني اشياء كثيرة ، ابرزها:

١ ـ تشجيع الحركة القصصية ، كلون مستقل من ألوان الأدب المحببة الى نفس قارئنا اليوم .

٢ ـ توثيق الصلة والتعاون بين كتاب القصة وايجاد نوع من الاتساق فيما بينهم ، واشعارهم بمدى مايترتب على كواهلهم من مسؤولية جسيمة حيال فن القصة الذي بات يتطلب منهم كل البراعة وكل الابداع ، وان يحافظوا على المستوى الرفيع للنتاج القصصي .

٣ ـ ابراز كيان القصة السورية !

٤ ـ رد الاعتبار للقصاصين السوريين .

٥ ـ خلق جو خاص بالقصاصين ـ من الناحية الاجتماعية ـ يلتقون فيه على صعيد واحد من التعارف ، والتصادق ، والمودة ، وتبادل الرأي والثقافة القصصية .

٦ ـ انشاء ناد للقصة ، يكون امر الانتساب اليه ، وممارسة النشاط القصصي فيه ، وقفاً على كتاب القصة في سورية فقط !

تلك ، ابرز النقاط الهامة ، التي قامت من اجلها الدعوة الى عقد مؤتمر القصة العام ، وهي بالتالي النقاط الرئيسية ، او الخطوط العريضة ، التي ارتكز عليها المؤتمر في ذلك الحين .

بدأت المحاولة فكرة صغيرة ، ثم مالبثت ان كبرت .. وما ان انتشرت حتى بادرت الصحف في دمشق وحلب الى تأييدها ..

وفي مساء يوم الجمعة الخامس عشر من شهر تشرين الاول للعام ١٩٦١ عقد مؤتمر القصة السورية في المركز الثقافي بدمشق ، وشهده جمهور من الضيوف الادباء الآخرين والصحفيين من دمشق وحلب ، وحمص واللاذقية .

وكان في مقدمة الحضور الذين دعوناهم والذين بلغ عددهم ٧٥ قاصا ، الدكتور عبد السلام العجيلي ، كوليت الخوري ، جورجيت حنوش ، علي خلقي ، زكريا تامر ، جورج طرابيشي ، فارس زرزور ، هاني الراهب ، يوسف مدور ، جان الكسان ، وليد مدفعي ، ياسين رفاعية ، عادل سلوم ، عماد تكريتي ، فاتح المدرس ، صميم الشريف ، علي بدور ، منور فوال ، يوسف جاد الحق ، هشام الحكيم ، سعيد مراد ، عادل ابو شنب ، سليم زهدي ، ممدوح السكاف ، عدنان الداعوق ، ادوار حشوة ، مراد السباعي ، فيليب عبد الحق ، ام عصام ، عبد الرحمن اليك ، خالد الشريفي ، عبد العزيز هلال ، الدكتورة انعام المسالمة ، فاروق منجونة ، فؤاد الحكيم ، وغيرهم ممن لم تحضرني اسماؤهم .

فنوقشت فكرة اصدار ملحق خاص بالقصة عن مجلة الثقافة ، وفكرة اصدار المطبوعات القصصية والنشرات السورية ، ثم انتقل الحضور الى مناقشة فكرة تأسيس النادي ، واقامة الندوات القصصية وتنسيق اذاعة القصص في الصحف والاذاعة ، وتوسيع الصلة والتعارف بين القصاصين ومن ثم توثيق الصلة عن طريق الزيارات والندوات مع قصاصي البلدان العربية . كما نوقشت حرية الاديب والكاتب وحمايته ، وحماية انتاجه القصصي ، وتأسيس فروع لتوزيع المنشورات والمجموعات القصصية ودراسات القصة في مختلف انحاء البلاد العربية وفي داخل الجمهورية العربية السورية على وجه الخصوص .

وتحمس الجميع لهذه الموضوعات التي طرحت على بساط البحث وادلى كل منهم برأيه واقتراحاته التي سجلت في ضبط الاجتماع من قبل اللجنة التحضيرية ..

وخلص المؤتمرون بعد اجتماع ثلاث ساعات متواصلة الى الاتفاق على العمل الجدي المثمر من اجل ابراز كيان القصة السورية ، وحماية انتاج القصاصين وتنشيطهم ، وتسهيل وسائل النشر والاذاعة امامهم وتأمين الرعاية اللازمة للجيد من انتاجهم ليكون في مستوى

فنـــون

المســرح القــومي يعــد موسمــه

بيت الاشباح (ابسن) فخ لرجل وحيد (روبرت توماس) توباز (بانيول) مروحة اللادي وندرمير (اسكار وايلد) الاربعة الكولونيلات (اوستينوف) بالاضافة الى : المفتش العام (غوغول) وشيترا (طاغور)

القصص العالمية .. خاصة بعد ان تمكنت القصة السورية الآن من ترسيخ اقدامها في المعـــترك الادبي ، كما تم الاتفـــاق على فتح مجالات النشر والذيوع امام القصاصين الناشئين أو المغمورين ، علماً بان معظم صحف ومجلات العـــالم العربي ، يغذيها قصاصونا الشبان في سورية العربية ، ولا تكاد مجـلة لبنانية او صحيفة تخلو من قصة لواحدهم .

واخيراً نوقشت فكرة مدى مناصرة وتشجيع الجهات المسؤولة في الدولة ، ولا سيا وزارة الثقافة والارشاد القومي لهذا المؤتمر الذي انبثقت عنه فكرة انشاء « نادي القصة في سورية » له فروع في المحافظات السورية .

ثم انتخبت لجنة تأسيسية للمؤتمر لمتابعة اشهار النادي ، واستصدار الترخيص اللازم له وترتيب ما يلزم بشأن افتتاح وتهيئـــة اسباب خروجه حقيقة رائعة مدهشة ، ونتيجة ملموسة مشكورة وكان قوام اللجنة الاساتذة :

من دمشق : ام عصـــام ، اسكندر لوقا ، وليد مدفعي ، جان الكسان ، ياسين رفاعية ، عبد الله الشيتي .

من حلب : علي بدور ، عبد الرحمن البيك ، مظفر سلطان ، فاتح المدرس .

من حمص : عدنان الداعوق ، مرادالسباعي .

من اللاذقية : فيليب عبد الحق ، عادل سلوم ، خالد العريفي .

من دير الزور : عبد العزيز هلال .

من حماة : ادوار حشوة .

وقد انصرفت هذه اللجنة الآن الى اجراء المعاملة القانونية للحصول على رخصة انشاء نادي القصة في سورية تمهيداً لعقد اجتماع عام في القريب ، يصار فيه الى اجراء انتخابات الهيئة الادارية .

وقطعت اللجنة في دمشق شوطـــاً كبيراً في تهيئة كل ما يلزم للمؤتمر من اسباب النجاح .

وعما قريب ، سيصفق المجتمع الادبي للحدث الكبير ، للحلم الذي تحقق ... لنـــاد للقصة « لحمته الايمان وسداه الاخلاص .. وشعاره المحبة بين الجميع » ..

ثار حول المسرح القومي الذي انشأته وزارة الثقافة والارشاد القومي في اول عام ١٩٦٠ ، جدل طويل ومشروع ، يتداول في ذاته مسائل مبدئية كبيرة . فقد أخذ النقاد والصحفيون يسألون: اين المسرح القومي ؟ وهل ذاب مجهوده ، أم تحول اعضاؤه الى مجموعة كسالى يعدون الايام ويقبضون الرواتب ؟

والجدل في ذاته ــ والاسئلة مهما كانت قاسية ــ تفصح عن شوق عارم الى نهضة فنية عاجلة وصحيحة . ولنبادر هنا الى تسجيل حقيقة لاريب فيها ، وهي ان جمهورنا رفيع الذوق ، ومطالبه ــ بالتالي ــ كثيرة ملحة . ولكن هذه الحقيقة نفسها جعلت المسرح القومي لايستعجل في الظهور أمام الجمهور قبل استكمال أهبته ، وتوسيع دائرة مسرحياته وتلوينها ، وتأمين المكان الصالح لعمل مستمر .

ومن المفيد حقاً أن يعلم الجمهور الذواق كيف سارت الامور في المسرح القومي ، وكيف تسير ومن المفيد حقاً ان تتسع صفحات المعرفة ــ وهي صوت الثقافة الحرة ــ لجدل مرصوص على اساس المعطيات التي نقدم بعضها فيما يلي .

١ ــ أهبة المسرح

في المسرح لا يصح الذي يصح في ميادين الانتاج الفني الفردي . فالمسرح عمل جماعة متعاونة تتكاتف على رفع المسرحية ، وكل هبوط في اية ناحية من نواحي التمثيل او الاخراج او الصوت او نوع المسرحية او اعداد الجمهور ، يؤدي الى اضعاف العمل المسرحي برمته .

وقد اختار المسرح القومي الفصحى . فكان لا بد له من صرف الاهتمام الكبير الى اتقان الممثلين والممثلات لهذه اللغة حتى لا يصدع السامع بخطأ النحو وبخطأ النطق فيكون كمن افاق من الحلم بضربة على الرأس . ولذلك تزود المسرح القومي باستاذ بارع يعلم قواعد اللغة العربية لمجموعته التي تناهز الثلاثين ، وتتراوح اعمار افرادها السابعة عشرة والستين ، وتتراوح ثقافتهم بين الابتدائية والجامعية . ومن الواضح ان مثل هذا المجهود يتطلب زمنا لا حيلة للمسرح القومي فيه مهما بلغ افراده من الاقبال والحماس والاستعجال . والزمن رفيق النضج .

واختار المسرح القومي الروايات السوية الرفيعة ، وهذه لا بد لاتقانها من زمن لا تتطلبه الروايات السهلة الاداء ، ويزيد من قيمة الزمن المصروف للاتقان ان الممثلين في المسرح القومي كلهم من الهواة وليس فيهم واحد خريج معهد للتمثيل ، اذ ليس في سورية غير اثنين ــ رجل وسيدة ــ من خريجي هذا المعهد ، والأول معلم في وزارة التربية .

واختار المسرح القومي أسلوب الحفظ الكامل للاستغناء عن الملقن . ذلك ان الممثل الذي لايحفظ دوره إنما هو رجل لايدرك شخصيته . كل جملة من الحوار هي قطعة من هذه الشخصية ، واذا كان بين كل جملة وجملة وقفة بانتظار همسة الملقن فالمعنى المباشر لهذا أن الممثل يلقي جملاً تعطى له ولا

يمثل دوراً . والحفظ الكامل لمسرحيـــة كاملة لايمكن أن يتم بالوقت القليل ولابالعمل العجول.

واختار المسرح القومي نظام البدلاء ،فلـكل دور أكثر من ممثل يؤديه ، وفي هذا اتقاذ للفرقة من ان يعطل عملها لمرض أو عذر يمنـع احد الممثلين من العمل . ونظام البدلاء يضاعف الوقت المصروف لاعداد المسرحية الواحدة .

كل هذا يجعل اتفاق الزمن اختصاراً له ، وقديماً قيل : رب عجلة تهب ريثاً . ثم انوزارة الثقافة ، وعملها في ميدان الفن ريادة وفتـح لأبواب المستقبل ، ليست الهيئـــة المـكلفة بأن تستعجل على حساب الاتقان . وفي العمل الفـني لايغني الكم عن الكيف ، ولا تغني كثرةالروايات عن جودة مستواها ، ويصبح هذا الكلام اكثر أهمية في عصر السينما ومزاحمتها الشديدة للمسرح في البلاد الراسخة في النهضة المسرحية ، وفي بلد كبلدنا علا فيه مستوى الجمهور الذوقي فلم يعد يمر عليه الغث والسطحي الضحل .

٢ ـ توسيع دائرة المسرحيات

وكان على المسرح القومي،في خطته المدروسة، ان يعطي مسرحيات متنوعة الالوان ترضي الامزجة المختلفة . فمن المسلم به ان مايرضي الناس المختلفين لايمكن ان يكون شيئاً واحداً اولوناً متحجراً. ولذلك اجتهد المسرح القومي ليكون موسمـــه المقبل حافلا بالالوان المختلفة واليكم البيان :

المفتش العام ــ للـكاتب الروسي غوغول ــ اجتماعية ضاحكة .

شيترا ــ للـكاتب الهندي طاغور ــ رمزية ملأى بالشاعرية .

بيت الاشباح ــ للـكاتب النروجي إبسن ــ اجتماعية مؤثرة .

فخ لرجل وحيد ــ للـكاتب الفرنسي توماس ــ لغز مثير على اسلوب هيتشكوك .

توباز ــ للـكاتب الفرنسي بانيول ــ اجتماعية ضاحكة .

مروحة اللادي وندرمير ــ للـكاتب الانكليزي وايلد ــ اجتماعية مؤثرة .

الاربعة الكولونيلات ــ للـكاتب الاميركي اوستيون ــ نقدية ذكية ضاحكة .

وكان لابد لاعدادها من معالجة النصوص معالجة مسرحية خاصة ، تتناولها بالتقصير كنص كامل ، وبتعديل الجملة لتكون سمعية لابصرية (لاكثر المترجمين لايعنون بهذه الناحية) ولترجمتها ان لم يكن سبق نقلها كما حدث في ثلاث من هذه الروايات .

وكان لابد لاختيار روايات تبقى في برنامج المسرح القومي ويقبل عليها الجمهور من قراءة عشرة اضعاف عددها بأكثر من لفة من لجنةمن القراء التي فيها كبار مسؤولي وزارة الثقـافة ، ومن الطبيعي ان يكون كل هذا مما يقتضي زمناً مهما اختصر فانه طويل بعض الشيء .

تأمين المكان الصالح للعرض

وليباشر المسرح القومي موسمـه بنجاح ، ويتيـح للجمهور استمراراً في عرض المسرحيات

لابد منه لخلق الاقبال على العمل المسرحي ، لم يكن للمسرح القومي بد من انتظار مسرح الوزارة الصغير في شارع ٢٩ ايار – تحت المصرف الصناعي ، وهو الآن يتلقى اللمسات الاخيرة من الديكور والاعداد . ذلك أن المسرح العسكري بعيد عن مركز المدينة بعض الشيء ، والمواصلات صعبة اليه فلا يمكن فيه الاعتماد على شباك التذاكر وهو من أعمدة الحياة بالنسبة للمسرح والمسارح الاخرى ماهي الا صالات سينما غالية الاجور ضعيفة التجهيز الفني .

ويوم يكون للمسرح القومي صالته الخاصة ، مهما يكن اتساعها ، فان في وسعه ان يقدم حفلات مستمرة من رواياته السبع الجديدة بالاضافة الى القديمة ، حتى اذا طاف الدمشقي يبحث عن سهرة ممتعة وجد دائماً رواية مسرحية تقدم في مكان ثابت معين . وقد قسم المسرح القومي الى مجموعات تستطيع احداها ان تكون على المسرح فيما تكون الأخرى آخذة في اعداد رواية جديدة وهكذا ..

ويوم يبدأ الموسم المسرحي – وقد تأخر هذا العام بسبب بعض الظروف ومنها عدم انجاز صالة المسرح – نكون قد بدأنا عهداً من النهضة آماله بعيدة بعيدة .

●

معرض الفنون الشعبية

لو وقفت في معرض دولي وجعلت تتفرس في وجوه الالوف من العابرين ، قل لي : هل يسعك ان تميز الاقوام من الوجوه والملابس وحتى من اللغات ؟ لقد بلغ زحف الحضارة الآلية حداً لم يعد يسعنا معه أن نعرف الانتماء القومي لأي شخص مالم يصرح هو عن هويته .

وقد طرح زحف الحضارة هذا مشكلة كبرى على الدول جميعها : كيف نحفظ تراثنا فلايندثر ؟ ولم تقل أية دولة او جماعة قومية ان الانكماش هو السبيل ، فلقد طويت المسافات بين الناس ، وانتهكت الحدود الحضارية ، وتوحدت مطالب الناس وسبلهم في العيش . ولكن الناس اجمعوا على ان يحفظوا التراث القومي والمحلي بشكلين من اشكال الحفظ : التسجيل بالصورة والنموذج والشريط الصوتي والسينما والتدوين ، ثم التطوير في المجال الفني ، فتكون ملامح التراث حية على المسرح وفي المناسبة والحفلة والعيد .

والطريقة الاولى ، ولنسمها المتخفية ، سباق حقيقي مع الزمن . فالناس في اعجابهم بالاغاط المستوردة من العيش يسارعون الى اقتباسها ، وهبات التغيير في الازياء ومايتبعها تكاد تكون آنية في العالم كله . فلا يستحدث مظهر في لندن او باريس حتى تنقله المجلات والاخبار السينمائية المصورة الى كل مكان فاذا بالناس كلهم يهرعون

الى التقليد . وفي التقليد ، ينزع الطربوش وسائر اغطية الرأس ، وتخفى الثياب المزركشة القديمة على انها من الآثار « المخجلة » للتأخر ، وترمى الآلة الموسيقية القديمة البلدية لان الاسطوانة الحديثة طغت على ذوق الناس ، ويبتلع اعصار الحضارة كل شيء نمنمته يد الانسان بالعمل الطويل والذوق الخاص ، ليطرح مكانه بساطاً من صنع الآلة وقاشاً مطبوعاً بطريقة بيكاسو وعلب لحم محفوظ مطبوخ مجهز ــ ولولا قليل لاكلوه عنا..

وحين أسست وزارة الثقافة والارشاد القومي وجدت أن المديرية العامة للآثار والمتاحف قد أقامت في قصر العظم متحفاً شيقاً ممتازاً للتقاليد الشعبية ، وسعت الى إقامة غيره ، فرفدت هذا المجهود بتأسيس دائرة للفنون الشعبية تعمل عملاً يبدأ موازيا لعمل مديرية الآثار العامة ومكملاً له ، ويرجى ان ينتهي وقد اتسع حتى يتحول إلى مركز مستقل نشيط لتسجيل التراث الشعبي كما هو الشأن في اكثر البلدان وبوجه خاص بلدان اوربا الشرقية .

أما الطريق الثاني ، وهو إتاحة هذه المادة الشعبية الأصيلة للفنانين من تشكيليين (مصورين ونحاتين)وتطبيقيين (نحاتين وموسيقيين ومصممي رقصات شعبية) فهو عمل تنفرد به دائرة الفنون الشعبية تقريباً لما لها من صلات وثيقة بالجهات المختصة في وزارة الثقافة .

وكان المعرض الأول للفنون الشعبية الذي اقامته الوزارة في الايام الاخيرة من كانون الاول ١٩٦١ ، مجرد مجموعة من الرموز والعناوين لمجهودها السابق والمقبل . فقد ضم طائفة من التسجيلات تناولت المواضيع التالية :

١ ـــ الملابس الشعبية ،في صور فوتوغرافية ، وصور ملونة للعرض بالفانوس السحري، ومقتنيات عرضت على الجمهور . ودمى تلبس الثياب الشعبية الاصلية من صنع معمل خاص في الوزارة .

٢ ـــ الصناعات الشعبية ، وبوجه خاص صناعتي اطباق القش والبسط ، في صور كالسابقة ومقتنيات .

٣ ـــ الحلي الشعبية ــ صور ونماذج .

٤ ـــ الزخارف الشعبية المستعملة في زينة الثياب والبيوت والمصنوعات .

٥ ـــ فرق الرقص الشعبي في مختلف المناطق وبالغ عددها عشرين فرقة نشطت الوزارة عملية تأليفها لتكون تراثاً حياً دائماً ــ وقد عرضت صورها مأخوذة من المهرجانات التي اقامتها الوزارة للفرق الشعبية.

٦ ـــ الموسيقا الشعبية ، وقد سمع الزوار اثناء طوافهم تسجيلات شعبية لها كنماذج سمعية حية .

٧ ـــ العادات الشعبية كالزواج ، وقد عرضت عنه مجموعات صور طريفة بالاضافة الى كتاب عن تقاليد الزواج من اعداد دائرة الفنون الشعبية بمعونة المراكز الثقافية، وقد طبعته الوزارة تمهيداً لتوزيعه على

نطاق واسع .

٧ — طريقة التسجيل ، وقد عرضت دفاتر المنظمة لهذه الغاية وفيها تدون المعلومات التي تسمح بالتحقيق العلمي المنظم .

بالاضافة الى جوانب اخرى كثيرة من نشاط دائرة الفنون الشعبية في ميدانها الخاص .

وقد دعي الى حفل الافتتاح عدد كبير من الشخصيات العربية والاجنبية وممثلي الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، يتقدمهم سيادة وزير الثقافة والارشاد القومي والاعلام السيد فؤاد العادل ، والامين العام للوزارة ، وكبار موظفي الوزارة ، والقى مدير الفنون كلمةافتتاحية قصيرة ثم طاف المدعوون والجمهور على المعروضات ورجوا ان يتسم عمل دائرة الفنون الشعبية في مجالاتها الخصبة المثمرة لتقيم المزيد من المعارض وتنظم معرضاً متقناً يمكن أن يرسل الى البلاد الاجنبية ليكون داعية للذوق الشعبي في سورية العربية ولحضارتها العريقة البهية .

وقد دام المعرض اسبوعاً في صالات المركز الثقافي في دمشق فاستطاع عدد كبير من الزوار ان يشهده .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

يقدمها فؤاد الشايب

العالم المذعور – الأدب الأسود – خرافة جيمس دين – ايفو اندرتش وجائزة نوبل – رجال واشكال – ادب الجيب – موت الأبطال .

العالم المذعور

كنت اقرأ لوليام فولكنر – الروائي الامريكي – ، مقالا كتبه عام ١٩٥٤ ، اثر كارثة طيران مروعة ، يشير فيه الى هذا العالم الذي ينظر الى الآلة الساحقة بخوف واحترام فرضهما العصر الآلي على الانسان ، كما فرضهما من قبل اله اسرائيل ذلك الاله الحقود ، القاسي المنتقم . مع الفرق ان الآلة تجهل الحقد والانتقام ، لأنها تجهل حقيقة وجود الانسان ..

ومؤخراً ، أخذت اقرأ لكاتب حديث ، رسالة من نيويورك تحت عنوان (الخوف الأكبر) ، يصف فيها حالة الذعر التي اصابت سكان المدن الامريكية ، ازاء اخطار التفجيرات الذرية وانتشار غبارها القاتل ، ويروي قصة نوح جديد ظهر في كاليفورنيا عام ١٩٤٨ ، بنى

بالفعل لنفسه واهله سفينة مجهزة بكل اسباب العلم الحديث ، واعدها للانزال على شاطئ الباسيفيك والابحار بها الى عرض البحـــر ، لدى حدوث اول غارة ذرية .

ثم استمر التحصين في كاليفورنيا ايضـا ضد التفجيرات الذرية .

ومنذ شهور اعلن نفر من كبار الأثرياء ، انهم قد بنوا لانفسهم ملاجىء تحت الارض ، ودعوا الصحافيين الى زيارتها ، والتحدث عنها وقد اتضح بالفعل ان هذه الملاجىء التي انفق عليها الملايين ، لا تقي سكانها تفجرات القنابل الذرية فحسب بل تحميهم من الاشعاعات الناتجة عن التفجير ايضاً . ففيها مدخرات من الهواء النقي ، والحشائش الخضراء ، والمياه العذبة ، التي تكفي زمناً طويلاً ، كما زودت بالمآكل المحفوظـة ، واسطوانات الرقص والغنـاء ومجموعات من الكتب ، ومؤونات العلاج والطب ، وبنادق عادية ورشاشة ، ليست معدة للاستعمال ضد عدو طارىء ، بل — كما يقول الكاتب — ان اصحابها قد اعدوها ليدفعوا عن انفسهم هجوم الجيران على هذه الملاجىء .. التي لا يحق لاحد ان يلجأ اليها ، الا الذين بنوها . وقد اثارت اخبار هذه الملاجىء ، بنيها لانفسهم اصحـاب الملايين ، ويدافعون عن حقوقهم فيهـا بالرصاص ، ضمير الالوف من الذين يؤكدون ان (الحياة لا تستحق ان يحياها الانسان في الفترة التي تلي التفجير الذري ، اذا كان يحق لأصحاب الملاجىء ان يقتلوا مواطنيهم ، ليتمتعوا بالبقاء وحدهم) .

تلك معضلة انسانية خلقية ، يجب ان يجد لها حلا ذاك المجتمع الذي يقدس (الحرية الفردية) ومسؤول في الوقت نفسه عن (حق الجماعة) .

اما الكاتب فليس لديه جواب . انه يترك للشعب الأمريكي مجابهة المعضلة وحده .

الأدب الأسود

قرأت هذا الأسبوع عن (الضجر) وفي (الضجر) لالبيرتو مورافيا ؛ وعندما كنت اقرأ له منذ خمسة اعوام (امرأة من روما) هالني في هذا الروائي ؛ تلك الواقعية الحسية الـتي لا استطيع تصورها الا اذا مثلتها بالقاء جسد عار حي على جمر شواء !!

في مثل هذا الأتون الخانق ، يلقي مورافيا بطل (الضجر) روايته الأخيرة ويجلس على الحافة بكل برود ، يتفرج . ولمورافيا صفة مميزة ، هي انه لا يلهث ولا يعرق ، ولا ينبض فيه عرق بينما اشخاصه يتضورون ، فكأنه جراح قاس يمزق الشرايين بمقصه ، ولا يشعر اكثر مما يشعر حديد المبضع . وليس مورافيا الايطالي وحده ، بصاحب هذه الصفة ، وان بدا انه يتفرد بهـا ويغرق ، انما هي طابـع الأدب في آثار معظم الكبـار من روائيي العصر ، وعلى الأخص الامريكيين منهم ... وفولكنر في المقدمة . انهم لا يريدون أن يدخلوا في المشهد ، ويبقون خارجه ، خوفاً من أن يصوروا ظلالهم عليـه ، فيشوهوا واقعه ، أو يصبغوه بالوان نفوسهم ، على الطريقة الرومانطيقية . وقد نسميهم هؤلاء

الجراحين ، قساة غلاظاً ، وهم يسمون انفسهم متفرجين : هذا هو الواقع !

وقع (نيدو) المسكين ، كالضفدعـة المعدة لتجربة التشريح تحت مبضع مورافيـا . ونيدو فنان رسام فاشل ، يرفض بكل كسل وتراخ أن يتصل بحقيقة الحياة ، وبحقيقةالفن ايضاً .واذ تفرغ حياته من الجهد الواصل ، الذي يشده إلى فنه وحياته ، فانه يعيش في فراغ رهيب ، حيث يستبد به في ضعفه وانقطاعه ، ذلك الحيوان الضاري ، الذي هو الضجر . ومن هذا المخبأ المظلم ، يتصل بالدنيا بشعاع طارئ ، فيتعرف إلى سيسيليا ، ويحبها ، فيعطي كل ذاته الى شهوة الحب المغرق ، وتصبح معاقرته اللذة بالادمان ، سبيله الوحيد إلى الأفلات من كابوس الضجر ، وإلى تلمس وجوده في حياة لاجدوى فيها ولاهدف ثم انه في غمرة هذه الغريزة الضارية ، غريزة التملك المطبق ، يدخل إلى قلبه ، الشك والغيرة ، اللذان يلازمان حب التملك عادة ، ويغدو في جنون الغيرة ، وعدمية العجز ، شخصاً تتم فيه كل عملية التفسخ الفكري والخلقي .

وعندما ينتحر (دينو) فكريا بتوقيعه في ذيل لوحة فارغة ، معلناً بذلك انقطاعه النهائي عن ممارسة فنه ، كان بالواقع يفكر في الانتحار المادي ، بعد أن فقد كل سبب لوجوده ، حتى سبب التوهم انه يعيش بادمان المتعـة ، وعندما ينقذ من الموت ، يعود إلى الحياة ثانيـة ـ بلا جديد ـ الى حياة الحب المغرق ، والشك ، والغيرة ، والعذاب . وهكذا يحكم عليه بالحياة التي يفترسها الموت فلا الموت يشبع ، ولا هي تنتهي .

يقول الناقد مارسيل بريون في مجلة (نوفيل ليترير) ان مورافيا ، الروائي الايطالي ، يصور معضلة الوجود بكل مأساتهـا ، وافجع مافي هذه المعضلة أنها تبقى معلقة ، دون حل.

وهكذا يترك الكاتب انسانه أمام المعضلة ، ليواجهها وحده .

هناك كلمة صغيرة اردفها على هذه الصورة من الأدب الأسود ، الذي يتفجر في آثار الكبار من كتاب اوروبة وامريكا ، هي أنه في هـذا العصر ، حيث تنتشر الأفكار بين آفاق العالم الاربعة ، كما ينتشر الغبار الذري ، بأجنحـة الموجات الاثيرية ، ـ كأن نترجم آخر روايات فرانسواز ساغان الى العربية قبل ان يتيسر لفرانسواز نفسها مراجعة كتابها المطبوع ـ اصبحنا نخشى على ادبنا من التلوث بالغبار الاسود ، يفد الينا في زجاجات من عطر ، صنعها هؤلاء الفنانون العباقرة . ويكفي ان تقرأ ادبـاً قصصياً ، او تشاهد فناً سينمائياً ، اتخذ فيه « دينو » اسم « علي » وسيسيليا اسم « فاطمة » ، في مشاهد من الحياة المنقولة نقلاً نقيلاً سمجاً من نيويورك وروما الى دمشق او بيروت او القاهرة ، حتى ندرك ان عملية التلوث ، ليست حدثاً نرتقبه ، بل واقعاً نتحسسه ، ومرضاً نخشى ان ينقلب الى وباء . ويبقى ان الفرق بين دينو وعلي ، ان الاول وجود انساني حي في جوه ووسطه والثاني وجود شكلي مختلق في وسطنا وجونا . والادب الضعيف ، اذا لم يتحمل لقاح التجربة العـالمية ،

كخميرة ابداع ، انقلب اللقاح فيه الى سم قاتل .

خرافة جيمس دين

... وكانت صحف القاهرة ودمشق ايضاً ، منذ عام ، تحمل حملات واسعة ، على الشباب المائع ، المتسكع في « سليمان باشا » او امام دور السينما ، وتتحدث كل يوم عن مغامرة من مغامرات « جيمس دين » . فقال لي صديق ، ونحن نتجول ونتأمل : والله انها مشكلة حقاً ، مشكلة هؤلاء الشباب . قلت : ليست المشكلة ، مشكلة عشرات من الشباب يتسكعون في الشارع الكبير ، بل هي مشكلة الالوف من الشباب الذين في مثل هذه الساعة من الليل ، يكبون على دفاترهم المدرسية ، وليس في غرفهم العارية ، سوى الخثالات من سراج زيت ، وكسرة خبز وحصير بال . فلتفتش الصحافة العربية ، والأدب العربي عن المعضلات في مطارحها ، وإلا فان إثارة المعضلات السطحية ، ليست إلا تضليلا وحجباً للمعضلات الفعلية العميقة الجذور ، ان لم تكن تجارة صحافة وادب . ان مأساة الشباب العربي ليست في جيمس دين ، ومعضلة الانسان العربي ليست في صورة الرجل الثري يهدر ثروته على موائد القمار .. ومأساة المرأة العربية ليست في حكاية ابنة البيك التي لا يريد اهلها ان يزوجوها من سمان الحارة !!

ان الادب يجب ان يفتش عن موضوعه الانساني العميق مثلما هو يفتش عن فنه ، لان اصالة الفن من أصالة الموضوع . والكذب في احسن صفاته ، حيلة بارعة وتزوير دقيق ، وليس فناً مبدعاً . ولعل أجمل ما في خيال الروائي انه يتخيل الواقع ويكتشفه بأجنحته . وواقعنا لم يكتشفه ادبنا .

ايفو اندريتش

عاش الملايين من البشر في الشرق والغرب فواجع الحكم العثماني خلال نيف واربعة قرون ولم يبلغنا ان ادباً من آداب هذه الشعوب قد صور تلك الفواجع ، حتى ظهر بغتة ، من يوغوسلافيا ، الاديب الذي أرخ لذاك النفق الطويل من الظلام وحكى روايته في « جسر على نهر الدرينا » .

لا ازال اقرأ في تاريخ حياة هذا الجسر الذي مرت عليه القرون بالأحداث الضخمة ، وأحاول أن اعرف لنفسي ، دون أن أقرأ لغيري لماذا اختارت مؤسسة نوبل هذا التاريخ الروائي ، دون سواه من آثار الادب العالمي ، لتمنحه جائزتها الكبرى ! وما قيمة هذا الجسر المغمور في بلدة فيشغراد ، في البوسنة القديمة ، ليعطيه المؤلف ثلاثمائة وخمس وثلاثين صفحة ــ الطبعة الفرنسية ــ ويجعل تاريخه جزءاً من تاريخ العالم .

بالواقع ان قدرة الكاتب قد جعلت تاريخ حياة جسر مجهول ، حدثاً من احداث التاريخ الانساني . ولعل وصف الناس الذين عاشوا على جانبي الجسر وماتوا ، خلال اربعمائة عام ، بينما تمر الحوادث الكبرى ، من ثورات وحروب ، وفيضانات ، قد جعل من هذا العرض التاريخي والانساني سمفونية من حيوات متداخلة متعاقبة

متلاطمة ، تصغي فيها الى قصف المدفع ، دون أن يفوت سمعك خفيف زحف النملة .

لقد أضاف الكاتب ، جديدا الى تاريخ العالم لايزال كتاريخ مجهولا ، واضاف جديدا الى السمات الانسانية ، بنماذج من الناس عاشوا في مدن (البوسنه) العثمانية ، وقراها ، مسيحيين ومسلمين ، أتراكا ، وصربيين ، وكرواتيين نساء وشيوخا واطفالا ، ابطالا ، ومجرمين ، خلال حكايات من افراح الشعب واحزانه وأخرى من اغانيه واساطيره ، فاعطى الادب العالمي نماذج من البشر ، لم تقع عليها عين ، ولم يمر بها قلم ، وعزز اليقين بأن الادب ، يستطيع ان يكون مبدعاً ، عندما يكون أصيلا ، بينما يظن بعد طول تداول للمواضيع المتشابهة ، ان كل موضوع مكرر ، وكل قول معاد .

قلت وأنا لاازال اقرأ رواية الجسر ؛ ثم في بلادنا ، التي تنسم رائحة اجوائها في حكايات اندريتش ، من نماذج بشرية فوق الارض مجهولة كالمعادن في بطنها ، نعيش معها ولا نشعر بها . فاذا تركناها في بطن الارض لاصحاب (الاختصاص) فالى من نترك هؤلاء المجهولين فوقها . والى متى تتأخر الشعوب المجهولة عن كشف كنوزها ؟ !

حفنة من تراب البوسنة ، وقطرة من نهرها ، في كف اديب ، بنتا قصراً منيفاً ليوغوسلافيا الحديثة ، في رواق الامم ، لايستطيع مثله مئات الرجال ، عبر مئات السنين .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .
هذه اول كلة في الجسر المخلد .

رجال وأشكال

لخص اندريه مورا ، كتابا جديدا صدر في ثلاثة اجزاء تحت عنوان (الفن والانسان) بأقل من صفحة معلنا انه كتاب يقرأ كاملا ولا يجوز تلخيصه واختزاله . وأرجو ألا يكون تلخيص التلخيص ، اشد حرجا . فلنترك الاطار العام ، ولنعرض بعض صور المقال وافكاره الرئيسية ، مما اظن ان له صلة بنواح من المشادات التي تقوم بين ادبائنا من حين الى حين .

الفكرة الاولى التي يعرضها الكتاب عن المؤلف (رونيه هويغ) ان الانسان منذ كان ومنذ بدأ يفكر ، شغل جزءاً كبيرا من وقته في خلق ، اشكال ومشاهد ، ليس وراءها اي نفع سوى جمالها فرسم صورا ونحت اشكالا ، وأقام عمارات لماذا؟ لماذا اعطت الانسانية المكافحة ضد هول القوى الخارجية ، اهتمامها الكبير بالعوالم المتخيلة ؟! لماذا نعلق الصور على جدراننا ، لوحات ومشاهد ، بينما يكفي أن نفتح نافذة البيت لنشاهد المارة ، ونطل على المشاهد الحقيقية ؟ ! لماذا نزين منازلنا او بنائنا ، بينما نستطيع أن لانطلب منه سوى ان يكون مجرد مأوى ؟!

الجواب متعدد الجوانب ، جماعه ان الفن يمنح الانسان مالا يستطيع العالم الحقيقي ان يمنحه اياه ، فالفن قبل كل شيء يثبت الاشكال ، التي تحب لها اثبات (ان الحياة ، كما تمر ، ليست سوى وقت مهدور ، ولاشيء يمكن انقاذه من الضياع ، الا بمظهر الثبات والخلود ، الذي هو عمل الفن) .

وشيء آخر : ان الفن وسيلة تعبير ، لاتقتصر على الفنان ، بل تتعداه الى عامة الجمهور . ومع العلم أن وسيلة التعبير الاولى هي الفعل ، فان الفعل ليس ميسوراً دائما ، ولابد ان تتحول الطاقة الفاعلة الى حالة التعويض عنها . وقد بدأ الانسان بتصور الاشياء التي يحبها ، ويفتقدها فلا يجدها ، وهو اذ ينادي الآلهة ولايراها ، يتصور اشكالها فينحتها في الحجر ، ليلزمها بالظهور ، ثم يعبدها . فالفن يمنحنا ماتأباه علينا الحياة : وحدة العمل والتأمل . وقد قال باكون : (ان الفن هو الانسان مضاف الى الطبيعة)

ثم ان الطبيعة وان تكن قادرة على ان تصنع عملا فنيا ، يبقى ان الفرق بين عمل الطبيعة وعمل الفن ، ان الاول يبقى اوسع من الاحاطة الانسانية ، والثاني يبسط الطبيعة ، ويدخلها في طاقة الاحاطة والوعي . والفن بقدرته على التعبير كان المظهر الانساني الملازم لكل مدنية .

ويلخص موروا نظرية تطور مدارس الفن عبر العصور ، كما اوردها المؤلف ، وخلاصة الخلاصة ، أن الفن عالمي ، يتأثر بعضه هنا ، ببعضه الآخر هناك ، فتأثير الاشكال المصرية والشرقية واضح في اوروبة ، والاشكال اليونانية انتقلت الى البوذية ، والفن الافريقي ، أوحى لفنانين اوروبيين ، وأثرت الاشكال اليابانية في الفن الفرنسي في مطلع القرن العشرين ، والفرنسية في الامريكية ، ثم انعكس الاثر من امريكا على فرنسا بالتبادل ، وقد قطعت الاشكال مسافات بعيدة وسريعة . وليس صحيحا ماقاله (ته ن) من ان الفنان يمكن ايضاحه بالعرق ، والوسط ، والظرف ، فحسب . اذ ان عوامل التأثير المتبادل بين الاشكال المسافرة ، لاتقل قوة عن العوامل المحلية ، وهذامايعطي الفن صبغته الانسانية العالمية .

ومن جهة ثانية ، فان الفن في عصر من العصور ، لا ينفك عن التاريخ ، والحياة الاجتماعية ، والفلسفة السائدة . فالعهود المحافظة ، تركت آثارها في الأدب والفن ، والفترة الرومانطيقية ، كانت واضحة الطابع فيهما ايضاً . كما كانت واضحة الأثر من بعد ، واقعية القرن التاسع عشر : فلوبير في الأدب ـ مثلا ـ وكوربيه في الفن ، ثم الرمزية في كل من الادب والفن . وتحت تأثير العلم في احالته المادة الى معادلات رياضية ، تطور الفن والادب الروائي ، وتحولت الاشكال من وضعها الطبيعي الظاهر الى تركيبة من الخطوط والمنعطفات ، لا علاقة لها بالواقع ، وكأنها مجرد اشكال هندسية . ثم ان الاشكال المتعاقبة ، على ما تم وصفه ، تتبادل الفعل والانفعال على نطاق عالمي ثم تتأثر محلياً بالأفكار السائدة ، والمستويات الاجتماعية ـ هذه الاشكال تخضع لما تخضع له الحياة الانسانية : ولادة ، واكتمال ، وانحلال ، وموت .

واخيراً ، فانه لابد لكل فن من وجود الانسان بالذات . فكل اثر فني ، لا نحس فيه ، الى درجة ما ، بالذكاء الناظم ، وبالحاجة الى التعبير ، وبجسم المزاج ، لا يستحق ان يكون

فناً . فاذا توفرت هذه الشروط ، فانه لابد ان تكون الطبيعة ايضاً الى جانب الانسان، فالجمال الفني الذي نرنو اليه ونرتاح ان هو الا حقيقة حية ، خاضعة لنظام الفكر . واللذة التي نشعر بها ازاء العمل الفني، هي في خضوع الحقيقة الى قانون الفن.

وكلما اجهد الفنان فنه بمقارعة الصعوبات ، ليفرض على الطبيعة قانونه ، كما فرض راسين في تراجيدياته ، نغماً منسجماً ، على عواطف مهتاجة، فكبحها وضبطها ، واوجد لها النظام الناظم ، ـ كلما فعل الفنان هـذا ، اقترب من قمم العظمة والجلال ، وشعر الناظر الى فنه او المستمع اليه ، بوجود نظام رائع وراء الشكل الفني .

... ان شكلاً مصنوعاً من جبس ، لايعطي شعور الجمال والجلال ، مثلما يعطيه شكل منحوت في رخام . لأن الطبيعة التي كبحها الفن وضبطها، بجهد وقوة ، تظهر في خضوعها ، فناً عظيماً .

وبينما يتحرر الفنان التافه من صعوبة المجهود ، يعرف الفنان العظيم ان المجهود العنيد الذي يقابل به الحوائل يتيح له السبيل ليكون فنه عظيماً .

واخيرا يقول رينيه هويغ ان الفن الحديث ، غير المتقيد بالاشكال الواقعيـة ، يؤلف رجعة بعيدة الى الاشكال القديمة الساذجة بواقعيتها .. وبهذا الرجوع الطويل الى الوراء يتم الفن دورة تاريخية تتحقق فيها نظرية المؤلف بأن الاشكال ، تولد وتتكامل ، وتنحل وتموت .

... وتموت الاشكال ، ولكن حاجة الانسان الى الفن ، لا يمكن ان تبلى او تهن او تموت . وستبقى ما بقي الانسان ، لانها منوطة الى طبيعة الفكر ، والجسد معاً .

أدب الجيب

أدب الجيب ، من سمات العصر . فهل يقتل أدب الجيب أدب الرف ؟! وليسمح لي باستعمال (الرف) مقابل (الجيب) .

لقد قامت دراسات واستكشافات طويلة في عواصم العـالم الكبرى مثل نيويورك ، ولندن وباريس . ويبدو أن نتائج المحاولات تـكاد تؤكد أن لاخطر من أدب الجيب على أدب الرف، بل قد يكون الكتاب الصغير أدعى إلى اجتذاب جمهور القراء نحو الكتاب الكبـير . بدليل أن دور النشر الكبرى ، في فرنسا وامريكا ، حيث ينتشر أدب الجيـب ، انتشاراً واسعاً ـ بدأ من امريكا ، مع الجاز والتلفزيون ـ تلجأ إلى نشر الكتاب الواحد في طبعتين ، احداهما تقليديـة معروفة بعشرة فرنـكات ، مثلا او عشرين ، وثانية للجيب بفرنكين . ويقول بعض المكتبيين أن الاقبال في موجاته الأولى ينصب على نسخـة الجيب ، ثم تتدنى الموجة بالتدريج لتتصاعد بعدها، موجة النسخة الكبيرة .

وكتاب الجيب ، بدلاً من أن يخشى خطره ، يجب ان تقدر فائدته . فقد استطاع الناشرون بناء على خطط مرسومـة ، أن يقدموا لقرائهم معظم كبـار الكلاسيكيين من افلاطون إلى شكسبير ، في كتاب الجيب ، إلى جانب المواضيع العلمية الأخرى المتراوحة بين فرويد، وداروين،

ومدام كوري ، وسواهم من علماء الذرة والصاروخ ... الخ ... بالاضافة إلى كتب الرحلات ، والتعريف ببلاد العالم وشعوب الأرض . وان الخطط الموضوعة فعلاً للكسب التجاري ، انما تغطي مساحات واسعة من المعرفة الذهنية الرفيعة ، وتجتذب اليها ، في عصر السينما والتلفزيون العدوين العاديين ، ملايين جديدة من انصار الكتاب . وكثيراً ماينقلب قراء الجيب ، إلى قراء رف ..!! بل ان زبون الجيب ، عابر سبيل ، لابد ان ينتهي مطافه ،أمام الرف الخالد ، حيث يسجد خاشعاً .

موت الابطال

كان شكسبير ، يقتل ابطاله ، حتى ليقال في الاستعارات الأدبية ، مات ميتة شكسبيرية ، اي مشؤومة .

والعصر الذي نحن فيه ، لايموت الأبطال العظام ، بل لاوجود لهم في ادب القصة ، لأن المؤلفين ، عزفوا عن البطولات ، واصبحت شخوص قصصهم ، مخلوقات تافهة ، تموت اوتعيش ، كما تموت الحشرات اوتعيش ... فلا فروسية ، ولا شهامة ، ولا تضحية ، ولا عذاب ضمير ، ولا الم كبير ...

صيحة ذعر اطلقتها منذ ثلاثين عاماً ، الكاتبة الأمريكية (لويز مونسل فيلد) في مجلة (نورث امريكان ريفيو) ، في انتقاد شخصيات البطولة في الأدب الانكليزي والامريكي بصورة خاصة ، وتوالت بعدها الصيحات .

تقول الكاتبة الامريكية ان ابطال معظم القصص في هذا القرن العشرين ، مخلوقات تتراوح صفاتها بين العته والجنون والجريمة . وإذا لاح في ميدان القصة شبح شاب شريف ، ظهر في نهاية التحليل والوصف ، انه شريف لأنه أبله .! وآخر لم يرتكب جريمة ، كرفاقه الآخرين . . لأنه جبان ! واذا منح الروائي (بريستلي) شخصية قوية لأحد شخوص الرواية ، فانه يمنحها لصبيها الصغير .. وفي رواية (لسومرست موم) تتألف البطولة من شخصين ، احدهما مضارب سمسار ، بينما الثاني فأرة تافهة تلعب بها اصابع زوجته ! فاين مضت شخصيات البطولة ، والصفات النادرة ، التي يمكن ان تميز الانسان ؟!

وسؤالنا نحن : هل درست حقاً صفات النبل الانساني فجاء الادب يعكس هذا الفراغ . امأن العالم لم يتبدل ، بخيره وشره وكل الذي تبدل هو نظرة الأديب المعاصر الى واقع الحياة ؟!

لاشك في ان الرومانطيقية تفخيم ، وتجميل ، وتزيين لايخلو من التزوير وان الواقعية الجديدة في هذا العصر ، تجريح ، وتشريح وتعرية . واذا كان من المفترض ان خلقية البشر قد تبدلت فمن المؤكد ان التحول الكبير هو في نظرة الادب الجديد الى حقيقة الحياة ، ومفاهيم الاخلاق .

ولعل من اهداف هذا الادب المعاصر ، من مقصودة الى خبيثة ، ان الحياة ، التي ترسمها الواقعية العنيفة ، في الادب ، ليست تلك التي يؤلفها ، الابطال المثاليون ، بل تلك التوافه من المجموعة البشرية ، العائمة في خضم الحدث .

ولابد من عودة الى هذا السؤال . والى اللقاء .

فهرس عام

طبعت في مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي